

تاريخ الوطن العربي القديم

. الجزيرة العربية .





منشورات جامعة دمشق

كليـــة الآداب

تاريخ الوطن العربي القديم

«الجزيرة العربية»

تأليف

الدكتورة
شكران خربوطلي

الدكتور
سهيل زكار

جامعة دمشق

١٤٤٠ - ١٤٤١ هـ
٢٠١٨ - ٢٠١٩ م



فهرس المحتويات



ـــ تقـــديـــم ـــ

نـــال تـــاريخ العرب قبل الإسلام اهتمام العديد من الباحثين في مختلف أنحاء العـــالم ، ممن يتطلعون إلى التعمق في معرفة ماضي الأمة العربية ، ومنبت قوميتها حرصـــاً عـــلى معرفتها ، وإبراز مضمونها الحقيقي بوصفها أصلاً بشرياً وحضارياً لكـــل شعوب العالم وأممه وحضاراته ، بغية التوصل إلى حقائق ما حدث بشكل عـــلمي ومـــن ثم الرد على أباطيل الأعداء الذين زيفوا التاريخ ليخدم أهدافهم ، ولـــتكون هـــذه المعرفة دليلاً لنا لفهم الحاضر ، واستشراف المستقبل ، لأن هذه الحقـــبة حافلة بالأمجاد ، ولأن فهمها يحدد الموقف من القضايا المعاصرة ، فلتاريخ العـــرب قـــبل الإســـلام أهمية عظيمة في نظر الباحثين والمؤرخين على اختلاف جنسياتهم ، ومواطنهم ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها :

١- تعـــد شـــبه الجزيرة العربية بمضمونها الجغرافي القديم مهداً لأهم الديانات الســـماوية الـــتوحيدية ، ومصـــدرٌ أصلٌ انبثقت عنه الحضارات بتراثها السياســـي والـــثقافي ، والاجـــتماعي والاقتصادي ، الأمر الذي جعلها موضوع عدد كبير من الدراسات التي قام بها علماء الآثار ، والتاريخ منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى الآن .

٢- يحـــتل الوطـــن العربي ولا سيما شبه جزيرة العرب التي هي موضوع هذا الكـــتاب موقعاً جغرافياً فريداً في ميزاته ، وذلك لتوسطه ثلاث قارات ، فشـــبه الجزيـــرة بالنسبة للعالم القديم كانت بمنْزلة القلب النابض ، كما

كانت صلة وصل لجميع هذه القارات .

٣- كـــان الوطن العربي ولا يزال محط أنظار الطامعين منذ أقدم العصور وقبلة الراغـــبين في الحصول على خيره الجزيل ، وغناه العظيم ، والجزيرة العربية بوجـــه خـــاص ، بالإضافة إلى كونها المعبر الأهم إلى بلدان آسيا وإفريقية وأوربة ، وعقدة مواصلات ، وصلات عالمية لا غنى عنها ، تحوي طبقاتها الجوفية بحراً من الذهب الأسود ، مما زاد في أهميتها في العصر الحديث .

والحـــق أن التأريخ لشبه الجزيرة العربية ، وللمدنيات العربية التي امتدت إلى الشـــمال قـــبل الإســـلام هو من الصعوبة بمكان ، لأن البحث فيه يقتضي عرض وجهات نظر العلماء المتباينة لقلة ما توافر بين أيديهم من نصوص ومستندات هي وإن كانت قد حملت بعض التواريخ فإنها لم تعتمد على تقاويم ثابتة ، بل متحركة متبدلة حسب تعاقب الأحداث والملوك ، ولوجود ثغرات كثيرة تخللت الحقب التي عُرف شيء منها في تاريخ هذه المنطقة ، ولذا ساد التخمين في كثير من الأحيان ، والـــلجوء إلى الفرضيات على ما قرره العلماء ، ولاسيما فيما يختص بتواريخ قيام الـــدول وانقراضها ، ولم يكن لنا بد ـــ تجنباً للوقوع في المزالق ، والانحراف عن نطاق العلمية ـــ من عرض ما لا غنى عن عرضه من شتى وجهات النظر ، وإبراز نقـــاط الاختلاف مهما يكن أمرها، سواء أكان لها نصيب من الصحة ، أم كانت محض فرضيات لأنها قد تصبح في المستقبل مسلّمات علمية ، إذا أسفرت التنقيبات الأثرية عن نصوص ومستندات يمكن الوثوق بصحتها ، وعندئذ يكون في استطاعة العلماء التبسط في كتابة تاريخنا القديم ، وهم على ثقة مما يعرضونه علينا .

ولدراسة تاريخ شبه الجزيرة العربية أهمية كبرى للأسباب المتقدمة ، لذا يجب أن تنطلق من حقائق تاريخية أساسية أهمها :

الأولى : وحدة السياق التاريخي العربي تجسيداً لوحدة الأمة العربية في حركة تطورها في شتى العصور والمراحل ، مما لا يسمح بفصل تاريخ أي جزء من أجزاء الوطن العربي عمّا سواه من تاريخ هذه الأمة ، وهذا الوطن ككل .

والثانية : وحدة التاريخ الإنساني من حيث هو تاريخ مترابط بفعل وجود علاقة جدلية ، أي تبادلية ما بين مسيرة تطور مختلف أقوامه وأممه .

والثالثة : وحدة التاريخ الزمنية والحياتية والتي تعني استمرارية حركة التطور التاريخي من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل واتصالها وجدليتها في شتى المجالات الحياتية التي تتبادل فعلي التأثر والتأثير فيها بينها .

ـ موضوع الكتاب :

لقد اخترنا لهذا الكتاب جملة من الموضوعات المهمة ذات الصلة بتراثنا العربي وعالجناها بأسلوب موجز ، ودونما إسهاب وتقيدنا فيه بالأعراف الجامعية من حيث تحديد عدد صفحاته بما ينسجم والزمن التدريسي المخصص له .

واتبعنا نهجاً جمع بين السرد والتحليل والتركيب بشكل علمي هادف .

وقد قسمنا الكتاب إلى فصول عشرة ، ألقينا الضوء في أولها على أهم المصادر المتعددة لتاريخ شبه الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام .

وحوى ثانيها محاولة لفهم البيئة الطبيعية التي ساعدت على تكوين الحضارة العربية وانتقلنا بعدها نحو إبراز الوجه الحضاري في تاريخنا القديم ، فلم نكتف بالتاريخ السياسي ، بل كانت لنا وقفات عند الجوانب الحضارية ولا سيما لدى عرب الجنوب وممالكهم التي أقاموها في اليمن ، وكذلك الأنباط ، والتدمريين ، والغساسنة ، والحضر والمناذرة ، والكنديين . وقد حتمت علينا الضرورة الفنية هذا التقسيم ، ولكن هذا التقسيم لا يلغي التفاعل بين الإنسان والمكان والزمان ، لأن وحدة التاريخ العربي لا تعني وحدة التفاصيل ونفي التنوع ، والخصوصية ، إنما تعني وحدة الجوهر ، وتطوراً واحداً في الخطوط العامة الشاملة لجميع الميادين الحياتية .

وتوقفنا طويلاً في الحجاز فأعطيناه أهمية أكبر لأنه مثّل مرحلة متميزة في تاريخ العرب بعد الإسلام . ولأنه يشكل الأرضية التاريخية للطالب في دراسته

لـــتاريخ العـــرب في صدر الإسلام مذكرين باستئثار الحجاز ، ولاسيما مكة من خــلال القرن السادس الميلادي باثنين من أبرز عناصر الاستقطاب العنصر الديني (الكعـــبة) ، والعنصر الاقتصادي (الإيلاف) وهذا يجعلنا ندرك أهمية الدور الذي شـــغله هذا الإقليم ، عبر لحظة ارتجاج هزت المنطقة ، والعامل أجمع ، وأفضت إلى منعطف تاريخي حاسم ، سقطت معه المفاهيم القديمة ، وموازين الصراع التقليدي.

إنهـــا محاولـــة تحمل في طياتها حقائق توصل إليها العلماء ، وقد بذلنا الجهد اعتماداً على المتوفر من المصادر العلمية ، وعلى أحدث الدراسات المعاصرة .

والله مـــن وراء القصـــد ، وله الحمد والشكر ، والصلاة والسلام على النبي العربي وآله وصحبه .

دمشق في الثامن من محرم ١٤٢٣ هـ

الموافق ٢١ آذار ٢٠٠٢ م



الفصل الأول

مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام

المصادر الشرقية القديمة :

١- النقوش البابلية والآشورية .

٢- المصادر الكلدانية والفارسية .

٣- العرب في العهد القديم .

٤- كتابات المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين .

المصادر العربية القديمة :

١- النقوش الكتابية اليمنية .

٢- النقوش الكتابية العربية والشمالية .

المصادر العربية المكتوبة :

أولاً ـــ الكتب الدينية :

١- القرآن الكريم .

٢- الحديث الشريف .

٣- كتب الفقه .

ثانياً ـــ كتب تاريخية :

١- كتب الأخبار والسير .

٢- كتب الأخبار والمعارف التاريخية .

٣- كتب النسب .

ثالثاً ــ كتب جغرافية .

رابعاً ــ كتب الأدب :

١- دواووين الشعر المختلفة .

٢- الكتب الأدبية .

٣- معاجم اللغة .

خامساً ــ المصادر السريانية :

١- شمعون الأرشامي .

٢- يوشع العمودي .

٣- زكريا الملطي .

٤- يوحنا الأفسوسي .

٥- الوثائق المونوفيزية .

٦- قرارات المجامع النسطورية .

مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام

* المصادر الشرقية القديمة :

١- النقوش البابلية والآشورية [١] :

كان البابليون الأكاديون ـــ وهم سكان بلاد الرافدين ـــ أول من أورد ذكر العرب منذ الألف الثالث قبل الميلاد بين الشعوب المجاورة لهم ، ثم كثر ذكرهم لدى الآشوريين ، وقد قُصد بهم البدو ، حيث ورد ذكرهم في كتابات الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) الذي جاء إلى سورية لإخماد نار المقاومة ضد الحكم الآشوري بقيادة ملك دمشق الآرامي ، فاصطدم بجيش مؤلف من تحالف اثني عشر ملكاً ، وكان يقود إحدى القبائل جندب العربي [٢] في معركة قرقر (قرب جسر الشغور اليوم) ولم تسفر المعركة عن نتيجة حاسمة لأي من الطرفين .

وبعد أن خضعت سورية للحكم الآشوري ، وفي عهد تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) بدأ ذكر العرب بوصفهم شعباً بشكل واضح ، ففي إحدى الكتابات الآشورية لتلك الحقبة ورد ذكر ملكتين عربيتين في قائمة من كان يدفع

---

(١) D.D, Lucken Gill, Ancient, Records of Assyris and Baby Loniac. (1968).

J.B.Pritchard " ed. " Ancient near Eastern Texs, Relating to the old testament. (1969) .

(٢) حتي :(فيليب) وجرجي (أدوار) وجبور (جبرائيل) تاريخ العرب . دار عندور للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٧ . ص ٦٥-٦٦ .

الجـــزية للملك الآشوري بعد المعركتين اللتين خسرتاهما أمام الجيش الآشوري ، وكذلك أسماء بعض القبائل والمدن العربية التي كانت تدفع الجزية عن طوع حفاظاً عـــلى أمـــن تجارتهـــا وسلامتها التي كانت تتبادلها مع شمال الجزيرة العربية مثل ســـبأ وتـــيماء ... وهـــي قـــبائل كانت تقيم في الغالب بين سيناء وشمال غربي الجزيرة العربية [1] .

كـــانت تـــلك القـــبائل تدفع الجمال والتوابل ، والأفاوية وأحياناً الذهب والفضة كجزية .

وبحـــلول عام (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) جاء ذكر سرغون الثاني الذي قضى على أربع قبائل عربية ، ومن بينها قبيلة ثمود .

وفي عـــام (٧٠٥-٦٨١ ق.م) ظهر الملك الآشوري سنحريب الذي أخضع دومة الجندل (٦٨٨ ق.م) ، ومن خلال النقوش ظهر بعض المرتزقة من العرب في خدمـــة البابـــليين ، وبرز اسم ملك عربي هو خزائيل [2] الذي هاجمه سنحريب وطـــارده مـــع حليفته الملكة العربية (تعلخونو) فهربا إلى دومة الجندل . وبعدها ظهـــر اســـم ابـــنه يَوْثع الذي عقد اتفاق سلم مع الملك الآشوري آشور بانيبال (٦٨٨-٦٣٣ ق.م) وأعـــاد إليه ملكه وآلهته التي أخذها الآشوريون معهم في إثر هجومهم الأخير .

وعـــندما انشق أخو الملك الآشوري ، وأظهر العصيان على أخيه طالباً المُلك لنفســـه انحاز ابن أخيه يَوْثع إليه ولكن الغلبة كانت في النهاية للملك الآشوري ، الذي قبض على الثائر وعذبه حتى الموت .

---

[1] حتي : المرجع نفسه ص٦٦ .

[2] حـــتي : المـــرجع نفســـه ص ٦٧ . عباس وأبو طالب (إحسان ومحمود) . شمال الجزيرة العربية في العهد الآشوري . عمان . جامعة اليرموك ١٩٩١ ص٩ .

وفي أثناء ذلك ورد ذكر منطقة عربية دعيت بنايوت [1] .

وتحفل الكتابات الآشورية بأخبار العرب ، وغزواتهم المتتالية على طول الحدود الفاصلة بينهم ، وقد أظهرت الحفريات عدداً من اللوحات الحجرية تصور هجوم الآشوريين على خيام العرب ، وحرقها ، وفتكهم بها ، ومطاردتهم ، وهم يمتطون الجمال أو الخيول .

مما تقدم وجدنا أن ذكر العرب كان إشارات جانبية وغير محددة في بعض الأحيان كما كانت عابرة دائماً وأن معرفة الآشوريين لشرقي الجزيرة العربية ، كانت بسبب العلاقات السياسية والاقتصادية ، ولا سيما التجارة التي قامت بين الطرفين .

٢- المصادر الكلدانية [2] والفارسية :

قُضي على الأمبراطورية الآشورية بتحالف الكلدانيين والفرس فتأسست مملكة ببابل الجديدة ، وعندها تحالف العرب بسبب عدائهم للآشوريين ، وهنا قلت الأخبار التي ذكرت العرب حتى عام (٥٥٥-٥٣٨ ق.م) .

وذُكر أن الملك الكلداني نبونيد هاجم تيماء ، وشرد أهلها وقتل ملكها واتخذها مقراً له قرابة عشر سنوات ، حيث ابتنى قصراً له هناك ، ونقل معه أقواماً من البابليين واليهود وأسكنهم الحجاز (خيبر وتيماء ويثرب) [3] ، ولم يرجع إلى بابل إلا بعد أن شعر بخطر الفرس الذين بدأت شوكتهم تقوى .

وعندما ورث الفرس الإمبراطورية الكلدانية ، وأخذوا يتوسعون باتجاه مصر

---

[1] التوراة : سفر التكوين ، الفصل ٢٥ .

[2] الكلدانيون هم الآراميون الذين استولوا على حكم بابل .

[3] علي (جواد) . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ـ مكتبة النهضة ، بغداد ١٩٧٦م ط٢ ج١ ص (٦١٨-٦١٩) .

في عهد قمبيز ، كان العرب ممن ساعدهم وأمدوهم بما كانوا يحتاجون إليه من ماء وجمال حتى تمكنوا من السيطرة عليها [1] .

ولم ينكر الفرس مساعدات العرب فتركوا لهم حرية التنقل داخل بلاد الشام ، وبلاد الرافدين وسيناء ، ونظر العرب لهم نظرة الحليف فحاربوا إلى جانبهم ، وكانت لهم فرق عسكرية في الجيش الفارسي في مصر [2] .

٣- العرب في العهد القديم :

ورد ذكر العرب في أسفار العهد القديم والتلمود وقصص جرت لأحبار من اليهود مع الأعراب ، وأحكام شرعية تتعلق بالاتصال بالعرب ، واختلاطهم بهم ، وبعض عاداتهم كتحجب النساء عند الخروج إلى المحال العامة ، ووضع الرجال اللثام على وجوههم أثناء السفر للوقاية من الرمال ، وذكر امتلاك العرب لمقدرة فائقة في معرفة المياه في الصحراء [3] ، فقد عُرف العرب باسم طييعة ، وهذا أقرب إلى تسمية السريان للعرب البدو (طياية) نسبة إلى قبيلة طيء العربية التي كانت معروفة عندهم في ذاك الوقت أكثر من غيرها ، فغلب اسمها على سائر أنحاء القبائل .

وذُكر أن البشر ينتسبون إلى نوح الذي كان له أولاد ثلاثة هم : سام وحام ويافث ، فالساميون هم أحفاد سام بن نوح ، وحين تكاثروا انقسموا إلى أقسام فرعية وقبائل . وقد تأثر النسّابون العرب في كتبهم عن الأنساب ، وفي تصانيفهم للقبائل العربية بما جاء في التوراة ، ولكن هذا لا يستند إلى أساس علمي قد يكون

---

[1] علي : المرجع نفسه ٦٢١/١ .

[2] علي : المرجع نفسه ٦٢٦/١ .

[3] علي :المرجع نفسه ٦٥٣/١. هبو: (أحمد رحيم) تاريخ العرب قبل الإسلام ، جامعة حلب ١٩٧٩ /١٩٨٠م ص٢٢.

الوضـع السياسي آنذاك وراء هذا التقسيم ، وبالتالي فقد سقطت النظرية التوراتية لأنه لا يمكن لشعب من الشعوب أن يثبت صفاء دمه ، بالإضافة إلى أن القبائل في حركة انتقال دائم وتمازج .

٤- كتابات المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين :

سـجل المؤرخون القدماء وعلى رأسهم الإغريق أخبار الشعوب وتقاليدها وأحوالهـا إذ أنهم كانوا يتجولون في المناطق التي استطاعوا الوصول إليها بجهدهم الخاص ، وكانوا يشتركون في الحملات التي كان يرسلها الإغريق والرومان .

أشـهر هؤلاء هيرودوت . يذكر على سبيل المثال أن بلاد العرب هي أقصى بـلاد المعمورة في العالم نحو الجنوب ، وأنه يقول أن أريج الطيوب يملأ جو هذه البلاد وأن العرب يتاجرون في هذه الطيوب والتوابل مع البلاد الأخرى [١] .

أمـا سترابون (٦٤ ق.م - ١٩م) الذي ساهم في الحملة الرومانية فأفرد فصلاً خاصـاً في كتابه الجغرافي لبلاد العرب ، فأشار إلى مدنهم وقبائلهم ، ووصف فيه أحوالهم الاجتماعية والتجارية وتحدث عن حملة إيليوس غالوس ضد عرب الجنوب عام ٢٤ ق.م [٢] .

وتكلم بطليمـوس عن القبائل العربية وأحوالـها ، وتحدث عن حضرموت بصورة خاصة .

المصادر العربية القديمة :

تعد المصادر العربية القديمة أدلة مادية تخص حياة العرب قديماً ، وتتعلق بأمر حضارتهم ومصادر عربية قديمة تشتمل على العديد من الكتب .

---

(١) Herodotos, Historia, III, 107-113.

(٢) Strabo, the Geography of strabo, trans. H. L. Jones, London, 1949 - XVI ,113 .

آ‐ الأدلة المادية :

وتمثل النقوش غير المدونة والتماثيل والعملات والأبنية وغيرها ، وهي آثار متواضعة إذا ما قورنت بما تركه جيرانهم في الشمال ، وفي مصر .

ومن هذه الآثار :

١- النقوش الكتابية اليمنية :

تُعدّ النقوش الكتابية الأثرية في طليعة المصادر التي تكوِّن التاريخ عامة ، والتاريخ العربي خاصة ، وهي وثائق ذات شأن لأنها الشاهد الناطق الحي الوحيد الباقي من تلك الأيام .

وتتعلق معظم الكتابات قبل الإسلام التي عثر عليها للأسف بأمور شخصية ، ولذلك انحصرت فوائدها في نواح معينة ، وفيها عدد من أنظمة التاريخ التي استخدمت لتوثيق الأحداث . وقد تدرجت من التأريخ بزمن الحادثة دون تحديدها بالشهر والسنة ؛ إلى التأريخ بعهود الأشخاص من غير الملوك ، والذين تولوا وظائف مهمة ، وكان أغلبهم ينتمون إلى أسر تولت وظيفة الكهانة في المعبد ، وكانت تواريخ الأشخاص المؤرخ بعهودهم تستمر لمدة سبع سنوات ، كما أنهم أرّخوا بأسماء أشخاص تولوا وظائف إدارية لمدة لا تزيد على سنتين ، واستمر التأريخ بهذا الشكل إلى أن بدأ العمل بالتأريخ وفق تقاويم ثابتة اختلفت بداياتها ومسمياتها . وكان أشهر تلك التقاويم التقويم الحميري وتقويم نبط [1] . وهي بما تتضمنه من أخبار تضم مادة أساسية لتاريخ العرب المتقدم على ظهور الإسلام ، وتاريخ حضارتهم ، ولا سيما فيما يختص منها بالدراسات اللغوية ، وهي لهذا

---

[1] سيف الحمادي (هزاع محمد عبد الله) أنظمة التأريخ في النقوش السبئية ، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور فواز الخريشة ، جامعة اليرموك ١٩٩٧ ص١٧٤ .

الســبب تعد وثائق أصيلة يستند إليها المؤرخ في تاريخه للأحداث ، لأنها كتابات محــايدة غــير مغرضة ، بالإضافة إلى كونها معاصرة لهذه الأحداث التي تسجلها ، لم تشوهها الروايات ، ومن هذه النقوش المعروفة الآن :

١- نقش شمريهرعش (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت)[١] . وكان أبــرز الحكام اليمنيين قبل الإسلام ، قام بغزوات عديدة في اليمن، وبعد أن استتب له الأمر ، أعاد بناء ما دمرته الحروب [٢] .

٢- نقش شرحبيل يعفر (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في الطــود وتهامة) أو (.... وأعرابهم في الجبال والسواحل) [٣] ساد في عهــده الأمن والاستقرار ، فانتعشت أعمال البناء وكان أعظمها إعادته لبناء سد مأرب عدة مرات [٤] .

٣- نقــش صــرواح الكــبير ، أو نقش النصر الذي أمر بكتابته المكرب السـبئي كرب أيل وتر ، ويوجد حالياً في موقع معبد المقة الكبير بمدينة صــرواح ، والنقش يتكون من عشرين سطراً تتحدث عن الانتصارات الحــربية الــتي حققها المكرب ملك كرب أيل وتر بن ذمار علي ، في حملاتــه المــتكررة على عدد من المناطق الداخلية والتي أصبحت ضمن نفوذ الدولة السبئية (٥) .

---

[١] علي : المرجــع المتقدم ١/ ٥٠ ــ الأريــاني (مطهر) نقوش مسندية . مركــز الدراسات والبحــوث اليمني ١٩٩٠ ط٢ ص ١٩٠ .

[٢] سيف الحمادي : مرجع متقدم ص ٩٦ .

[٣] علي : المرجع المتقدم ١/ ٥٠ .

[٤] سيف الحمادي : المرجع المتقدم ، ص (٥٥-٥٦) .

[٥] سيف الحمادي : المرجع المتقدم ١٣٤ . الأرياني مرجع متقدم (٤٥٧-٤٦٤) .

٤- نقش عبد كلال الذي ذكر فيه اسم الرحمن كدلالة على ظهور فكرة التوحيد على لسان ملوك اليمن وزعمائها .

٥- نص حصن الغراب الذي أمر بكتابته السميفع أشوع وأولاده تخليداً لذكرى انتصار الأحباش على اليمانيين عام ٥٢٥ م ، يتكون النقش من عشرة أسطر كتبت على صخرة حصن الغراب وتتحدث عن قيام أصحاب النقش بترميم مرافق الحصن المختلفة ، سوره وبابه وصهاريجه والطريق الصاعدة إليه وذلك حين تحصنوا بعد عودتهم من أرض حبشت بعد أن وجدوا الأحباش زرافات بأرض حمير ، وقد قتلوا ملك حمير وأقياله الحميريين والأرحبيين [1].

ومن المفيد ذكره أنهم لم يتأثروا بأي من صيغ الإشارات التأريخية في نقوش الحضارات الأخرى ، بل كانت لها خصوصيتها المميزة مع وجود تشابه بينها وبين نقوش حضارات بلاد الرافدين والآشورية والبابلية ، من حيث التأريخ كما ذكر أسماء أشخاص من غير الملوك لأنهم كانوا يذكرون ملوكهم عرضاً في النقوش ، ولعل الجانب المعماري كان في مقدمة الجوانب الأخرى التي أشارت إليها النقوش المؤرخة ، فقد أرخوا للعديد من منشآتهم المعمارية المختلفة التي لقيت منهم الاهتمام كالمساكن الخاصة والعامة ، كما اهتموا بإقامة منشآت الري المتنوعة كالسدود والآبار وأحواض المياه المختلفة ، واهتموا ببناء المعابد وملحقاتها المختلفة والملاحظ أن غالبية النقوش التي دونوها لتلك المباني الدينية لم تؤرخ بالشهر والسنة إنما كانوا يكتفون بالإشارة إلى أن إنجاز البناء كان (عندما ــ حينما) ثم يذكرون المناسبة ، وكانوا أيضاً يؤرخون لمنجزاتهم الدينية بمناسبات أخرى يتفق

---

[1] سيف الحمادي : المرجع المتقدم ص ١٤٩ .

توقيتها مع الانتهاء من بناء تلك المنجزات المعمارية الدينية .

وهـناك نقوش دينيـة مؤرخة تضمنت أموراً متعلقة بالجانب الديني بصورة مباشرة [1] ، ونقوش مؤرخة لحملات وغزوات وحروب داخلية وخارجية [2] تعدّ مـادة خصـبة لمعـرفة فـن الحرب في اليمن القديم حيث يمكن أن يعرف منها تشسكيلات الجيش ومحالقه وأسلحته ، والخسائر ، ونمط العمليات ، وتقديم بعض المعلومات التاريخية عن حقبة الصراع الطويل الذي انتهى في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد حول لقب ملك
سبأ وذي ريدان [3] .

أما النقوش المؤرخـة في الجانب الاقتصادي ، فيشير بعضهـا إلى العـوامل المؤثرة على الاقتصاد [4] .

٦- نـص أبـرهة عام ٥٤٣ م الذي دونه بعد قيامه بإعادة بناء سد مأرب وعلى نسق محتوى نقش شرحبيل يعفر في سرد تفاصيل البناء، والنفقات الـتي صرفت على العمال ، ومواد البناء المستخدمة في بنائه ، ويتكوّن النقش من مئة وستة وثلاثين سطراً . وردت فيه إشارتان تاريخيتان :

- الأولى : تؤرخ لتمرد يزيد بن كبشة ومعه قبائل المشرق .
- الـثانية : وهـي الأهـم تؤرخ لعملية الانتهاء من إعادة بناء العرم (سـد مأرب) وذكر وباء الطاعون الذي انتشر في منطقة مأرب ،

---

(1) سيف الحمادي : مرجع متقدم ص ١٧٥- ١٧٦ .

(2) سيف الحمادي : مرجع متقدم ص ١٧٧ .

(3) عبد الله (يوسف محمد) أوراق في تاريخ اليمن وآثاره بحوث ومقالات ـــ بيروت ـــ لبنان دار الفكر ط٢ ١٩٩٠ ص ٥٨ .

(4) سيف الحمادي : مرجع متقدم ص ١٧٧ .

وأصـــاب العمـــال الذين تجمعوا للمشاركة في إعادة بناء السد ، فتوقف بدء العمل فيه [١] .

٧- نقـــش بـــئر مـــريغان ، ويتكون من عشرة أسطر تتحدث عن وقوع مناوشـــات بـــين قبائل نجد استغلها أبرهة لتوجيه حملته التأديبية للقبائل الخارجة عن طاعته في تلك المناطق كقبيلة معد القاطنة في وادي حلبان بوســـط الجزيـــرة العربية على الحدود الشمالية لليمن [٢] ، وليس لهذه الحمـــلة أي ارتـــباط بحملة أبرهة المعروفة باسم حملة الفيل لأن أحداث النقش تبين أن أبرهة قد عاد من حملته على قبيلة معد بالسلامة ، بعد أن أعـــاد القبائل الثائرة إلى حكمه ، وطاعته ، وأخذ منهم رهائن بضمانة عمـــرو بن المنذر ، ثم أن تاريخ النقش متقدم على تاريخ حملة الفيل التي أُرّخ بهـــا لمولد الرسول ﷺ والتي كانت نحو ٥٧٠/ ٥٧١م في حين أن نقش أبرهة هذا مؤرخ بسنة ٥٤٧ م [٣] .

والمفيـــد ذكره في هذا السياق أن استعمال المسند لم يكن قاصراً على اليمن وحســـب ، وإنمـــا كان القلم المستعمل في أنحاء بلاد العرب ، وهذا ما سنتعرض للحديث عنه في بحث اليمن [٤] .

يعـــود الكشـــف عن النقوش التي ألقت الضوء على الجزء الجنوبي من شبه الجزيـــرة العـــربية إلى جهـــود عدد كبير من العلماء المستشرقين (نيبور وهاليفي وغـــلازر) وبعض العلماء العرب أمثال محمد توفيق ، وأحمد فخري الذين حفزهم

---

[١] سيف الحمادي : المرجع نفسه ص (٧٠-١٣١-١٥٢) .

[٢] سيف الحمادي : المرجع نفسه ص (١٥٤-١٥٦) .

[٣] سيف الحمادي : المرجع المتقدم ص ١٥٦ .

[٤] ينظر في بحث اليمن .

الفضول العلمي للتوجه إلى جنوب شبه جزيرة العرب ، وتكبدوا المشاق ، وتحملوا الأهوال في سبيل البحث والتنقيب عن آثار العرب القديمة للتأكد مما قرؤوه عن العرب القدماء ، وموطنهم الأصلي في المؤلفات التاريخية الإغريقية منها والرومانية ، وما وجدوه في العهد القديم والكتب المقدسة وإن كانت النقوش اليمنية تعالج موضوعات لا تخرج عن نطاق الأمور الشخصية إلا أنها خير معين للمؤرخين عند كتاباتهم عن تاريخ العرب الجنوبي ، فهي تتضمن أسماء عدد من الملوك والآلهة وتشير إلى الصلات بينهم ، والحروب التي خاضوها .

وقد تبين أن النقوش أرخت نسبة إلى حكم الملوك وسادات القبائل ، ودلت على أن العرب الجنوبيين كان لهم تقويم شمسي وآخر قمري ، ولما جاء الحميريون اتخذوا عام توليهم الحكم بداية لتاريخهم وهو يطابق سنة ١١٥ ق٠م أو ١٠٩ ق.م [١] مما أتاح فرصة أكبر لتاريخ الأحداث اليمنية ، ومتابعة تطورها بشكل منتظم .

وقد أشارت النصوص السبئية إلى ملوك سبأ في القرن الرابع الميلادي ، والذي تبين أن هؤلاء أصبحوا يحملون لقباً يشتمل على تسمية العرب (الحضر والبدو) وهو " ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وعربهم في الجبال وتهامة " [٢] .

وهنا يظهر التمييز واضحاً بين سكان المدن والبدو الذين تذكرهم تلك الوثائق .

٢- النقوش الكتابية العربية الشمالية :

ومثلما اهتم العلماء والمستشرقون والباحثون العرب من بعدهم بجنوب

---

(١) علي : المرجع نفسه ٤٨/١ .

(٢) عاقل : (نبيه) تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ـــ جامعة دمشق ١٩٩٢ ص٩٤ .

الجزيرة ، كذلك اهتموا بقلب الجزيرة العربية وأطرافها ، فتوافدوا منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى المناطق العديدة ، وكانت نتائج تنقيباهم معلومات حفزت الدارسين إلى كتابة تاريخ موثق يروي قصة الحضارة عند عرب الشمال ، وطرائق معيشتهم وعلاقاهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

تقسم النقوش الكتابية العربية الشمالية إلى قسمين ، نقوش عربية أولى مبكرة كالكتابات الثمودية واللحيانية ، والكتابات الصفوية ، والكتابات الإحسائية ، وهي نقوش متأخرة عن المسند ، ولعلها متفرعة منه ، وتعود تواريخ بعضها إلى ما قبل الميلاد وهي نقوش قصيرة ، وشخصية ليس فيها وثائق تتعرض للمسائل العامة . ونقوش وكتابات عربية متقدمة على العربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، والأدب الجاهلي أطلق عليها اسم الكتابات العربية المتقدمة ، وتتمثل فيها اللغة العربية التي تقدمت على لغة العصر قبل الإسلام ، وصدر الإسلام ، بما لا يزيد على القرنين من الزمن ، ومن هذه الكتابات نقش أم الجمال الأول الذي عثر عليه في حوران في منطقة تدعى أم الجمال (٢٧٠ م) وجد مكتوباً على شاهد قبر وله أهمية تاريخية إضافة إلى أهميته اللغوية لما يشير إليه من صلة بين عرب العراق وعرب الشام ، ونقش الحِجْر (٢٦٧ م) وقد دون النقشان بالقلم النبطي الآرامي .

ويُعدّ نقش النمارة أهم كتابة عربية ، وأشهر نقش عربي دُوِّن بقلم نبطي في لغة عربية ، عثر عليه رينيه ديسو على جبل الصفا الواقع إلى الجنوب الشرقي من دمشق [1] ، ويتألف من خمسة أسطر تؤكد وجود قبر امرئ القيس (٢٢٨-٣٢٨ م) في حوران وفيه ذكر للفرس والروم ، وامتداد نفوذ ملوك الحيرة

---

[1] ديسو (رينيه) العرب في سوريا قبل الإسلام . ترجمة عبد الحميد الدواخلي . ومحمد مصطفى زيادة . دار الحداثة ١٩٨٥ ط٢ ص٣٣ .

وسلطتهم في وقت من سني حكمهم إلى جنوب سورية . ويعني أيضاً تحالف ملوك الحيرة مع الفرس والروم معاً قبل ظهور منافسيهم الغساسنة .

ويؤكد النص أيضاً على الوحدة الثقافية التي تجمع منطقتي بلاد الرافدين وبلاد الجزيرة العربية وسيطرته على قبائلها ووصوله إلى نجران على حدود اليمن ولذلك استحق لقب ملك العرب بجدارة [1] .

أما كتابات الفاو شمال شرقي نجران والتي كانت مركزاً تجارياً تؤمه القوافل المتجهة إلى هذا المكان من الجزيرة العربية فقد كشفت عن مركز حضاري لم يكن معروفاً من قبل قد يكون عاصمة دولة كندة [2] . كذلك كشفت عن محطة تجارية على طريق التجارة من الجرهاء إلى وسط الجزيرة العربية ، والمتجهة إلى سورية وفلسطين شمالاً ، هذه المحطة تسمى جبة إلى الجنوب من دومة الجندل [3] ، ونقش جبل رم وهي نقوش ثلاثة ، قصيرة النص تفيد في تتبع التطور الذي طرأ على القلم الآرامي النبطي ، وتمثل بحق القلم العربي الحديث في أولى ملامحه ، وقد عثر عليها في معبد على جبل رم شرقي العقبة ، ويعود تاريخها إلى منتصف القرن الرابع الميلادي .

وفي القرن السادس الميلادي شهدت الجزيرة العربية تطوراً ملحوظاً في الأوضاع التجارية والاقتصادية والاجتماعية على الصعيد الثقافي نمواً سريعاً في لغة العرب الشماليين ، وخطهم على نحو ما يصور لنا ذلك نقش زبد الذي اكتشفه

---

(1) الأنصاري : (عبد الرحمن الطيب) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ـ مصادر تاريخ الجزيرة العربية ـ مطابع جامعة الرياض ١٩٧٩ ج١ ص (٧٣-٧٩) .

(2) الأنصاري : المرجع نفسه ٩/١ .

(3) الواحة ، العدد ١٣ الربع الأول ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م ، مقال بعنوان الجرهاء ودورها في التجارة العربية القديمة للدكتور محمد السيد العبد الغني ص ١٣٩ .

ساخو سنة ١٨٧٩ م على أسكفة باب معبد أقيم للقديس سرجيوس في بلدة زبد (منطقة حلب) ويعود تاريخه إلى ٥١٢ م وقد كتب النقش بثلاث لغات اليونانية والسريانية والعربية . وخطه قريب من أقدم خط إسلامي ، وتعود أهميته إلى أن خصائص الخط العربي قبل الإسلام تتكامل فيه ، ويرى بلاشير أن كتابة زبد جديرة بتسميتها عربية لأنها تحوي جميع مظاهر الكتابة العادية المتصلة الحروف [(١)].

ونقش جبل أسيس [(٢)] احتوى أربعة أسطر قصيرة كتبت بالقلم العربي الحديث الناشئ الذي بدأ يتخذ شكله الأخير . ويتحدث النقش عن رسول اسمه إبراهيم بن مغيرة الأوسي بعثه الملك الغساني الحارث بن جبلة بمهمة عسكرية عام ٥٢٨ م .

ونقش حران الذي يرتقي تاريخه إلى ٥٦٨ م وقد كتب بلغتين يونانية وعربية تقترب كثيراً إلى عربية القرآن وخطه النبطي يقترب جداً من الخط الإسلامي القديم ، فهو إذن أكثر دلالة بلغته وكتابته معاً على بداية استقلال اللهجة العربية الفصحى وكتابتها عن اللهجة النبطية وكتابتها وهو يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخيبر [(٣)] . ونقش أم الجمال الثاني وهو ثاني كتابة عثر عليها في موضع أم الجمال ، ولكن لا تاريخ له ، ويرجع العلماء الذين درسوه تاريخه إلى أواخر القرن السادس الميلادي ، وإذا صح أن كتابته جاهلية أصيلة يكون أول نص يمكن عدّ كتابته بحق من النصوص المدونة بلغة القرآن الكريم والشعر الجاهلي [(٤)] . وهو

---

(١) علي : المرجع المتقدم ٥١/١ . بلاشير : (د.ر) تاريخ الأدب العربي . ترجمة إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر بدمشق ١٩٨٤م - ط٢ - ج١/ص ٨٣ .

(٢) العش : نشأة الخط العربي ص ٢-٣ ، هبو : المرجع المتقدم ص ٤٣ .

(٣) علي : المرجع المتقدم ٥٢/١ . دلو : المرجع المتقدم ٢١٠/١ .

(٤) علي : المرجع المتقدم ٢٤٩/١ . بلاشير : المرجع المتقدم ٨١/١ وأم الجمال قرية تقع غربي حوران .

أيضاً بلغته وكتابته يخطو خطوة جديدة باتجاه استقلالية اللهجة العربية الفصحى، وكتابتها عن اللهجة النبطية وكتابتها.

ويمكن الاستنتاج مما تقدم أن الخط العربي الذي اشتق من القلم النبطي الآرامي تكامل في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، كما تكاملت اللغة التي كتبت بها النصوص الآنفة الذكر وأخذت شكلها النهائي وأصبحت لغة أدبية عامة هي الفصحى. فقد مرت اللغة حسب تعاقب تواريخ النصوص بمراحل متدرجة من لغة نبطية (نص أم الجمال الأول) إلى لغة نبطية عربية (نص النمارة) إلى لغة عربية مستقلة متحررة إلى حد كبير من النبطية (نص حران اللجاة) و (نص أم الجمال الثاني).

* المصادر العربية المكتوبة:

تشتمل على كتب دينية ككتب الشريعة من قرآن كريم، وحديث شريف، وكتب فقه أو كتب تاريخية تحتوي أخباراً وسيراً ومعارف تاريخية وكتب أنساب وكتباً جغرافية وكتباً أدبية.

أولاً – الكتب الدينية:

١– القرآن الكريم:

يعد مصدراً تاريخياً مهماً، وهو أقدم الموارد العربية المدونة لتاريخ العرب قبل الإسلام، ولا سيما حقبتها الأخيرة، وهو أصدق المصادر المدونة على الإطلاق لأنه تنْزيل من الله تعالى لا سبيل إلى الشك في صحة نصه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [١].

يصور القرآن الكريم أحوال العرب قبل الإسلام ويتحدث عن تفكيرهم

---

[١] فروخ: (عمر) ـــ تاريخ الجاهلية ـــ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤ م ص ١٦.

وأوضاعهم الاجتماعية وعباداتهم وغير ذلك [١] .

٢- الحديث الشريف :

وهو أصدق المصادر بعد القرآن الكريم يتضمن أحكاماً وقوانين للمجتمع الإسلامي المتطور ، ويتحدث عن جوانب عديدة من أحوال العرب قبل الإسلام ، ولا سيما الحقبة المتصلة بظهور الإسلام والتي ليست موجودة في مصدر آخر [٢] .

تناولت كتب الحديث الحياة في ذلك الوقت وعرفت كل ما كان قائماً من نظم الحياة الدينية والفكرية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وقد أقر الحديث ما كان صالحاً وعدّل ما لزمه التعديل ونهى عمّا رآه ضاراً أو فاحشاً في حياة الناس . وقد جمعت أحاديث الرسول ﷺ في كتب كالبخاري ومسلم وسنن ابن داوود ... الخ .

٣- كتب الفقه والتفسير :

وهي من المصادر المساعدة لمعرفة تاريخ العرب قبل الإسلام ، وتُعدّ ثروة تاريخية قيمة تشرح بصورة مفصلة ما جاء مقتضباً في القرآن الكريم وعهد النبوة ، وتوضح أيضاً ما أغلق علينا فهمه من تشبيهات واستعارات ، ومن تلك الكتب تفسير الطبري وابن كثير والنووي والذهبي .

ثانياً ـــ الكتب التاريخية :

١- كتب الأخبار والسير :

وهي المؤلفات التي دُوّنت في عصور الإسلام للبحث في سيرة النبي ﷺ

---

[١] سورة النمل : الآية ١٤-٢٤ . سورة الإسراء : الآية ٦٦ . سورة الرحمن : الآية ١٩-٢٤ . سورة الشورى : الآية ٣١-٣٣ . سورة فصلت : الآية ٣٧ . سورة النجم : الآية ٢٩-٤٩ . سورة نوح : الآية ٢١-٢٣ . سورة البروج : الآية ٤-٩ .

[٢] علي : المرجع المتقدم ٦٧/١ .

وغـــزواته وقد تضمنت في ثناياها أخباراً متنوعة في بعض مظاهر الحياة العربية قبل الإسلام ، وارتبطت بالحديث وتأثرت بطريقة كتابته .

وظهرت السيرة على شكل أحاديث تدور في المجالس الخاصة ، حيث يسأل أحد العلماء عمّا يعرف عن حادثة وقعت للنبي ﷺ أو عن غزوة قام بها أو اشترك بهـــا فـــيحدثهم العـــالم معتمداً في ذلك على من نقل إليه تلك الأحاديث بطريقة الإســـناد المعـــروفة عـــند أهـــل الحديـــث الشريف حتى تكتسب أحاديثه صفة الصدق والأمانة .

لذلـــك كـــان أول مـــن انصرف إلى هذا العلم من المحدثين إذ نجد ذكرهم في كـــثير مـــن أســـانيد الأحاديث النبوية الشريفة مثل أبان بن عثمان (ت ٩٥ أو ١٠٥ هـــ) [١] ، وعـــروة بـــن الـــزبير (ت ٩٤ هــ) ، ووهب بن منبـــه (ت ١١٠ هـــ) ، وابن إسحق (ت ١٥١ هــ) ، والواقدي (ت ١٧٠ هــ) ، وابـــن هشـــام (ت ٢١٣ هــ) . ومن أشهر كتب الأخبـــار والسير "سيرة ابن إسحق وابن هشام " ، والواقدي في كتابه " مغازي الرسول " ... الخ .

٢- كتب الأخبار والمعارف التاريخية :

تطور الاهتمام بسيرة الرسول ﷺ وغزواته ليشمل التاريخ العربي قبل الإسلام وبعـــده تاريخ الأمم التي اتصلت بهم ، وبدأت مؤشرات الاهتمام بالتاريخ الخالص تظهـــر دون الـــتفكير الأساسي بالعلوم الدينية ، وبدأ بعض الكتّاب ينصرف إلى تدوين ما وصل إليهم من معلومات كان يتناقلها الرواة من جيل إلى جيل .

وأصـــبح الأخباريون [٢] مع بداية القرن الثاني الهجري يتبعون طرائق البحث

---

[١] الـــدوري: (عـــبد العزيـــز) بحـــث في مسألة علم التاريخ عند العرب بيروت ١٩٦٠ م ص ٢١ ، هبو: المرجع المتقدم ص ٤٩.

[٢] كان المؤرخون يدعون آنذاك بهذا الاسم .

والاستقصاء وأخذوا يتصلون بالقبائل العربية وحاملي المعلومات الصحيحة وما عادوا يكتفون بنقل المعلوم من الأخبار .

ومن أولئك الأخباريين عبيد بن شريه الجرهمي (ت ٦٧ هـ) ، ووهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) وقد سعى كلاهما في كتاباته إلى تمجيد عرب الجنوب اليمانيين وإظهارهم بمظهر السباق في التوحيد واللغة والأدب والصنعة وإعطاء صورة رائعة عنهم تجابه تفوق عرب الشمال في زمنهم وتعكس صورة للتفاخر بين الاثنين فكلاهما يمثل مدرسة تاريخية هي المدرسة اليمنية .

٣- كتب النسب :

الأنساب سلاسل أسماء تدعو لها الحاجة الاجتماعية القبلية للتعارف والتمايز إنها كالأعمدة تنسج من حولها بعض القصص التي تحفظ تكوينها ، وهي في الواقع التاريخ الأنتربولوجي التقليدي ، والهيكل العظمي للفكرة التاريخية ، وعلى الرغم من أنها أكثر تاريخية من القصص لأنها شكل من أشكال التعبير التاريخي يسجل إطار التكون القبلي ، إلا أن المعلومات النسبية قبل الإسلام بقيت شفهية مدة طويلة بعد الإسلام وتحوم حول شكلها المسجل لدينا شكوك كثيرة .

يمثل هذا الفريق من المؤرخين الأوائل الذين كانت البصرة والكوفة مركزاً لهم وهم هشام بن محمد السائب الكلبي (ت ٢٩٤ هـ) صاحب كتاب " الأصنام والجمهرة في الأنساب " ، وسيف بن عمر التميمي (ت ١٨٠ هـ) ، وأبو عبيدة معمر ابن المثنى التميمي (ت ٢١١ هـ) ، والمدائني (ت ٢٢٥ هـ) ، ومصعب الزبيري (ت ٢٣٦ هـ) .

ثالثاً ـ كتب جغرافية :

تُعدّ كتب الجغرافية رافداً أساسياً لكتب التاريخ والمعلومات التاريخية ، فمنها

يتعرف المرء على سكن القبائل ومواردها الاقتصادية وعبادات القوم وهجرتها .

اشـــتهر من الجغرافيين ابن خرداذبة (ت ٣٠٠ هــ) ، والهمذاني (ت ٣٣٤ هــ) الـــذي يُعدّ أقدم من وصف أصقاع الجزيرة العربية وبيَّن آثارها بالتفصيل واليمن بشـــكل خاص مستنداً إلى مشاهداته الخاصة . وكان يلمُّ بأنساب التبابعة وبالخط المسند فادعى أنه نقل الكثير من أخباره من النقوش التي قرأها به ، وقد كان سباقاً في مجال الشؤون اليمنية وحضارتها والسير على منهج علماء الآثار المعاصرين .

وهـــناك الكثير من الكتب الجغرافية التي ألفت والتي يمكن الاستفادة منها في مجـــال الـــتاريخ ، ونذكر بالإضافة إلى ما ذكر في الفقرة السابقة كتاب البكري (معجم ما استعجم) و (معجم البلدان) لياقوت الحموي ، وغيرهما كثير .

رابعاً ــ كتب الأدب :

في ثـــنايا بعض كتب الأدب ثروة تاريخية قيمة لا نجد لها مثيلاً في المؤلفات الـــتاريخية في كثير من الأحيان ، وإن ما جاءت به كتب الأدب عن ملوك الحيرة والغساســـنة وكندة وعن أخبار القبائل العربية هو أكثر بكثير مما جاءت به كتب الـــتاريخ ، بـــل أحســـن مـــنها عرضاً وأكثر منها دقة ، ويدل عرض نصوصها بالأسلوب الأدبي المعروف على أنها مستمدة من موارد عربية خالصة ومأخوذة من أفواه شهود عيان شهدوا ما تحدثوا عنه ، ويأتي في طليعة الكتب الأدبية :

١- دواوين الشعر المختلفة :

حيـــث يُعدّ الشعر من المصادر المهمة للتاريخ العربي قبل الإسلام بما يتضمنه مـــن صور صادقة لأحوال العرب الاجتماعية والدينية والثقافية في ذلك العصر ، وكمـــا قيل قديماً الشعر ديوان العرب . وقد نصح كثير من مفسري القرآن الكريم والحديـــث الشـــريف باللجوء إلى الشعر إذا أشكل على أحدهم تفسير آية قرآنية

فالشعر ديوان العرب وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت العربية وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله وغريب حديث رسول الله ﷺ وحديث صحابته والتابعين [١] ، وفيه ذكرٌ لأيام العرب ووقائعها فهو كالمرآة تنعكس عليها صورة حياهم في الحرب وفي السلم [٢] .

لذا حرص العرب على حفظ شعرهم وتناقلوه شفهياً من جيل إلى جيل حتى انتبه بعضهم إليه فجمع ما وصل إليه منه وفي ذلك يقول " ابن عوف عن ابن سيرين ، قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يهتدوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل . فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم أكثره " [٣] .

وبالمناسبة ، علينا الانتباه إلى أن بعض الشعر كان موضوعاً يشك في أصله . وأول من جمع شعراً حمّاد الراوية واشتهر بجمع الشعر أيضاً (أبو عمرو بن العلاء) و(الأصمعي) و (المفضل الضبي) صاحب المفضليات .

ولا يقل شعر الشعراء المخضرمين أهمية عن شعر شعراء ما قبل الإسلام وذلك لأن ما رووه لم يكن بعيد عهد عن أهل الأخبار ورواة الشعر ، وقد أمدنا

---

(١) السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن بن الناصر الشافعي) . المزهر في علوم اللغة ــ شرحه وضبطه وصححه وعلق على حواشيه محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، مطبعة البابي بمصر ج٢ ص ٤٧ .

(٢) أمين : (أحمد) . فجر الإسلام . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ م ط٩ ص ٥٧ .

(٣) الجمحي : (محمد بن سلام) . طبقات الشعراء . بعناية يوسف هل ــ ليدن ١٩١٦ م ص ١٠ ، علي : المرجع المتقدم ٦٩/١ .

بالمعلومات التاريخية المهمة فقد عاش أولئك الشعراء أحداثاً وقعت قبل الإسلام ، وكان منهم من جالس ملوك الحيرة وغسان . فلم يقصر في الحديث عنهم وعن مجالسهم وأحوالهم
وعن وقائع العرب وأيامهم .

٢- الكتب الأدبية :

من أشهرها كتاب الأغاني للأصبهاني (ت ٣٥٦ هـ) فقد حفل بالمعارف المتعددة حتى عُدَّ موسوعة أدبية تعتز بها مكتبتنا العربية ، وهو غزير بالمواد المتنوعة في ميدان الأخبار والشعر ففيه ما يقرب من خمسمائة ترجمة لخمسمائة شاعر وشاعرة عاشوا في عصر قبل الإسلام وبعده ، وقد أنفق مؤلفه خمسين عاماً من حياته في جمع مادة كتابه ، وكتبه مرة واحدة في عمره ، وهي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار [1] .

٣- معاجم اللغة :

تُعدّ معاجم اللغة من الكتب المهمة في مجال التاريخ لما تحويه من لغة ونحو وصرف وفقه وأدب وحديث شريف وتفسير للقرآن الكريم ومعلومات تاريخية ترد أثناء الشرح .

خامساً ــ المصادر السريانية :

يُعدّ الأدب السرياني من أغنى الآداب العالمية ، فقد تمتعت الكتابة التاريخية في هذا الأدب بمكانة عالية خاصة لأنها كتبت من قبل رجال كانوا ذوي إحساس رفيع وأمانة وإخلاص ولما كان هؤلاء جميعاً من رجال اللاهوت من أبناء الكنيسة

---

[1] الأصبهاني : (أبو الفرج علي بن الحسين) ، الأغاني ــ مؤسسة جمال للطباعة والنشر ــ بيروت ، لبنان ج١ ص٣٢ تصدير .

فقد جعلوا كل شؤون الجنس البشري تتوافق مع نمط معين رسمته يد العناية الإلهية المرشدة ، وقد حكوا رواياتهم من دون رياء أو تكلف ، وبلا توهم أو سخرية .

والمراد بالسريانية ، فرع الآرامية التي نطق به سكان سورية مع سكان الجزيرة الفراتية وبعض المناطق المجاورة ، وكتبوا به خلال قرون طويلة منذ ما قبل الميلاد حتى ما بعد الفتح العربي بقرون ، ففي سورية والجزيرة الفراتية ما زال العديد من المسيحيين يتكلمون بالسريانية [١] .

وقد غطت الكتابات التاريخية السريانية أكثر من عشرة قرون ، أي منذ القرن الثالث للميلاد حتى أيام المغول .

وحفظت كثيراً من الحقائق عن تاريخ العرب قبل الإسلام مما خفي على المؤرخين الإسلاميين في الوقت الذي لم يكن فيه للعرب كتابة خاصة . ولأن السريان والعرب عاشا متجاورين لقرون عديدة ، بل وتربطهم جذور مشتركة ولغات ترجع إلى أصل واحد فقد وُجد بينهم قدر كبير من التفاهم عززته المصالح المشتركة من مجالي الاقتصاد والسياسة ، وذلك لأنهم كانوا يشتغلون بالتجارة ، ولا سيما بتجارة المرور (الترانزيت) حيث كانوا يقومون بحراسة القوافل في الطرق الصحراوية .

وأما من الناحية السياسية فقد ارتبط كلٌّ منهم برابطة التبعية إما مع الدولة البيزنطية أو الدولة الفارسية اللتين اضطرتهم آخر الأمر إلى الخضوع لهم تماماً عندما اعتنق قسم من العرب الديانة المسيحية المونوفيزية وقسم آخر المسيحية النسطورية لذا حفظ لنا السريان مادة تسمح بإعطاء فكرة واضحة عن أسس الحياة

---

[١] زكار : (سهيل) . الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ـــ دار الفكر . دمشق ١٩٩٥ . ج٥ ص (٣-٤) .

الاجتماعية والاقتصادية للعرب لمعرفتهم الوثيقة بهم ونذكر من هؤلاء :

١- **شمعـــون الأرشامـــي** : صاحب رسائل الشهداء الحميريين التي تبحث عـــن تعذيـــب الملك ذي نواس للنصارى في نجران ، وقد جمع أخبارهم (على ما يدعيه) من بلاط ملك الحيرة أيام أوفده إليه إمبراطور الروم في مهمة رسمية [١] .

٢- **يوشـــع العمـــودي (يهـــودا)** : دوّن تاريخه السرياني ابتداء من حـــوادث ســـنة ٣٩٥-٣٩٦ م وانتهى سنة ٥٠٦ م ، ويرجح أن هذا الـــتاريخ قـــد صـــنف بمديـــنة أذاسا (الرها) ، ذلك أنه كتب ببساطة وأمانة وحيوية وبتسلسل دقيق رائع [٢] أقحم فيه ، وذلك خلال سرده لـــتاريخ الحروب بين فارس وبيزنطة ، ملاحظات عديدة وتفاصيل غير مباشـــرة عـــن اللخميين . والمؤلف يعرف جيداً الطريقة التي ينصب بها الـــبدو مخـــيماتهم وكيف يحيطونها بالسياج ، كما أنه على علم بمقدرة العـــرب في القـــتال وبخفـــة فرســـانهم الذين قرروا مصير المعارك في مرات عديدة [٣] .

٣- **زكـــريا الملطي** : الذي أنهى مؤلفه في الستينات من القرن السادس و لم يفـــرد فصلاً أو قسماً خاصاً بالعرب إذ لم يكن تحت يد المؤلف مصدر خـــاص بهـــم ، غـــير أن أخبار العرب تنتشر في جميع زوايا الكتاب . فالوضـــع المتشابك الذي أحاط العلاقات السياسية في الشرق الأدنى ،

---

(١) علي : المرجع المتقدم ٦٣/١ .

(٢) زكار : المرجع المتقدم ٥/٥ .

(٣) بيغوليفسكيـــا : (ن.ف) . العرب على حـــدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع حتى السادس الميلادي . ترجمة صلاح الدين عثمان ـــ الكويت . المجلس الوطني للثقافة ١٩٨٥ م ص٤٨ .

والحـــروب الـــتي شـــارك فيهـــا العرب ، والعداء الذي استحكم بين الغساسنة واللخميين ، كل هذا ينعكس في صفحات تاريخه [1] .

وفي سيرة حياة مـــارآبا الأول بطريـــرك النساطرة مـــن عام (٥٤٠م) حـــتى عام ٥٥٢ م والتي دونت في الأعوام التي أعقبت موته ترد تفاصيل عن انتشـــار النسطورية والمونوفيزية (اليعقوبية) في أوساط العرب . ويشكل هذا الأثر أهمية قصوى في كل جوانبه [2] .

٤- **يوحـــنا الأفسوسي** : ذلك المونوفيزي المتعصّب والسياسي ذو العاطفة الجيّاشـــة ولم يبق من أثره سوى / القسم الثالث / ، أما القسمان الأول والثاني ففي الإمكان إعادة صياغتهما بدرجة قريبة من الواقع من كتاب الـــتاريخ المنســـوب إلى ديونيزيوس ومن تاريخ ميخائيل السرياني . وفي المجلدين الثالث والسادس من القسم الثالث لتاريخ يوحنا ترد قصة المنذر بـــن الحـــارث الـــذي وقع فريسة لمؤامرة قاسية كما ترد أيضاً أحداث الحقـــبة الأخـــيرة مـــن حياة مملكة الغساسنة وهو يقدّم مادة وفيرة عن تعـــاطف الغساسنة مع المونوفيزيين وحمايتهم لهم . كذلك يظفر بالأهمية مصنف آخر ليوحنا الأفسوسي هو "سير القديسين" الشرقيين الذي ترد فيـــه معـــلومات عـــن الغساسنة في ثنايا سيرة يعقوب البرادعي وثيورد والـــتاريخ الســـرياني المجهول المؤلف لمنتصف القرن السابع يحكي عن الساســـانيين رابطاً إياهم بتاريخ مملكة اللخميين ، وهو يتعرض بصورة خاصة لعلاقات النعمان مع خسرو الثاني [3] .

---

[1] بيغوليفسكيا : المرجع نفسه ص ٢٩ .

[2] بيغوليفسكيا : المرجع نفسه ص ٢٩ .

[3] بيغوليفسكيا : المرجع نفسه ص ٢٩ .

٥- **الوثائق المونوفيزية** : مجموعة تضم أربعاً وأربعين وثيقة من بينها قرارات المجامع المحلية ورسائل ومكاتبات ، ترتفع كلها إلى عهد ظهور المونوفيزية ورسوخ كلمتها ويرد فيها غيرما مرة أسماء الحارث والمنذر الغسانيين اللذين جهدا دون توفيق لتلافي حدوث الانقسام في المونوفيزية وتمزقها إلى عدد من الطوائف الصغيرة [١] .

٦- **وهنالك مواد في مجموعة قرارات المجامع النسطورية** وفي المكاتبات والوثائق المتعلقة بهذه المجامع تساول تاريخ النسطورية بوجه عام وما يتصل إلى حدّ ما بانتشارها بين العرب . فقرارات هذه المجامع موقّع عليها وممهورة بأسماء الأساقفة رؤساء الجاليات العربية النسطورية ، ومن بينها أسماء بعض أساقفة الحيرة كما يرد في بعض المكاتبات ذكر لعرب كانوا من بين المقربين إلى ملك اللخميين [٢] .

والمصادر السريانية التي تذكر أخبار العرب قبل الإسلام تمتاز بأنها تستقي مادتها من روايات متواترة بوساطة السماع وهي ضاربة بجذورها في أعماق الوسط العربي . فالسريان قد ربطتهم بالعرب عقيدة مشتركة هي النصرانية سواء في صورتها النسطورية بالشرق أو صورتها المونوفيزية بالمناطق الواقعة إلى الغرب من ذلك .

وهكذا فإن جميع هذه المصادر متعددة اللغات ومتنوعة السمات إذا ما ضُمّ بعضها إلى بعض فإن بإمكانها أن تعين على صياغة تاريخ للعرب قبل الإسلام ، لا في صورة أحلافهم المختلفة فحسب كما هو الشأن مع اللخميين والكنديين

---

[١] بيغوليفسكيا : المرجع نفسه ص ٣١ .

[٢] بيغوليفسكيا : المرجع نفسه ص ٣١ .

والغساســـنة بـــل في صـــورة أعم من ذلك يدخل فيها جميع العرب حين وجدوا أنفسهم بين متنافِسَيْن شديدي البأس هما بيزنطة وفارس .



الفصل الثاني

وصف جزيرة العرب

*** البيئة الطبيعية :**

آ ــ جغرافية جزيرة العرب .

ب ــ المنـــاخ .

ج ــ الميــاه .

د ــ النبات .



وصف جزيرة العرب

البيئة الطبيعية :

آ ــ جغرافية جزيرة العرب :

لا بد لفهم تاريخ أمة من الأمم من فهم بيئتها الطبيعية ، حيث إن البيئة من الأسس المهمة في تكوينها ، فهي تؤثر في طباع السكان ونشاطهم وتكوين أجسامهم وتوجيه فعالياتهم .

وتقصد بالبيئة الطبيعية الظروف الجغرافية والجيولوجية ، والمناخية ، ففي الوضع الجغرافي لجزيرة العرب نرى أنه يحدها من الشرق الخليج العربي وبحر عمان، ومن الغرب البحر الأحمر ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الشمال وادي الفرات .

وتختلف من حيث طبيعتها باختلاف أجزائها ، فبعضها تغطيه كثبان رملية ، وبعضها تكسوه الصخور ، وبعضها منخفض ، وبعضها مرتفع ، وتمتد على طول ساحل البحر الأحمر سلسلة جبال السراة [1] ، وتمتد من وسط الجزيرة سلسلتا

---

[1] السراة : أعلى كل شيء ، وإنما سُمي سراة لعلوه ، الحموي : (ياقوت) معجم البلدان ــ دار الضياء ، التراث العربي ببيروت ١٩٧٩ م مادة سراة .

جبال أجأ وسلمى جبلي طيء [1] ، وفيها الحرات [2] ، والدهناء [3] ، والنفوذ [4] وقد تميز الجانب الغربي من الدهناء باسم الأحقاف .

والجدير بالذكر أن الحدود الشمالية الآنفة الذكر قد اختلف الجغرافيون الأوائل على تحديدها ، ولا شك أن التحديد الذي قدمه ابن حائك الهمداني في كتاب صفة الجزيرة هو المعتمد والأكثر علمية .فهو يقرر أن مجرى الفرات الأسفل هو حدها الشمالي الشرقي ، وشواطئ فلسطين على البحر المتوسط حدها الشمالي الغربي ، حيث يقول : " وإنما سميت الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها ، وصار منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر ، وذلك أن الفرات القافل الراجع من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين ، ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق [5] حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتداد البحر من ذلك الموضع مغرباً مطيفاً ، منعطفاً عليها ، فأتى منها على سفوان ، وكاظمة ، ونفذ إلى القطيف وهجر وأسياف البحرين وقطر وعُمان والشحر ، ومال عنه عنق إلى حضرموت وناحية أبين وعدن ودهلك ، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان وحكم والأشعريين وعك ، ومضى إلى جدة ساحل مكة والجار وساحل المدينة وساحل الطور ، وخليج إيلة وساحل راية ـــ كورة من كور مصر البحرية ـــ حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها ، وأقبل النيل من غربي هذا العنق

---

(1) الحموي : المصدر نفسه ، مادة أجأ وسلمى .

(2) الحموي : المصدر نفسه ، مادة حرة ، وينظر حتي : المرجع المتقدم ص ٤٣ .

(3) الحموي : المصدر نفسه ، مادة القاف ودهنا ، وينظر حتي : المرجع المتقدم ص ٤٢ .

(4) حتي : المرجع المتقدم ص ٤٢-٤٣ .

(5) سواد العراق . رستاق أي مخلاف وسمي بذلك لشدة خضرته بالأشجار والغلال . الهمداني : (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ـــ دار اليمامة ـــ الرياض ص ٥٧ .

من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر معه حتى دفع في بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها ، وأتى على صور وساحل الأردن ، وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص ، وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين ، والجزيرة إلى سواد العراق " [١] .

أما الأصطخري وابن حوقل فقد استبعدا من التحديد المتقدم شبه جزيرة سيناء [٢] وحدد المقدسي جزيرة العرب بقوله : " اعلم أن بين أقاليم العرب غير المغرب بادية ذات مياه وغدران وآبار وعيون وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفية الطرق طيبة الهواء ، ردية الماء ليس فيها بحيرة إلا نهر الأزرق ولا مدينة إلا تيماء ، ومن الناس من يعدها من الجزيرة وليست منها ، ومنهم من يجزئها على الأقاليم ، ومنهم من يجعلها من الشام ، وقد رأينا نحن أن نفرزها ونفرد صورتها " [٣] .

وأضاف قائلاً : " وتخوم هذه البادية تأخذ من أيلة على مدائن قوم لوط ، وتصعد إلى مآب ثم على تخوم عمان وأذرعات ورساتيق دمشق وتدمر وسلمية ، وأطراف حمص إلى بالس ، ثم ترجع إلى الفرات ، وتعطف على الرقة والرحبة والدالية إلى هيت والأنبار ، ثم على الحيرة والقادسية ، ومغارب البطائح ثم على سواد البصرة إلى عبّادان ومنهم من أضاف الشراة إليها ، وأدخل مدنها فيها ،

---

[١] الهمداني : المصدر نفسه ص (٥٧-٥٨) .

[٢] الأصطخري : (إبراهيم بن محمد) المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحسيني ، القاهرة ١٩٦١ م ص ٢٠ ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) : صورة الأرض ، مكتبة الحياة ، دون تاريخ للطباعة ص٢٩ .

[٣] المقدسي : (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ، ص ٣٤٨ .

وهذا أصح ، وليس في هذه البادية مدينة إلا تيماء "[1] .

مما سلف يمكن القول إن هناك فرقاً بين السبب الذي سُميت من أجله شبه جزيرة العرب بالجزيرة والحد الجغرافي الحقيقي لها ، وبما أنه لا يوجد فروق تضاريسية واضحة من جهة الشمال ، فقد تعسر على الجغرافيين العرب تحديد حدودها اعتماداً على مظاهر السطح .

وعلى ذلك فإن شبه الجزيرة العربية ، وإن كانت تحيط بها البحار من ثلاث جهات فقط ، وهي الشرق والغرب والجنوب ، فإن نهر الفرات يحدها من الشمال الشرقي إلى الشمال منعطفاً عليها إلى مسافة قريبة من البحر المتوسط عند جند قنسرين حتى يصب في الخليج العربي عند الأُبلة [2] ، أي يُعدّ حداً طبيعياً شمالياً لها مما يمكن تسميتها بالجزيرة .

وبناء على ذلك فإن العرب يدخلون في جزيرتهم بلاد الشام ، أي سورية الطبيعية كما يتضح ذلك من تفسير ابن الكلبي عند ياقوت الحموي [3] وغيره [4].

ولا يشك المستشرق السوفياتي بليايف في أن بادية الشام كانت في عصر ما قبل الإسلام جزءاً من الجزيرة العربية ، وأن الحدود السياسية بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين كانت مرسومة على

---

[1] المقدسي : المصدر نفسه ص ٢٥٢ .

[2] الهمداني : المصدر المتقدم ص (٥٧-٥٨) وينظر الخضري : (محمد بك) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، مصر ، المكتبة التجارية ط٣ ج١ ص ٧ .

[3] الحموي : المصدر المتقدم ، مادة جزيرة العرب .

[4] القلقشندي : (أبو العباس أحمد بن علي) صبح الأعشى في صناعة الإنشا . وزارة الثقافة ، المؤسسة المصرية العامة ج٥ ص ٥ .

نحو يبقي بادية الشام في حوزة سكانها الأصليين [1] .

مع العلم أن العرب فرقوا تقسيمهم لجزيرة العرب بين الأقسام الإدارية والنواحي المتصلة بها ، وبين الأقاليم المورفولوجية [2] القائمة على أساس طبيعي .

فالأقسام الطبيعية لجزيرة العرب عند جغرافيي اليونان والرومان تختلف عنها لدى غيرهم ، فقد قسمها الأولون انطلاقاً من الوضع السياسي في القرن الأول للميلاد إلى أقسام ثلاثة :

١- بلاد العرب السعيدة اليمن .

٢- القسم الصخري في الشمال ، جنوب غربي بادية الشام حيث مملكة الأنباط.

٣- القسم الصحراوي حيث القبائل الغالبة عليها حياة البدو .

فالقسم الأول مستقل لا سلطان عليه ، والقسم الثاني قريب من الرومان ، فيما بعد سيطروا عليه وأصبح تحت نفوذهم ، والقسم الثالث هو البادية الممتدة إلى نهر الفرات [3] .

أما جغرافيو العرب فقد قسموها إلى خمسة أقسام كبرى هي : الحجاز ، وتهامة ، واليمن ، وعروض ، ونجد [4] .

---

[1] بليايف : (ي. ام) . العرب والخلافة العربية في القرون الوسطى ، ترجمة أنيس فريحة ، الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٧٣ م ص ٥٣

[2] موروفولوجية : علم الهيئة أو الشكل ، وكذلك البنية وتطورها الذي يؤثر في الهيئة أو الشكل . توني (يوسف) معجم المصطلحات الجغرافية ، دار الفكر العربي ١٩٦٤ ص ٥٠٥ .

[3] علي : المرجع المتقدم ١٦٣/١ .

[4] الهمداني : المصدر المتقدم ص ٥٨ . البكري (أبو عبد الله عبد الله بن عبد العزيز) معجم ما استعجم . تحقيق مصطفى السقا . عالم الكتب ، بيروت ج١ ص ٧ . وينظر أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل) تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ١٨٤٠ م ص (٧٨-٨٠) ، الحموي : المصدر المتقدم مادة جزيرة ومادة حجاز . القلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي) . قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان . حققه إبراهيم الأبياري ١٩٦٣ م ط١ ص ١٨ .

وزاد ابن حوقل بادية العراق ، وبادية الجزيرة بين دجلة والفرات ، وبادية الشام [1] .

١- الحجاز :

ويقع شمالي اليمن وشرقي تهامة ، ويتكون من عدة أودية تتخلل سلسلة جبال السراة [2] الممتدة من الشام إلى نجران في اليمن ، سمي حجازاً لأنه يحجز بين الغور [3] وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر [4] فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر ، فهو حاجز بينهما أو لكثرة الحرار فيه ، واحتجاز أهله من العدو فهو الفعل حجز ، والحجز الفصل بين الشيئين ، والحجاز الاسم [5] .

قسم البكري الحجاز إلى حجازين : الحجاز الأسود ، وحجاز المدينة [6] . ويبدو أن المقصود من هذا التقسيم هو التفريق بين جبال السراة الجنوبية أو الحجاز الجنوبي ، وبين الحجاز الشمالي ، ولهذا التقسيم من الوجهة الجغرافية دلالة مورفولوجية ، إذ يُعدّ كل قسم منها إقليماً مورفولوجياً له خصائصه المتميزة من حيث الارتفاع والمناخ والحياة النباتية [7] .

وقد قسمه الجغرافيون المحدثون إلى قسمين [8] : سراة عسير وهي المرتفعات

---

(١) ابن حوقل : المصدر المتقدم ص ٢٩ قارن القلقشندي : صبح الأعشى ٢٤٥/٤ .

(٢) الحموي : المصدر المتقدم مادة سراة .

(٣) الغور ما تداخل وما هبط ، وغور كل شيء قعره . الحموي : المصدر نفسه مادة الغور .

(٤) الهمداني : المصدر المتقدم ص ٥٨ . الحموي : المصدر نفسه مادة حجاز .

(٥) ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) ، لسان العرب ـــ دار صادر ، بيروت ، مادة حجز

(٦) البكري : المصدر المتقدم ١٣/١ .

(٧) غنيم : (عبد الله يوسف) أقاليم جزيرة العرب ، الكويت ١٩٨١ ص ٣٦ .

(٨) غنيم : المرجع نفسه ص ٣٦ .

الجـــنوبية ، وســـراة الحجـــاز وتمتد شمال المرتفعات المتقدمة إلا أنها أقل ارتفاعاً من مرتفعات عسير .

فالسراة هي العمود الفقري لجزيرة العرب [١] .

٢- تهـــامـــة :

وهي الأرض الواطئة الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر من ينبع إلى نجران في اليمن وسميت بهذا الاسم لشدة حرها ، وركود ريحها ، وهي مشتقة من التهم وهو شدة الحر وركود الريح ، وقيل سميت بذلك لتغير هوائها ، وقيل إن التهمة هي الأرض المنصوبة نحو البحر [٢] ، ولانخفاض أرض تهامة سميت بالغور [٣] " فصار ما خلف ذلـــك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعكّ وحكم وكنانة وغيرهـــا ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها وغار من أرضها الغور غور تهامة ، وتهامة تجمع ذلك كله " [٤] .

وأكـــثر أجـــزاء تهامة رملي شديد الحرارة قليل الإنبات ، ويقع فيه كثير من المـــرافئ العربية مثل جدة وينبع والجار والحديدة والمخا في بلاد اليمن . ويقع شمال هـــذه المنطقة ميناء صغير يعرف باسم الوجه ، وهو بلدة صغيرة تشمل عدداً قليلاً من البيوت الحجرية [٥] ، وجعل الهمداني عدن من مدينة تهامة الجنوبية [٦] ، وهذا

---

[١] شـــريف : (أحمد إبراهيم) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ـــ دار الفكر العربي ـــ مطبعة مخيمر ص ١٣ .

[٢] الحموي : المصدر المتقدم مادة تهامة .

[٣] الحموي : المصدر نفسه مادة غور . البكري : المصدر المتقدم ٧/١ .

[٤] الهمداني : المصدر المتقدم ص ٥٨ .

[٥] عـــوض الله : (أحمـــد أبـــو الفضـــل) مكة في عصر ما قبل الإسلام . مطبوعات دار الملك عبد العزيز ١٤٠١ هـ ـــ ١٩٨١ م ص ١٨ .

[٦] الهمداني : المصدر المتقدم ص ٧٠ .

يعـني أن إقلـيم تهامة عنده يبدأ من ساحل عدن ، ويمتد غربي جبال الحجاز إلى أطراف بوادي الشام .

٣- نجـد :

" النجد قفاف الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف ، وجمعه نجاد ، ولا يكـون ذلك إلاّ قُفّاً أو صلابة من الأرض في ارتفاع من الجبل معترضاً بين يديك يرد طرفك عما وراءه "[١] .

وليـس بالشديد الارتفاع ، وهو عدة نجود : نجد برق وهو وادٍ باليمامة ، ونجد خال ، ونجد عفر ، ونجد كبكب ، ونجد مريع[٢] .

ويمـتد إقلـيم نجد شرقي الحجاز ، أي الناحية التي بين الحجاز والعراق[٣] والحد بين الإقليمين ليس واضحاً في الكتابات العربية ، فالهمداني قال : " فالعرب تسمية نجداً وجلساً وحجازاً ، والحجاز يجمع ذلك كله "[٤] .

وأمـا البكري فقد قال : " وأما نجد فما بين جرش إلى سواد الكوفة ، وآخر حدوده مما يلي المغرب الحجازان : حجاز الأسود وحجاز المدينة ، والحجاز الأسود وسـراة شنؤه ، ومن قبل المشرق بحر فارس ما بين عمان إلى بطيحة البصرة ، ومن قـبل يمين القبلة الشامي : الحزن حزن الكوفة ، ومن العذيب إلى الثعلبية إلى قلة بني يـربوع ابن مالك من يسار طريق المصعد إلى مكة ، ومن يسار القبلة إلى اليمني ما بين عمل اليمن إلى بطيحة البصرة ونجد كلها من عمل اليمامة "[٥] .

---

[١] الحموي : المصدر المتقدم مادة نجد .

[٢] الحموي : المصدر المتقدم مادة نجد .

[٣] الألوسـي : (محمود شكري) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ صححه محمد بهجة الأثري ـ دار الشرق العربي بيروت ج١ ص ١٨٧ .

[٤] الهمداني : المصدر المتقدم ص ٥٩ .

[٥] البكري : المصدر المتقدم ١٣/١ .

أطلق العرب على الأجزاء الشرقية المنخفضة من نجد اسم السافلة ، أما المناطق الغربية فقد أطلقوا عليها اسم العالية أو عالية نجد [1] .

٤- العروض :

وهو الشيء المعترض ، والعرض الجانب [2] ، وهو يشتمل اليمامة والبحرين [3] ، سميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعرق .

وأغلب أرض العروض صحارى ، وسهول ساحلية ترتفع في الجهات الغربية على ساحل البحر [4] ، وتشتمل العروض اليوم البحرين والأحساء وقطر واليمامة.

٥- اليمن :

القسم الخامس من أقسام الجزيرة العربية عند جغرافيي العرب هو القسم الجنوبي منها أي بلاد اليمن ، وكان اسم اليمن يُطلق في النصوص العربية الجنوبية على منطقة صغيرة بالقياس إلى التقسيم العربي المتأخر إذ كانت تذكر إلى جانب مناطق سبأ وذي ريدان وحضرموت وغيرها [5] .

أما اليمن عند علماء الجغرافية المسلمين فهي منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة إلى العروض [6] " اليمن ما اشتمل عليه حدودها بين عمان والبحرين ، وليست بينونة من اليمن ، وقيل حد اليمن من وراء تثليث وما ساقبها من صنعاء ،

---

[1] الحموي : المصدر المتقدم مادة نجد ، وينظر الأصفهاني : (الحسن بن عبد الله) بلاد العرب ٣٨٣ ، غنيم : المرجع المتقدم ص ٥٠ .

[2] الحموي : المصدر المتقدم مادة عروض .

[3] الهمداني : المصدر المتقدم ص ٥٩ . الحموي : المصدر نفسه مادة عروض .

[4] علي : المرجع المتقدم ١/١٧٤ .

[5] عوض الله : المرجع المتقدم ص ٢٦ . عاقل : المرجع المتقدم ص ٩٤ .

[6] عوض الله : المرجع نفسه ص ٢٦ .

ومـــا قاربها إلى حضرموت والشحر ، وعمان إلى عدن . وما يلي ذلك من التهائم والنجود ، واليمن يجمع ذلك كله ... "[١] .

وقـــال الهمداني : " سُميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها والبحر مطيف بها من المشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى المغرب ، ويفصل بينها وبين بـــاقي جزيـــرة العـــرب خط يأخذ من حدود عُمان ويبرين إلى حد ما بين اليمن واليمامة فإلى حدود الهجيرة وتثليث ، وأنهار جرش وكتنة منحدراً في السراة على شعف عنـــز إلى تهامة على أم جحدم إلى البحر حذاء جبل يُقال له كدمل بالقرب من حمضة ، وذلك حد ما بين بلد كنانة واليمن في بطن تهامة "[٢] .

فاليمن من اليُمن والخير والبركة ، وهي حضرموت وعُمان وما بينهما وفيه التهائم والنجد[٣] .

والـــيمن من " قولهم تيامن الناس فسموا اليمن فيه ، نظراً لأن الكعبة مربعة فلا يمين ولا يسار فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار آخرين "[٤] .

فاليمن من اليمين مقابل الشمال (الشام) وذكرها القرآن الكريم ، وأشار إلى مـــا كانت عليه من حضارة وعمران بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَـــةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُـــورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[٥] .

---

[١] الحموي : المصدر المتقدم مادة يمن .

[٢] الهمداني : المصدر المتقدم ص ٦٥ . الحموي : المصدر نفسه مادة يمن .

[٣] البكري : المصدر المتقدم ٩/١ . وينظر الخضري : المرجع المتقدم ١١/١ .

[٤] الحموي : المصدر المتقدم مادة يمن .

[٥] سورة سبأ : الآية (١٥-١٦) .

والجديــر بالذكر أن للجزيرة العربية التي تقع بين آسية وإفريقية من الاتساع والصــفات المميزة ، والخصائص ما يجعلها جديرة بأن تكون قارة وحدها ، ومع أنهــا جزء من آسية إلا أنها تتصل بإفريقية بوساطة صحراء سيناء ، وفي الماضي ، وقــبل أن يشق البحر الأحمر مجراه فيعزل آسية عن إفريقية كان القسم الغربي من جزيرة العرب جزءاً من الأرض الإفريقية ، وحتى اليوم نلاحظ أن النصف الجنوبي مــن القسم الغربي من الجزيرة يشترك في كثير من الصفات مع مقاطعات إفريقية الشــرقية كالصــومال والحبشة ، وهو أقرب إلى هذه الأصقاع الإفريقية منه إلى القسم الشمالي من الجزيرة أو بقية أصقاع آسية في كثير من الخصائص ، ونرى من جهة أخرى أن القسم الشمالي من الجزيرة يتشابه إلى حد كبير مع الأقسام العربية في آسية ، فمرتفعات عُمان تشابه سلاسل فارس الجبلية [١] .

تبلغ مساحة الجزيرة العربية نحو ثلاثة ملايين كيلو متر مربع تقريباً [٢] ، وهي هضبة متوسطة الارتفاع ، ويمكن تقسيمها إلى المناطق التضاريسية التالية :

أولاً ـــ المنطقة الغربية :

تمــتد على طول البحر الأحمر ، وتشمل الحفرة والمنطقة الساحلية المنخفضة والجبال والهضاب الناهضة .

فالحفرة هي التي تغطيها مياه البحر الأحمر ، والمنطقة الساحلية المنخفضة تهامة ذات المناخ الحار الضار بالصحة [٣] . وقد سكن تهامة في الحقبة الأخيرة من عصر

---

[١] عاقل : المرجع المتقدم ص ١٥ .

[٢] الأصمعي : (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك) تاريخ العرب قبل الإسلام ، تحقيق الشيخ محمد حســن آل ياسين ـــ منشورات المكتبة العلمية ـــ مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٩ م ط١ صفحة س ك ، وينظر دلو : (برهان الدين) . جزيرة العرب قبل الإسلام الفارابي ١٩٨٩ م ج١ ص ٢٧ .

[٣] الحموي : المصدر المتقدم مادة تهامة . وينظر ابن منظور : المصدر المتقدم مادة تهامة .

ما قبل الإسلام قبائل خولان وهمدان وعك والأشعر والحكم وغيرها [1] .

تنحدر هذه الهضبة انحدارين أحدهما نحو الغرب والآخر نحو الشرق [2] ،يبدأ الانحداران بسلسلة جبال السراة التي تمتد على موازاة البحر الأحمر في غربي الجزيرة في الشمال بجبال مدين وتشمل جبال الحجاز وعسير ، وهضبة اليمن وهي نهاية سلسلة الجبال الغربية ، تتخللها وديان عميقة هي بمَنْزلة منافذ ينفذ منها المسافرون من الساحل إلى داخل الجزيرة العربية سكن هذه المنطقة هذيل في الحجاز [3] وحمير والأبناء في اليمن [4].

ثانياً ــ المنطقة الجنوبية :

وتشمل حضرموت ومهرة وظفار تمتد واجهتها على خليج عدن وبحر العرب ، وتكثر في هذه المنطقة الوديان التي سكنتها قبائل كندة والصدف ، وبطون من السكون وهمدان وغيرها [5] .

ثالثاً ــ المنطقة الجنوبية الشرقية :

تشمل منطقة عُمان وعمودها الفقري الجبل الأخضر وما حوله من مرتفعات حيث يحيط بنجد عُمان حزام مُتصل من الواحات عند سفوح الجبال ، وعلى

---

[1] كحالة : (عمر رضا) . معجم قبائل العرب ــ المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٩ م ج١ ص (٣٠-٣١-٢٨٦ -٣٦٥) . ج٣ ص ١٢٢٤ .

[2] عاقل : المرجع المتقدم ص ١٦ .

[3] الهمداني : المصدر المتقدم ص ١٦٨ .

[4] لأبناء : السلالة التي ولدت باليمن من الفرس المهاجرين إليها . ابن حبيب : (أبو جعفر محمد) ، المحبر ، مكتبة المثنى بغداد ١٣٦١ هـ ــ ١٩٤٢ م ص ٢٦٦ . وينظر دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس مراجعة محمد مهدي علام ١٩٣٣ م ج١ ص ٦٦ .

[5] الهمداني : المصدر المتقدم ص ١٦٨ .

جانبي الساحل البحري كليهما ، وحافة الصحراء العربية الكبرى [1] ، وتخترق المرتفعات أودية بعضها جاف ، وبعضها الآخر خصيب ، وقد كانت عُمان في نظر الجغرافيين العرب جزءاً من المنطقة الجنوبية التي تشمل اليمن وحضرموت ومهرة وظفار وعُمان [2] ، وأغلب سكانها من قبائل الأزد ، وبها من غيرهم بشر كثيرون في البوادي وأناس آخرون من العجم [3] .

رابعاً ــ المنطقة الشرقية :

تشمل العروض اليمامة والبحرين وما والاها [4] ، وهي أكثر أجزاء الجزيرة العربية انخفاضاً ، ذكر ياقوت الحموي : أن اليمامة كانت أحسن بلاد الله أرضاً ومن أكثرها خيراً وشجراً ونخلاً ، غزيرة المياه ، ذات عيون وآبار ومزارع ، ومراعٍ ومن أوديتها وادي حنيفة [5] ، ومن أقسام العروض شبه جزيرة قطر ، التي تمتد من عُمان إلى حدود الأحساء ــ سميت الأحساء قديماً هجر والبحرين [6] .
و " في أعراض البحرين على سيف الخط بين عُمان والعقير قرية يُقال لها قطر " [7]
وبلاد البحرين هي هجر وتشمل المنطقة الممتدة بين البصرة وعُمان [8] .

---

(1) بلياييف : المرجع المتقدم ص ٦٣ .

(2) الحموي : المصدر المتقدم مادة جزيرة ومادة يمن . وينظر أبو الفدا : المصدر المتقدم ص ٨٠ .

(3) البلاذري : (أبو الحسن) . فتوح البلدان . عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان ــ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٨ م ، ص ٨٧ .

(4) الحموي : المصدر المتقدم مادة عروض .

(5) الحموي : المصدر نفسه مادة عروض ، ومادة يمامة .

(6) وهبة : (حافظ) . جزيرة العرب في القرن العشرين ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٧ص ٦٢.

(7) الحموي : المصدر المتقدم مادة قطر .

(8) الحموي : المصدر نفسه مادة بحرين .

كـــان ينْزل البحرين وباديتها قبائل عبد القيس وبكر بن وائل وتميم وبعض العجـــم وكانت جماعات من هذه القبائل تدين بالوثنية ، وكان آخرون يهوداً أو نصارى ، أو جاليات فارسية مجوسية يعبد أفرادها النار [١] .

خامساً ـــ المنطقة الداخلية :

تشـــمل نجـــد والصحارى ، وهي أوسع أجزاء الجزيرة العربية تمييزاً لها عن الغـــور أو تهامـــة ، وتعني الأرض المنخفضة [٢] أطلق العرب على الجزء المرتفع لهضـــبة نجد مما يلي الحجاز اسم العالية وعلى الجزء المنخفض مما يلي العراق اسم السـافلة ، في حـــين سمّـــوا شرقيها إلى اليمامة الوشوم ، وشماليها إلى جبل طيء القصيم وهو عندهم الرمل الذي ينبت الغض ـــ شجر الأثل ـــ وإليه ينسب أهل نجد فيسمون أهل الغض لكثرته [٣] .

مـــن القبائل التي كانت تنْزل أواسط الجزيرة في حقبة ما قبل الإسلام طيء وسليم وهوازن وعامر بن صعصعة وغيرها [٤] .

أمـــا الصـــحارى فهـــي أجزاء كثيرة من أراضي الجزيرة التي تتحول عندما تســـقط عـــليها الأمطار الغزيرة إلى سهوب تصلح للمراعي مدة من الزمن [٥] ، وصحارى الجزيرة هي :

١- **الربع الخالي** : ويطلق عليه اسم الصحراء العربية الكبرى . في الوقت

---

(١) البلاذري : المصدر المتقدم ص (٨٩-٩٠-٩١) .

(٢) الحموي : المصدر المتقدم مادة نجد .

(٣) الأصـــمعي : (أبـــو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك) النبان والشجر . باعتناء خضر . المطبعة الكاثوليكية ـــ بيروت ١٩٠٨ ص ٣١ .

(٤) كحالة : المرجع المتقدم ٢/٥٤٣-٦٨٨-٧٠٨ والجزء ١٢٣١/٣ .

(٥) بلياييف : المرجع المتقدم ص (٦٦-٦٧) .

ذاتــه سمـــى أهل كل قطر ما يليهم اسماً خاصاً فطرفها الغربي صهيد والشرقي وبار والشمالي يبرين ، والذي يمتد شمالي حضرموت وشرقيها الأحقاف [١] .

٢- **الدهـــناء أو الــنفوذ الصــغرى** : وتعني الفلاة كثيرة الكلأ ليس في بــلاد العــرب مَــرْبع مثلها ، وإذا أخصبت ربعت العرب جمعاء [٢] ففيهــا ينمو العشب كما تنمو الشجيرات القصيرة على متون التلال الرمــلية ممــا يجعــلها مرعى سائغاً لدى البدو القاطنين هناك [٣] . ومــن الطبيعي أن تحتوي الدهناء مناطق لا تصلح لرعي الماشية بسبب انعدام الماء [٤] .

٣- **صحراء النفوذ الكبرى** : وكانت تعرف قديماً باسم عالج [٥] ، تكسو وجههــا شــجيرات ، وأحياناً أشجار ، فإذا سقط المطر تحول أديم الأرض إلى مــراعٍ خضر تسرح فيها الإبل والأغنام ، وكان ينْزل في هذه الصحراء قبائل تميم وضبة [٦] .

إذاً فالجزيــرة العربية هضبة تغلب عليها صفة الصحارى والدارات باستثناء اليمن وعُمان . وبعض الوديان الواقعة في سلسلة الجبال الغربية وفي نجد والأحساء وتســتحيل أراضــيها الصحراوية إلى سهوب تصلح للمراعي حقبة من الزمن إذا

---

(١) الحموي : المصدر المتقدم مادة أحقاف ـــ صهيد ـــ يبرين ـــ وبار .

(٢) ابن منظور : المصدر المتقدم مادة دهن .

(٣) بليابيف : المرجع المتقدم ص ٧٥ .

(٤) بليابيف : المرجع نفسه ص ٧١ .

(٥) ثعــلب : (أبــو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني) الصبح المنير في شعر أبي بصير ـــ مطبعة أدولف هلزهوسن فيينا ١٩٢٧ م ص ٣١٧ .

(٦) كحالة : المرجع المتقدم ١/١٢٦-٢/٦٦١ .

هطلت عليها الأمطار الغزيرة [1] .

ب ـــ المنـــاخ :

يختـــلف المناخ في شبه الجزيرة العربية باختلاف الأقسام الجغرافية ، وبما أن معظم أراضيها بادية كان الغالب عليها الجفاف ، وعدم انتظام مواسم الأمطار مع عـــدم الاحـــتفاظ بميـــاه الأمطار في مجاري منظمة ودائمة . وشدة الحرارة بوجه عـــام ـــ وعلى الرغم من إحاطة البحار بها من ثلاث جهات ـــ فإن الجو البحري لم يخفـــف من حدة الحرارة فيها ، أو يتغلب على جفافها ، فالأبخرة المتصاعدة من الـــبحر لا تكـــاد تصـــل إلى أواسطها إذ أن الرياح السمائم شديدة الحر تقاومها مقاومة شديدة وتمنعها في الغالب من الوصول إلى أواسط شبه الجزيرة العربية [2] .

والحرارة عرضة للتقلبات ، ليس بين الصيف والشتاء ، بل وفي اليوم الواحد بـــين النهار والليل ، وكان الرحالة الغربيون يتذمرون من برد الليل أكثر مما كانوا يشكون من حر النهار [3] .

وفي الشتاء تنخفض درجة الحرارة ، ويتساقط الثلج ، ويتجمد الماء في جبل غزوان الذي تقع عليه مدينة الطائف وصنعاء في اليمن [4] .

ولعل برد الليل في شهري كانون الأول وكانون الثاني ظاهرة طبيعية يشكو مـــنها الرعاة إذا افتقروا إلى الوقود ليلاً حيث تنخفض الحرارة إلى ثماني درجات ، وتبقى على هذا المستوى أسبوعاً كاملاً [5] .

---

[1] بليابيف : المرجع المتقدم ص (٦٦-٦٧) .

[2] حتي : المرجع المتقدم ص ٤٣ . شريف : المرجع المتقدم ص ٩ .

[3] بليابيف : المرجع المتقدم ص (٧٦-٧٧) .

[4] الحموي : المصدر المتقدم مادة الطائف . أبو الفدا : المصدر المتقدم ص ٩٥ .

[5] بليابيف : المرجع المتقدم ص ٧٧ .

تهب على الجزيرة العربية أنواع مختلفة من الرياح عامة وموسمية ومحلية باردة وحـــارة ممطرة وجافة ، وقد نسب العرب أمهات الرياح إلى الجهات الأربع [١] ، فكل ريح من هذه الرياح انحرفت فوقعت بين ريحين فهي نكباء [٢] .

وأَحَـــبُ الـــرياح للعربي في الجزيرة العربية رياح تهب من المشرق ويدعونها الصبا لرقتها ويُقال لها القبول [٣] ، وهي ريح طيبة مقبولة ، والنفس تصبو إليها ، وأكـــثر هبوبها على إقليم نجد ، وأحبها العرب لأنها تجيء بالسحاب والمطر وفيها الري والخصب .

وأكـــره الريح هناك رياح السّموم فهي اللهب الذي تنفثه الصحراء العربية ، ما إن تهب حتى تجف مصادر المياه وتيبس القرب التي يجمع فيها البدوي ماء شربه وهي حارة وباردة [٤] .

ولـــلرياح ـــ باستثناء ريح السّموم التي تؤذي الإنسان والحيوان والنبات ـــ أهمية كبيرة حيث ترتبط حياة سكان البوادي العربية بالمطر ارتباطاً وثيقاً حتى لقد سمـــوه غيثاً فربما حبس الماء سنوات حتى يضطر السكان إلى الارتحال ، ويصفون هـــذه الســـنوات الجافـــة بالرمادية أو السنوات الشيب لأن لون سطح السهوب يستحيل إلى لون رمادي أو أشيب [٥] .

---

[١] ابـــن قتيبة الدينوري : (أبو محمد عبد الله بن مسلم) الأنواء : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ـــ الداكن (الهند) ١٩٥٦ م ص ١٥٨ .

[٢] ابـــن قتيـــبـــة : المصدر نفسه ص ١٥٨ ، وينظر ابن سيدة (أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي) المخصص ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣١٦ م ومطبعة المكتب التجاري ببروت ج٩ ص ٨٤ .

[٣] ابن سيدة : المصدر نفسه ١٥٩/٩ .

[٤] لبن سيدة : المصدر نفسه ٨٥/٩ .

[٥] بليايف : المرجع المتقدم ص ٨٠ وينظر :

H. Lammens , Le Bereceauudei. Islam, t. I, Rome, 1914, P. 18 .

ج ـ المياه :

تُعدّ شبه الجزيرة العربية من البلاد الفقيرة بالمياه لغلبة الجفاف عليها ، فلا نستطيع أن نجد فيها نهراً واحداً دائم الجريان يصب ماؤه في البحر ، وليس في أنهارها الصغيرة ما يصلح للملاحة ، وقد عوضت عن الأنهار بشبكة من الأودية تجري فيها السيول حين تفيض مياه الأمطار ، فالوادي في أكثر الأحيان كل مفرج بين جبال وآكام وتلال ويكون مسلكاً للسيل أو منفذاً [١] .

ففي الحجاز وادٍ عظيم تغزره أودية كثيرة يسمى الحمض [٢] ، يرفده وادي القرى شمال المدينة ، وكان يمر به طريق القوافل القديم ، وقد أصبح قبيل الإسلام يعج بالقرى ويزخر بالواحات [٣] ، ووادي العقيق في جنوب المدينة الذي يُعدّ أعظم أودية الحجاز ، وهي مجموعة أعقة ـ أودية شقتها السيول ـ أحدها العقيق الأصغر وفيه بئر رومة ، والآخر العقيق الأكبر وفيه بئر عروة [٤] .

ووادي الرمة أعظم وديان الجزيرة العربية يتكون في التقاء بضعة شعاب ومسيلات يمتد من فدك إلى القصيم في الشرق [٥] غني بالمياه الجوفية التي تظهر أحياناً على شكل عيون ماء [٦] .

---

[١] الحموي : المصدر المتقدم مادة وادي .

[٢] الهمداني : المصدر المتقدم ص ٣٢٠ .

[٣] الحموي : المصدر المتقدم مادة قرى ، علي : المرجع المتقدم ١/١٦٨-١٦٩ .

[٤] الفيروز آبادي : (مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب) المغانم المطابة في عالم طابة . تحقيق حمد الجاسر ١٩٦٩ م ص ٢٦٦ . وينظر : الحموي : المصدر المتقدم مادة عقيق .

[٥] الحموي : المصدر نفسه مادة رمة . وينظر : شريف : المرجع المتقدم ص ١٥ . وينظر : بيضون : (إبراهيم) الحجاز والدولة الإسلامية ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت لبنان ١٩٨٣ ط١ ص (٣٣-٣٤) .

[٦] بلياييف : المرجع المتقدم ص ٦٤ .

وفي اليمن أودية كثيرة أقيمت على بعضها السدود لتخزين مياه الأمطار الموسمية ، والاستفادة منها لري الحقول والبساتين على مدار السنة مثل وادي زبيد [١] ، ووادي مور [٢] وغيرهما .

وتتلقى وديان حضرموت مياهها من جبال اليمن وحضرموت وأشهرها الوادي الكبير أو وادي حضرموت ، ويُعدّ أطول وادٍ في الجزيرة العربية بعد وادي الرمة [٣] .

ويخترق سطح نجد واليمامة أودية أشهرها وادي العرض ، أو وادي اليمامة الذي ينصب من مهب الشمال ، ويفرغ في مهب الجنوب [٤] ، وقد كان هذا الوادي غنياً بالمزروعات قُبيل الإسلام .

من كل ذلك نرى أن الجزيرة العربية من البلدان الفقيرةً بالمياه ، ولكن على الرغم من فقرها بالمياه إلا أن فيها مناطق ذات تربة خصبة ومناخ معتدل كاليمن وحضرموت في الجنوب وجبال الطائف قرب مكة ومدينة يثرب في الشمال واليمامة في الجنوب الشرقي .

د ــ النبات :

تختلف النباتات باختلاف التضاريس والتربة وكمية الأمطار لذا فهي تتركز في الغابات والأحراج وسفوح جبال السراة وحضرموت وظفار ووديان الجبل الأخضر في عمان ، وتتقلص كلما اتجهنا باتجاه الصحارى .

من أنواع النباتات السدر والشوحط والتين البري واللبان والمر والصمغ

---

[١] الهمداني : المصدر المتقدم ص ١٢٠ .

[٢] الهمداني : المصدر نفسه ص (١٢٣-٢٥٨-٢٥٩) .

[٣] دلو : المرجع المتقدم ١/٤٥ .

[٤] الحموي : المصدر المتقدم مادة عرض .

والأقحوان والخزامى والأثل والحلفاء والحنظل والشيح ... الخ . وقد أفاد منها العرب في إقامة هياكل الخيام وصنع السهام والرماح وأدوات الزراعة ووسائل الري والأدوات المنْزلية كالقصاع والجفان والآنية والأقداح والمكاييل وصناعة السفن والحبال والحصر والغرابيل وشباك السمك وتلوين الأقمشة والخضاب .

واستفادوا من زيتها كوقود للمصابيح والتدفئة ، كما استفادوا منها كغذاء للحيوانات .

وتقديراً لأهمية الأشجار وفوائدها اتخذت بعض القبائل من الشجرة معبوداً لها كذات أنواط والعزى وذي غابة .

الفصل الثالث

الممالك العربية القديمة في اليمن

١- مملكة معين (١٣٠٠-٦٣٠ ق.م) .

٢- مملكة حضرموت (١٠٢٠-٢٩٠ ق.م) .

٣- مملكة قتبان (نحو ١٠٠٠-٥٤٠ ق.م) .

٤- المملكة السبئة (٨٠٠-١١٥ ق.م) .

٥- المملكة الحميرية الأولى (١١٥ق.م-٣٠٠ م) .

٦- المملكة الحميرية الثانية (٣٠٠م -٥٢٥ م) .

٧- الحكم الحبشي لليمن (٥٢٥ م- ٥٧٥ م) .

٨- الفرس في اليمن (٥٧٥ م ـــ حتى قيام الإسلام وانتشاره)



الممالك العربية القديمة في اليمن

قبل البدء بتعرف الممالك العربية القديمة التي قامت في شبه الجزيرة العربية علينا أن نعرف أن النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية هي حصيلة التفاعل بين البيئة والإنسان الذي عاش في هذه البيئة .

والعرب في الجزيرة العربية خضعوا لشروط بيئتهم ، وكيّفوا حياتهم مع الظروف الطبيعية التي نشؤوا فيها . فقد عاشوا في ظل المشاعة العشيرية ، وفي نطاق الترابط الجماعي البدائي حيث لم يكن هناك وجود للملكية الخاصة ، ولا للحكومة ، وأجهزتها ومؤسساتها المختلفة .

ولم يدم هذا الأسلوب طويلاً فقد تبدل من صفته الجماعية البدائية إلى صفته الفردية ، وأدى ذلك إلى ظهور نوع من السلطة ، ونشوء الممالك في عدد من مناطق شبه الجزيرة العربية كجهاز طبقي لحماية مصالح الأرستقراطية المدنية والدينية وللدفاع عن البلاد ضد الغزاة والطامعين ، وللقيام بالتوسع وتنفيذ بعض المشاريع الإنتاجية الكبرى ، بحيث يمكن القول بأن جميع ممالك الجنوب جمعتها سمات مشتركة نوجزها فيما يلي :

آ ـ الموقع الجغرافي :

ففي اليمن نشأت أقدم ممالك الجزيرة لتميز هذا الجزء بموقعه الجغرافي الممتاز وبتربته الغنية ، وأمطاره الموسمية الغزيرة ، وموارده الطبيعية ؛ فالورس واللبان لا

يكونـــان في غـــير الـــيمن [1] ، والبخور واللبان في حضرموت [2] ، حتى أمكن القول : " فاقت السبأي الجميع ثروة بما يتوافر في أرضها من أدغال ذات عطور ، ومـــناجم ذهب ، وأمواه للري وهي تنتج العسل والشمع بكثرة ... " [3] . وهي مـــواد كـــانت تصدرها إلى مصر ، ودول أوربا ، وغيرها من الشعوب القديمة ، وكانت تستخدم في جنوب الجزيرة العربية وخارجها ، لأغراض دينية قديمة وعند دفن الموتى [4] .

فالـــتجارة كـــانت مستمرة ، والجزء الأكبر من مقوماها (موادها الأولية) موجـــودة في الـــبلاد فعلاً ، كما كان موقعها عند ملتقى البحر الأحمر ، والمحيط الهندي يعطيها ميزة مضاعفة في مجال الخطوط التجارية ، فالخطان البري والبحري موجـــودان وإذا قـــوي أحدهما على حساب الآخر ، فإن هذا لا يدفع إلى خارج الصورة وإنما تظل منتفعة في كل الأحوال ، وقد كانت نتيجة كل ذلك أن بقيت هذه الممالك طوال العصر القديم .

ومـــع أن إحداهـــا قـــد تصل إلى مركز القوة على حساب الأخريات في بعـــض الأحيـــان إلا أنـــه لم يـــندثر أي منها ، كما حدث في بعض الإمارات والممالك الشمالية .

ب ــ التفاعل الاقتصادي والوحدة السياسية :

وهمـــا من أهم ما تميزت بها الممالك العربية الجنوبية ، حيث نلاحظ التوافق بيـــنها على الرغم من تعدّدها ، أما ما يشبه التوافق ، يقترب بها من التداخل بقدر

---

[1] الهمداني : المصدر المتقدم ص ٣٦٠ .

[2] حتي : المرجع المتقدم ص ٦٤ .

[3] حتي : المرجع نفسه ص ٧٨ .

[4] هبو : المرجع المتقدم ص ٨٢ .

مــا يبتعد بها عن التناحر والتصارع الذي نجده في بعض ممالك الشمال مثل مملكة الغساسنة ، وإمارة اللخميين ، ولعلّ مرجع هذا إلى التكامل الاقتصادي فيما بينها فبعض المناطق تنتج نوعاً من الطيوب والتوابل ، وبعضها ينتج نوعاً آخر ، وكلها تصب عند بداية خط القوافل البرّي الذي يمر في مناطق حددها التضاريس الطبيعية وجعلتها أنسب من غيرها ومن ثمّ لم يكن هناك بديل عنها .

وهكــذا كــان لا بد من قدر من الاتفاق بين هذه الممالك جميعاً لا يمكن الاستغناء عنه ، فكل منطقة تعتمد على الأخرى ، فإحداها تنتج وإحداها تريد أن تســوق تجارتهــا وتلك تمر القوافل من أرضها ، وتستفيد مما تجنيه من ذلك من رســوم ، وأجــور عــلى ما تقدّمه من خدمات . وفي بعض الأحيان تجمع بين الموردين الإنتاج والنقل وهكذا . ومن ثم كانت السيادة السياسية بين هذه الممالك تتعاصــر أحيانــاً ، وتتــتابع أحياناً ، وتتفوق فيها مملكة على مملكة أخرى ، أو تصــل إحــدى هــذه الممــالك إلى السيطرة على كل الممالك الباقية فيما يشبه الوحدة السياسية [1] .

ج ـــ التوسع خارج حدودها بالمستوطنات :

كالمســتوطنات المعينية شمال غربي الجزيرة . وفي الجوف في القسم الشمالي منها ، والمستوطنات السبئية في الشمال ، والمستوطنات الحميرية في الحبشة . ومثل هذه المستوطنات ابتدأت بالضرورة محطات تجارية لتجار العربية الجنوبية ، ثم نمت واســتقرت بعد ذلك لتتحول إلى مدن لها كيانها الخاص ، ولكن تبقى بينها وبين الأماكن التي انبثقت عنها في البداية علاقات مصالح تجارية . كما نتصور أن تكون

---

[1] يحـيى : (لطفي عبد الوهاب) . العرب في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ م ط٢ ص (٣٥٥-٣٥٦) .

لها مع هذه الأماكن علاقات أدبية ودينية [1] .

ممـــا أسهم في تطور اليمن وتقدمها ، ومن ثم إلى تفكك الروابط الجماعية ، وظهـــور الملكية الخاصة ، والتفاوت في توزيع الثروة ، والتمايز في الحقوق ونشوء الممالك العديدة وهي :

١- مملكة معين (١٣٠٠-٦٣٠ ق.م) :

تُعـــدّ المـــلكة المعينية أقدم الممالك العربية التي قامت في اليمن ، وقد بلغتنا أخبارها من الكتابات المدونة بالمسند ، والكتب الكلاسيكية اليونانية والرومانية ، ولم يـــرد لها اسم ، أو ذكر في الكتابات والمصادر العربية الإسلامية ، وما تضمنته هـــذه المصادر اختص ببلدتي معين وبراقش ، وهو لا يتجاوز التعريف فيها حيث كانت محفدين من محافد اليمن ، وقصورها أو حصونها القديمة [2] .

والجدير بالذكر أن مملكة معين وحضارتها ظلت غير معروفة حتى تمكن العالم جوزيـــف هاليفي ١٨٧٠ م من الكشف عن آثار معين بعد أن تنقل بين خرائبها مـــن صنعاء إلى الجوف إلى نجران ، فمأرب وصرواح حاملاً إلى بلاده ٦٨٦ نقشاً جمعها من ٣٧ مكاناً مختلفاً [3] .

ظهـــرت مـــلكة معـــين في الجوف بين نجران وحضرموت في أرض خصبة منبســـطة عاصـــمتها قرناو على ضفة وادي مذاب ، وقد عمل أفرادها بالزراعة والـــتجارة ، ثم ما لبثوا أن بسطوا نفوذهم السياسي على المناطق الواقعة في شمال الحجـــاز معان وديدان (العلا) ومدين وسيطروا على الطريق التجارية بين الجنوب والشـــمال ، لأنهم لم يجدوا وسيلة تضمن لهم الأمن والسلام سوى السيطرة على

---

(١) يحيى : المرجع نفسه ص (٣٥٦-٣٥٧) .

(٢) الهمداني : المصدر المتقدم ٣٦٥ .

(٣) عاقل : المرجع المتقدم ص ٦٤ .

الطـــريق الوحيدة المعروفة في ذلك الوقت ، وفي إقامة المراكز والمحطات الآهلة ببني قومهـــم وكانت هذه الطريق ، والمراكز المقامة عليها موضع نزاع دائم بينهم وبين معاصريهم السبئيين بسبب المنافسة في التجارة [١] .

ذكـــر موســـل " أنه خلال الألف الأولى قبل الميلاد كان الجزء الأعظم من التجارة العالمية في بلاد العرب بأيدي المعينيين والسبئيين الذين كانوا يهيمنون على الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية " [٢] .

فالســـبئيون والمعيـــنيون كانوا يتنافسون على اليمن وعلى الواحات التي تقع عـــلى طول الطريق التجارية بحيث كان يقيم في كل واحة جالية عربية من عرب الجنوب ومقيم كبير من أهله [٣] .

عـــلى أن أهـــم المراكز المعينية خارج اليمن ما كان في الشمال الغربي لبلاد العرب حيث تقع واحدة ديدان (العـــلا) التي كانت وما صاحبها ـــ حسب رأي بعض الباحثين ـــ بمنْزلة جزء من مملكة معين ، لكنها سرعان ما سقطت في أيدي الـــلحيانيين الذيـــن هم أيضاً من أقوام العربية الجنوبية وأنشؤوا لهم مملكة صغيرة جنوب أرض الأنباط

لكـــن ممـــلكة لحيان لم تدم طويلاً فقد قضى عليها الأنباط طمعاً في البلاد ولعرقـــلة التجارة والقيام بها ، مما جعل اللحيانيون يلتجئون إلى البطالمة والرومان للاحـــتماء بهم من تحكم الأنباط فتم للرومان الاستيلاء على مملكة الأنباط ١٠٦ م وانتهى بذلك حكم الأنباط للحيانيين [٤] .

---

[١] موسل : (أ) . شمال الحجاز . تعريب عبد المحسن الحسيني ، مؤسسة الثقافة الجامعية ص (١-٢) .

[٢] موسل : المرجع نفسه ص ١ .

[٣] موسل : المرجع نفسه ص ١ . علي : المرجع المتقدم ١٢١/٢ .

[٤] علي : المرجع نفسه ٢٤٧/٢ .

أمـــا تاريخ الشعب المعيني الاجتماعي والسياسي والديني فإنه ـــ بحسب ما وصـــلنا مـــن أخـــبار ، وما توصل إليه علماء الآثار واللغة ـــ نستطيع القول إن عاصـــمتهم قـــرناو كمـــا سلف ذكره ، وإن عدد ملوكهم ٢٦ ملكاً يزيدون أو ينقصـــون عـــند بعض المتخصصين بشؤون تاريخ اليمن القديم [١] ويقسمون إلى طـــبقات تـــبعاً للأسر الحاكمة ، كان نظام الحكم ملكياً ويدعى الملك مزود أي مقدس ، والمُلك وراثي وكثيراً ما كان الابن يشارك أباه في الحكم ، ويساعد الملك في الحكم مجلس استشاري له سلطات واسعة [٢] .

وكانت المدن التي تتبع معين تتمتع بالاستقلال الذاتي ، ويدير شؤونها رؤساء ينتخـــبون لمـــدة سنة قابلة للتجديد يساعدهم مجلس من رؤساء الأسر ، ولرؤساء الأســـر هـــؤلاء مكانة رفيعة ، فقد كانت تدوّن أسماؤهم في سجلات المدينة أو المعـــابد ، وتـــرد أسماؤهم في وثائق المؤرخين حتى إن بعض الملوك كانوا يؤرخون توليـــتهم ويحددونها بذكر الرئيس الذي كان يتولى الإدارة في المدينة آنذاك ، ولهذا فإننا لا نعرف متى قامت المملكة المعينية ، ومتى سقطت على وجه التحديد الدقيق وإنمـــا نكـــتفي بذكـــر الأرقام التقريبية ، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على اللامركـــزية في الحكـــم ، ويـــدل مـــن ناحية أخرى على نضوج سياسي ورقي حضاري من دون شك .

أمـــا المجـــتمع المعيني فهو مجتمع طبقي فيه الأرستقراطيون ، والعبيد ، وبين الطبقـــتين طـــبقات أخرى ، وقد اشتغلوا بالزراعة والتجارة ، وكان بعضهم بدواً يـــرعون الماشية ، ويعيشون حياة تنقل وارتحال ، وهم متدينون يعيرون الدين أهمية

---

(١) هبو : المرجع المتقدم ص ٨٧ .

(٢) عاقل : المرجع المتقدم ص ٨٤ .

كبيرة ، وللمرأة بينه مكانة محترمة ومقام رفيع [1] .

وبسبب التجارة انتشروا في بلاد مختلفة حتى بعد انقراض مملكتهم فقد ورد ذكرهم في مصر وسوريا والعراق وغيرها . وكانت التجارة السبب الأول في ثرائهم لأنهم كانوا يفرضون الضرائب على البضائع التي تمر بها ، كما كان هناك بضائع ينفرد بها التجار المعينيون وينقلونها على الطرق البرية ، وكان للتجارة أثر في امتداد نفوذهم السياسي إلى بلاد كثيرة تقع على الطريق التجارية ، وقد وجدت نقوش وأختام ونقود معينية في جنوب فلسطين وعلى طول نهر الفرات الأدنى . ساعدهم على هذا الانتشار أنهم كانوا يتكلمون لغة هي فرع من فروع لغة عرب الجنوب وقريبة من الفروع السبئية التي جاءت بعدها وحلت محلها ، وهناك من يذهب إلى القول إنهم أول من اخترع الأبجدية ، وأنها انتقلت من عندهم إلى سيناء وبلاد الفينيقيين ومنها إلى اليونان وبلاد الرافدين ، وفي ذلك دليل آخر على مدى الصلات التجارية الوثيقة بين المعينيين وتلك الشعوب القديمة حتى بعد زوال ملكهم ، ظلوا يحتفظون بكيانهم ونشاطهم التجاري [2] .

٢- مملكة حضرموت (١٠٢٠-٢٩٠ ق.م) :

تقع حضرموت إلى الشرق من اليمين على ساحل البحر العرب ، ورد اسمها عند اليونان والرومان مع شيء قليل أو كثير من التغيير أو التحريف ، عاصرت معين وقتبان وسبأ [3] : إلا أن العلماء ما يزالون مختلفين حول تحديد عصر هذه المملكة .

وكان أهم مدنها شبوة العاصمة ، ثم ميفعة العاصمة القديمة لها [4] ،

---

[1] عاقل : المرجع نفسه ص ٨٥ .

[2] عاقل : المرجع نفسه ص ٨٥ . هبو : المرجع المتقدم ص ٨٦ .

[3] مهرات ، (محمد بيومي) تاريخ العرب القديم ، الاسكندرية ، دار المعرفة ١٩٩٣م ص ٢٣٦ .

[4] مهرات ، مرجع متقدم ص ٢٤٣ .

وقـنا ميـناءها الـرئيس الذي كان يجمع اللبان والبخور ثم يصدر منها براً وبحـراً [1] ، وكـانت تلك التجارة كما في كل ممالك الجنوب أساس الازدهار والرقـي .

وهـناك مديـنة مذب أو مذاب ، وقد اشتهرت بمعبدها الذي كان مكرساً لعبادة إله القمر " سين " [2] .

وأمـا متى انتهت مملكة حضرموت ، وكيف أصبحت جزءاً من مملكة سبأ وذي ريدان فذلك موضع خلاف بين الباحثين ، يُقال : ظلت حضرموت المملكة الوحيدة التي حافظت على استقلالها إلى أواخر القرن الثالث الميلادي حتى استطاع الملك الحميري شمريهرعش إخضاعها إلى المملكة اليمنية الموحدة .

٣- مملكة قتبان (نحو ١٠٠٠-٥٤٠ ق.م) :

القتـبانيون شـعب عربي يمني عاصر المملكة المعينية ثم السبئية [3] كما تدل الوثـائق الكتابية والآثار التي استطاع جملة من العلماء العثور عليها وعلى رأسهم النمسـاوي غلازر الذي بدأ رحلته عام ١٨٨٢ م وخلال سنوات عديدة استطاع أن يـزور أغلب المناطق اليمنية ويحصل على العديد من النقوش والآثار التي ألقت الضـوء على هذا الشعب وهذه البلاد في حقول متعددة . وقد اختلف المؤرخون في تحديد بداية الدولة القتبانية .

نشـأت هـذه المـلكة في الأقسام الغربية من العربية الجنوبية وفي جنوب السبئيين وجنوبهم الغربي وامتدت أراضيها حتى بلغت مضيق باب المندب وكانت عاصـمتها تمـنع وهـي كحلان اليوم وفي وادي بيحان في منطقة عرفت قديماً

---

(١) مهرات ، مرجع متقدم ص ٢٤٤ .

(٢) عبد الله مرجع متقدم ٢٤٤ .

(٣) علي : المرجع المتقدم ١٧٦/٢ . دلو : المرجع المتقدم ٣٠٩/٢ .

بخصـــبها وبكـــثرة مياهها وبساتينها ولا تزال آثار نظم الري القديمة تشاهد فيها إلى اليوم [١] .

أفـــاد القتبانيون من موقع بلادهم المهم فعملوا بالتجارة كغيرهم من الأشقاء اليمـــنيين فأثـــروا وجـــنوا أرباحاً ضخمة زادت من نفوذهم السياسي في المناطق المجـــاورة واستطاعوا أن يخضعوا المعينين لنفوذهم كما يتضح من الوثائق الكتابية الـــتي عـــثر عليها ثم اشتبكوا فيما بعد مع السبئيين الذين قضوا على حكمهم نحو ٥٤٠ ق.م أو ٥٠ ق.م أو بـــين سنة ١٠٠-١٠٦ بعد الميلاد [٢] ، ولم تكن دولة سبأ الوريثة الوحيدة لقتبان فقد شاركتها الغنيمة حضرموت التي ضمت إليها جزءاً من قتبان [٣] .

٣- المملكة السبئية (٨٠٠-١١٥ ق.م) :

عاصرت المملكة السبئية مملكة معين وحضرموت وقتبان وكانت تتبع لها في الحقـــبة الأولى ، ثم استقلت عنها ونافستها السيادة في اليمن وفي المحطات في شمال غربي الجزيرة العربية ـــ كما سلف ذكره .

وتُعـــدّ المملكة السبئية من أقوى ممالك عرب الجنوب وأشهرها . فقد ورد ذكـــرهم عند الآشوريين ومنهم الملك تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) حيـــث ذكر أن السبئيين أرسلوا إليه هدايا (جزية) من الذهب والجمال والتوابل ، وذكـــر سرغون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) أن (يثعمر أمرا) زعيم سبأ قد دفع له الجزية وذكرهم كذلك سنحاريب وخلفاؤه [٤] .

---

[١] علي : المرجع نفسه ٢/٢٢٢-٢٢٣ . دلو : المرجع نفسه ٢/٣٠٩ .

[٢] علي : المرجع نفسه ٢/٢١٧ . دلو : المرجع نفسه ٢/٣١٠ .

[٣] مهرات : المرجع نفسه ٢٥٨ .

[٤] هبو : المرجع المتقدم ص ٩٣ وينظر :
Moscati, Histoire et cirlisation des péuplessé metiques, Paris 1954, p.180 .

ويستنتج من التوراة أن السبئيين كانوا يمارسون الزراعة والتجارة ، وأن قوافلهم التجارية كانت تصل إلى بلاد الشام ، وذلك في نحو عام ٩٢٢ ق.م [١] . وكانت تسيطر على الطريق التجاري الرئيس الذي يربط جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بسورية ومصر . وكان التجار من سبأ ينقلون خير أنواع البلسم ، والحجارة الكريمة المتنوعة ، والذهب إلى السوق بمدينة صور [٢] .

وأشار القرآن الكريم إلى منْزلة سبأ الاقتصادية العالية ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ [٣] .

قسم المؤرخون تاريخ سبأ إلى عصور أربعة معتمدين في ذلك على أن لقب حكام سبأ لم يكن لقباً ثابتاً إذ كان يتغير من عصر لآخر طبقاً لظروف المملكة نفسها وأن هذه العصور الأربعة هي :

ـ **العصر الأول** : كان لقب حكام سبأ الأوائل (مكرب) أي المقرب من الآلهة [٤] (وربما اشتق من تقديم القرابين إلى الآلهة) ؟! . وفي ذلك إشارة إلى دور الحاكم الديني بالإضافة إلى عمله السياسي ، ويعد الدين الدعامة التي تعطى للنظام الملكي قاعدته الشرعية في العصر القديم بوجه عام ، ولنا أن نتصور في ظل هذا الوضع أن يكون الحكم الملكي وراثياً ، وذلك أمر وارد في النظام الملكي ، وهو أمر أكثر وروداً إذا كان الحكم الملكي من النوع الفردي المركزي .

وقد تمكن العلماء من جمع أسماء سبعة عشر مكرباً ورد ذكرهم في الكتابات

---

[١] التوراة : سفر الملوك الأول اصحاح ١٠ الآية ١-٢-٣- سفر أيوب : اصحاح ٦ آية ١٩ .

[٢] التوراة : سفر حزقيال اصحاح ٢٧ آية ٢٢ .

[٣] سورة سبأ ، الآية ١٥-١٩ .

[٤] علي : المرجع المتقدم ١٧٩/٢ . حتي : المرجع المتقدم ص ٨٧ ، ومكرب أي الذي يجمع بين الكهانة والملك معاً

العـــربية الجـــنوبية واسم أولهم سمة علي ، وكانوا يقيمون في عاصمة سبأ القديمة الأولى ، وهـــي مدينة صرواح التي هي اليوم (خربة) [1] أو (صرواح الخريبة) على مسيرة يوم إلى الغرب من مأرب ، وفيها معبد (المقة) إله سبأ الأكبر .

وبعــد أن قــوي ســلطان الســبئيين بفضــل الدعم الديني ، وتكدست الــثروات وتوسعت الأراضي والممتلكات نهج آخرهم وهو (كرب ايل وتر) نحو (٤٥٠ ق.م) نهجــاً توســيعياً ، وشن الحروب ، وقاد الحملات وتخلى عن لقب مكرب ، ولقب نفسه (ملك سبأ) [2] أي أنه لم يعد ممثل الإله ، ولم يعد الوسيط بين الإله والناس . وبذلك بدأ العصر الثاني .

لذا عُدَّ المؤسس الحقيقي لمملكة سبأ ، وقد أشار نقش صرواح وهومن أهم الوثـــائق التاريخية المدونة القديمة التي تتعلق بأخبار سبأ إلى حروب التوسع التي قام بهـــا ، وقضى على استقلال ممالك ، وإمارات العربية الجنوبية الأخرى أو أخضعها لحكـــم سبأ كما أشار إلى الأراضي والمواشي والأموال النفيسة وعشرات الآلاف مـــن الأســـرى وغير ذلك من الغنائم التي سجلت باسمه ، أو باسم أفراد أسرته ، وأقربائه ومقربيه أو باسم الحكم أو باسم المقة إله سبأ الأكبر [3] .

إذاً كـــان مـــن نـــتائج حـــروبه التوسعية أن بسط نفوذ سبأ على معين ، والإمـــارات المجاورة ، وظهرت لأول مرة في تاريخ شبه الجزيرة العربية دولة قوية وحـــدت أهم المناطق في الجنوب ، لذا لم يكن مصادفة أن يطرح كرب ايل لقب مكرب . ويتلقب بلقب ملك الذي يعني الاستبداد ، والاستئثار بالسلطة ووفرت هـــذه الحروب للحكومة الموارد المالية ، والبشرية لبناء السدود ، والقصور والمعابد

---

[1] حتي : المرجع المتقدم ص ٨٧ . دلو : المرجع المتقدم ٣١١/٢ .

[2] علي : المرجع المتقدم ١٨٢/٢-١٨٣ . حتي : المرجع نفسه ص ٨٧ .

[3] علي : المرجع نفسه ٢٨٧/٢ وما بعد .

والحصون والأسوار وغيرها ، وفي ذلك دلالة كبيرة على فقد الملك صلاحياته الدينية ، وانتقال السلطة إلى الطبقة الأرستقراطية .

ومن جهة أخرى ألحقت هذه الحروب أضراراً فادحة باقتصاد المناطق التي فتحها كرب ايل ، أو أخضعها وسكانها مما أدى إلى تدهور أحوالها ، وإلى اندثار كثير من المواضع الحضرية بسبب إحراق المدن والقرى ، أو تخريبها ، وتدميرها وقتل أصحابها أو هلاكهم ، وأذكت الصراعات الاجتماعية ، وعمقت التناقضات بين الأرستقراطية الإقطاعية صاحبة الأراضي الواسعة ، وفقراء الفلاحين والعبيد ، الذين يعملون فيها ، وهي التناقضات الرئيسة أولاً ، ثم بين فصائل الأرستقراطية ذاتها ثانياً ، ويفهم من هذا أن الطبقة الأرستقراطية الثرية كانت طبقة لا يمكن أن يتجاهلها الملك ، بل لا يمكن إلا أن تزحف على صلاحيات النظام الملكي بما في ذلك النظام الوراثي للعرش بحيث يتحول الملك إلى ما يمكن أن نسميه الأول بين الأقران ، فالملوك كانوا هم الآخرون من الأسر التي تملك هذا الحق الاقتصادي الوراثي .

وفي ضوء هذا الوضع تتحول سلطة الملك الذي كانت الطبقة الأرستقراطية تختاره بطريقة أو بأخرى من بين صفوفها إلى ممثل لهذه الطبقة ، والتي هو نفسه منها يحافظ على مصالحها ، وينمي هذه المصالح إزاء أي ظروف معاكسة [1] .

اتخذ ملوك سبأ مأرب عاصمة لدولتهم ، وجعلوا من قصر سلحين مقاماً ، ومستقراً لهم ، ومنه تصدر أوامرهم إلى أجزاء المملكة في إدارة الأمور [2] . وأخذ الملوك ينتزعون الأراضي من القبائل المعارضة لهم ، ويمنحونها إلى أفراد أسرهم ،

---

[1] يحيى : المرجع المتقدم ص ٣٦٦ .

[2] دلو : المرجع المتقدم ٣١٣/٢ .

لـذا أخذت السلطة تؤول تدريجياً إلى أيدي الأسر الأوسع أملاكاً ، والأكثر ثراء وقـوة في أوسـاط الفئات الأرستقراطية ، وأصبح المال عاملاً مهماً للوصول إلى السلطة ، وصارت السلطة في نظر الأسر الأرستقراطية ، وسيلة لتكديس الثروات بمختلف الوسائل ، ومن بينها اغتصاب الأراضي من القبائل المعارضة ، أو المتمردة على حكمها .

ونـتج عن ذلك اضطرابات عنيفة ، وثورات داخلية أضرت بالوضع السياسي والاقتصادي لمملكة سبأ ، ومكنت الدول الأجنبية من التدخل في شؤونها ، مما أدى بالتالي إلى فقدان سبأ السيطرة على البحر الأحمر ، وسواحل أفريقية بعد أن انتقلت الـتجارة البحرية من أيديهم إلى اليونان والرومان [1] ، وقل شأن الطريق التجارية البرية التي كانت تربط اليمن ببلاد الشام التي كانت تحت سيطرة السبئيين .

أما العصر الثالث وفيه حمل حكام سبأ لقب ملك سبأ وذي ريدان إشارة إلى ضـم ريدان إلى التاج السبئي ، وربما يشير ذلك إلى مملكة قتبان أو حمير فيما يرى بعض الباحثين أن يطلق عليه تجاوزاً اسم عصر المملكة الحميرية الأولى .

٤- المملكة الحميرية الأولى (١١٥ ق.م ـ ٣٠٠ م) :

الحميريـون مـن الأقـوام العربية الجنوبية ، وقد جعل الحميريون حميراً جد الحميريين لأنه في زعمهم ابن لسبأ [2] .

استغل هذا الابن الضعف في ملوك سبأ وخلافاتهم ، وأسس المملكة الحميرية الأولى ، وبعـد أن استولى على الحكم لُقب " ملك سبأ وذي ريدان " وفي ذلك إشارة إلى ضم ريدان إلى تاج سبأ .

---

[1] دلو : المرجع نفسه ٣١٤/٢ .

[2] ابن حزم : (أبو محمد علي بن سعيد) . جمهرة أنساب العرب . تحقيق ليفي بروفنسال . دار المعارف بمصر ١٩٤٨ . ص ٤٠٦ . دلو : المرجع نفسه ٣١٧/٢ .

وجاء في الكتابات السبئية أن اليشرحا بن يحضب هو أول من حمل ذلك اللقب [1] ، وأصبحت ريدان (ظفار كما أصبحت تدعى فيما بعد) عاصمة المملكة الجديدة ، وإليه ينسب بناء قصر غمدان [2] .

وأهم أحداث هذا الدور حملة ايليوس غالوس عام ٢٤ ق.م للاستيلاء على اليمن موطن اللبان والبخور والمر ، بغية السيطرة على طرق التجارة التي يحتكرها ملوك سبأ وذي ريدان ، ولاستغلال ثروات اليمن ، وتطهير البحر الأحمر من القراصنة [3] .

ولكن أخفقت الحملة في تحقيق أهدافها ، وأصيبت بكارثة ألقيت تبعتها على صالح النبطي وزير الأنباط الذي كان دليل الحملة ، وقد اتهمه استرابون بالخيانة لأنه تعمد تضليل الجيش الروماني ، والسير به في أرض لا زرع فيها ولا ماء بغية إهلاكه [4] .

وأثبت إخفاق هذه الحملة ، أن الاستيلاء على اليمن ضَرْبٌ من المُحال ، وقد صدق المؤرخ فيليب حتي حين قال : " ساد الرومان العالم ، ولكنهم لم يسودوا العرب " [5] ،و العرب هم الذين سادوهم أو لَمْ يصر الأباطرة السوريون وهم على رأس الإمبراطورية في روما على أنهم عرب من سبيتموس سفيروس إلى فيليب العربي [6] لذا عرف الرومان هذه الحقيقة فتخلوا عن فكرة السيطرة المباشرة

---

(1) علي : المرجع المتقدم ٤١٦/٢-٤١٧ . الأرياني : المرجع المتقدم ص ٥٣ . مهرات : مرجع متقدم ٣٠١.

(2) الحموي : المصدر المتقدم مادة غمدان . حتي : المرجع المتقدم ص ٩١ . عاقل : المرجع المتقدم ص ٩٣ .

(3) علي : المرجع المتقدم ٤٤١/٢ . وينظر

Philby, The Background of Islam. Alexandria, 1947, P.100-101 .

(4) Strabo, Ibid, XVI, 113 .

(5) حتي : المرجع المتقدم ص٧٦ .

(6) داوود (أحمد) . تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- (المركز) . دمشق ـــ دار المستقبل ط١ ص ٦٣٩ .

على اليمن ، واستعانوا بالأحباش فيما بعد للوصول إلى غايتهم .

وأكدت من ناحية أخرى أن أمراء البلاد وسادات القبائل إن لم يتركوا خلافاتهم ويتوحدوا ويتضامنوا فيما بينهم للوقوف في وجه الغزاة ، مفضلين مصلحة الوطن على مصالحهم الشخصية ، فإن العدو سيطمع بهم ، وذلك لأن عداواتهم فيما بينهم ستسهل على الغزاة التوغل في البلاد ، وقد " كان لهذه المملكة علاقة وثيقة بالأحباش ، ويُقال أن جماعة من أهل اليمن في هذا الدور هاجروا إلى الحبشة ، وأنشؤوا مستعمرة هناك ، ومن الثابت أن الحميريين استولوا على بلاد الحبشة في القرن الأول قبل الميلاد ، وذلك لأغراض تجارية "[١] .

ثم بدأت قوتهم تنزل من عليائها ، وكان ذلك نتيجة مزاحمة الرومان لهم في نقل التجارة بالطريق البحري مزاحمة شديدة ، وبسبب عدم تركيز جهودهم على الطريق البرية التي كان بإمكانهم احتكارها لكثرة ما عليها من محطات حميرية ولكنهم لم يهتموا بالطرق البرية ، فضعفوا ، وتضاءلت أهميتهم التجارية[٢] .

ـ العصر الرابع :

٥- المملكة الحميرية الثانية (٣٠٠-٥٢٥ م) :

جمعت حمير شعثها للمرة الثانية ، وضمت إليها القبائل المجاورة ، وأخضعت حضرموت وسائر بلاد اليمن ، ومؤسس هذه المملكة شمريهرعش أو تبع الأكبر[٣]

---

[١] عاقل : المرجع المتقدم ص ٩٣ .

[٢] عاقل : المرجع نفسه ص ٩٣ .

[٣] تبع إحدى قبائل همدان وحرفت الكلمة فصارت تبع علماً بأن كلمة تبع لم ترد في نصوص المسند لا بمعنى ملك ولا بمعنى آخر له علاقة بوظيفة أو بحكم أو بملك ، فهو لقب مجهول الأصل كان يُطلق على الملوك .

علي : المرجع المتقدم ٥١٦/٢ . مهرات : مرجع متقدم ٣٤١ .

وبـــدأ المـــلك في هـــذه الحقبة يحمل لقب " ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت " [1] ويستدل من هذا اللقب على أن سلطة الملك الحميري أصبحت تشمل الـــيمن وتوابعهـــا ، وجنوب الجزيرة العربية ، فقد كان لهذا الملك أو التبع أعمال حربية منها أنه سيّر حملة عسكرية إلى جملة قبائل عسير ، وتهامة حتى ساحل البحر وانتصرت الحملة عليها ، وتعقبت القبائل ، وأنزلت بها خسائر فادحة [2] .

وقـــد أدت أعمـــال توســـع شمريهرعش في هذه المناطق التي بلغت سواحل البحر الأحمر إلى دخولـــه في نـــزاع مع الحبش الذيـــن كانوا يحتلـــون مواضـــع مـــن الســـاحل ، ويؤيـــدون بعض القبائل لوجود أحلاف عقدوها معها [3] وقد عاصـــر شمريهـــرعش امرأ القيس . فقد تبين من نص النمارة أن ثمة حروباً نشبت بـــين شمريهـــرعش وامرئ القيس ، وكان النصر فيها لامرئ القيس [4] . مما يعني أن جزيـــرة العرب كانت في أوائل القرن الرابع الميلادي ميداناً للتسابق بين رجلين قويـــين . ونشـــير هنا إلى أن النصوص قد بالغت في وصف مدى الفتوحات التي توصـــلا إليهـــا ، فمن الممكن بل من المحتمل أن غزوات شمريهرعش وصلت إلى شمـــال الجزيرة ، وشمالها الغربي حيث اقترب من تخوم الروم الذين لم يقفوا مكتوفي الأيـــدي أمام هذه التطورات الخطيرة في الجزيرة والتجمعات السياسية والعسكرية الجديدة فيها والتي يقوم بها أعداؤهم اللدودون " فارس وحمير " لا سيما أن سقوط

---

(1) عـــاقل : المـــرجع نفسه ٥٤٨/٢ . حسن : (حسن إبراهيم) تاريخ الإسلام السياسي . مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٣ هـــ ـــ ١٩٣٥ م ط١ ص ٢٨ .

(2) عـــلي : المـــرجع المتقدم ٥٤١/٢-٥٤٢ . سالم : (عبد العزيز) . تاريخ العرب في عصر الجاهلية . دار النهضة العربية ـــ بيروت ١٩٧١ ص١٤٥ .

(3) علي : المرجع المتقدم ٥٤٢/٢ .

(4) ديسو : المرجع المتقدم ص ٣٣ ، علي : المرجع نفسه ٥٤٩/٢ .

تدمـــر حليفة روما قد ترك فراغاً سياسياً وعسكرياً كبيراً في شمال الجزيرة كله ، وعـــندها أسرع شمريهرعش إلى احتلاله مما أقض مضجع الروم عندما شعروا بأن حدهـــم الطويـــل مـــع عرب الجزيرة قد أصبح مهدداً بهذه التحركات العسكرية العادية قرب جناحهم الشرقي .

لعـــل فيما ذكرنا من المهاد التاريخي بعض الغنى في التدليل على أن الروم لم يكونـــوا بعيديـــن كل البعد عن الاهتمام بحملة تضرب سلطان حمير في الجنوب للتخلص من عنصر الأحلاف هذا في الجزيرة ، ولفتح الطريق المباشر إلى الهند .

وفي هـــذا الدور غزا الأحباش اليمن كرد فعل للغزو الذي قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة ، وكان ذلك في عهد خليفة شمريهرعش (يريم يرحب) [١] ، ومـــند ذلك الحين تلقب كل ملك من ملوك أكسوم بلقب " ملك أكسوم وذي ريـــدان وحبشت وسبأ وتهامة " [٢] ، وغير ذلك من ألقاب ، فتمكنوا من الوصول إلى حكم اليمن ، وذلك عام ٣٤٠ م واحتفظوا به حتى ٣٧٨ م .

وفي أثـــناء ذلك فرَّ ملك حمير وأبناؤه إلى يثرب [٣] فتأثروا باليهودية بسبب وجـــود بعـــض البطون المتهودة هناك ، في الوقت الذي كان يعمل فيه الأحباش والـــبيزنطيون على نشر الدين المسيحي . وقد قام المبشرون بالدعوة لها في العربية

---

[١] سالم : المرجع المتقدم ص ١٤٧ .

[٢] موســـكاتي : (ســـبتينو) . تـــاريخ الحضارات السامية القديمة ، ترجمة يعقوب بكر ، دار الرقي ، بيروت ١٩٨٦ م ص٢١٥ ، شيخو : (لويس) . النصرانية وآدابها ، مطبعة الآباء اليسوعيين ــ بيروت ١٩١٢ ج١/٦١-٦٢-٦٣ . ويـــنظر : نـــافع : (محمد مبروك) ، عصر ما قبل الإسلام . مطبعة السعادة مصر ١٩٥٢ م ط٢ ص٨٣ . ترسســـي (عدنـــان) ، اليمن وحضارة العرب . منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ص ١٩ ، جميلي (رشيد) ، محاضرات في تاريخ العرب ١٩٧٢ م ط١ ص٨٥ .

[٣] اليعقوبي : (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) . تاريخ اليعقوبي . دار صادر بيروت ج١ ص٩٧ . وينظر : سالم : المرجع المتقدم ص ١٤٧ .

الجنوبية ، ونجح الراهب فيميون في تنصير عدد كبير من سكانها ، وتأسيس كنيسة في نجران [1] .

ولم يطل أمد الاحتلال الحبشي لليمن سوى ٣٨ عاماً فقد انشغل ملك الحبشة عيزانا بإخماد بعض الثورات في مملكته ، فاستغل هذا الوضع الملوك اليمنيون لاسترداد البلاد ، وطرد الأحباش ، والعودة إلى البلاد ، ناشرين الدين اليهودي [2] وتنصيب ملكيكرب يهأ من نفسه ملكاً على العربية الجنوبية ، حاملاً لقب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات [3] .

وتذكر الأخبار العربية أسماء تبابعة عدة ، لكن الحديث عنهم أقرب إلى الخرافة ، وهو عندهم من أزهى العصور وأكثرها إثارة لخيالهم الخصب ، وقد ذكروا أنه في عهد شرحبيل يعفر تم ترميم سد مأرب الذي بناه من قبل ذمر علي

---

[1] وهب بن منبه : التيجان في ملوك حمير . دائرة المعارف العثمانية ـــ حيدر آباد ـــ الدكن ١٣٤٧ هـ ط ١ ص٣٠١ .

وينظر : ابن هشام : (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري) ، السيرة النبوية ـــ تحقيق مصطفى السقا وغيره ج١ ص٣٢ وما بعد . الطبري : (أبي جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـــ دار المعارف بمصر ط٤ ج٢ ص١١٩ وما بعد ، السهيلي : (أبو القاسم بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي) الروض الأنف ، مكتبة الكليات الأزهرية ج١ ص٤٥ . ابن الأثير : (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم) الكامل في التاريخ . دار صادر ـــ بيروت ١٩٧٩ م ج١ ص٤٢٦ ، المقدسي : (مطهر بن طاهر) البدء والتاريخ ـــ مكتبة خياط ، بيروت . وطبعه مطبعة برطوند ـــ شالون (فرنسا) ج٣ ص١٨٢ ، ابن كثير : (إسماعيل أبي الفداء) البداية والنهاية ـــ تحقيق علي شيري ـــ دار إحياء التراث العربي ١٩٨٨ م ط١ ج٢ ص (٢٦-٢٧) .

[2] دلو : المرجع المتقدم ٣١٨/٢ .

[3] ابن كثير : المصدر المتقدم ٢٠٨/٢ حاشية . وينظر نيلسن : (ديتلف) التاريخ العربي القديم ـــ ترجمة فؤاد حسنين ـــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ م ص٣٠٢ ، علي : المرجع المتقدم ٦٥٩/٢ ، جميلي : المرجع المتقدم ص ٨٥ ، ترسيسي : المرجع المتقدم ص ١٩ ، أرياني : المرجع المتقدم ص ١٨٢ .

وتــر في أثناء حكم المملكة السبئية [1] ، وكان قد تصدع ، إلا أن هذا العمل لم يجد نفعاً ، فقد تشعث السد بعد ترميمه بعام واحد من سنة ٤٥٠ م ، وأدى ذلك إلى فرار جماعة كبيرة من سكان هذه المنطقة إلى الجبال ، فأعاد شرحبيل من جديد بناء السد [2] . وسجل هذه الأعمال في نقش طويل تضمن فيما تضمنه عبارة تدل عــلى انتشار عقيدة التوحيد في زمنه نصها " بنصر ورد الهن بعل سمين وأرضن " أي بنصــر الإلــه وعونــه سيد السماء والأرض وهو تعبير لا يتفق مع الديانتين المسيحية واليهودية ، وتردد ذكر الرحمن اسماً للإله الواحد [3] . وهناك نقش عبد كلال ذكر فيه اسم الرحمن أيضاً .

ثم تعــاقب عــلى حكــم اليمن ملوك ليس لهم أعمال مهمة حتى جاء ذو نــواس [4] آخر ملوك حمير ويسجل نهاية حكمه سقوط المملكة الحميرية في أيدي الأحباش ثانية حتى عام ٥٧٥ م [5] .

٥- الحكم الحبشي لليمن (٥٢٥ م ـ ٥٧٥ م) :

انــتزع ذو نواس العرش ، وجعل اليهودية الديانة الرسمية لحمير ، وفي الوقت نفســه تغير الاتجاه السياسي لمملكة حمير . فاليهودية المضطهدة في بيزنطة ، والتي تمــتعت بالتسامح في فارس ربطت الملك الجديد بالاتجاه الساساني لإحلال التوازن مع النفوذ البيزنطي ، وأصبح هناك تحالف حبشي رومي ضد عدو مشترك فارسي

---

[1] عاقل : المرجع المتقدم ص (٨٧-٨٨) .

[2] جميلي : المرجع المتقدم ص ٨٦ .

[3] سالم : المرجع المتقدم ص ١٤٩ . هبو : المرجع المتقدم ص١٠٢ .

[4] اسمــه ذو نؤس بالمصادر العربية . ودومنوس بالمصادر البيزنطية ومسروق في المصادر السريانية . برصوم : (أغناطيوس أفرام الأول) مقالات دون تاريخ ص٤٦ .

[5] موســكاتي : المــرجع المتقدم ١٩٣ . نيلسن : المرجع المتقدم ص ٢٨٤ . فخري : (أحمد) اليمن ماضيها وحاضرها ـــ جامعة الدول العربية ١٩٥٧ م ص (١٩-٤٥) . نافع : المرجع المتقدم ص ٦٢ .

حميري أصبح مفهوماً .

تحكـــي المصـــادر السريانية أن التجار من البيزنطيين والغساسنة والأثيوبيين تعرضـــوا للـــنهب والفـــتك بحياتهم في خضم الأحداث التي كان مسرحها آنذاك الجـــنوب العـــربي عـــلى يد ملك حمير المتهود ، مما ألحق الأذى بالمصالح التجارية لأكســـوم وغيرها من الدول ، وكان هذا في حد ذاته انعكاساً للعداء تجاه بيزنطة وأكسوم والدول النصرانية العربية ، وإلى جانب الخسائر السياسية تعرضت أكسوم أيضاً لخسائر اقتصادية فادحة لأن ذا نواس عطل تجارة عدولي ومكوسها [١] .

ومـــا دفع الأحباش الطامعين إلى السيطرة على اليمن وذلك لضمان توزيع البضـــائع [٢] . دون أن تتعرض للاعتداءات التي كان يمارسها الحميريون باستغلال فرصة قيام ذي النواس بمهاجمة نجران أكبر مركز للمسيحية في اليمن عام ٥٢٣ م ، والذي خيّر أهلها بين نبذ المسيحية أو القتل حرقاً فتخيروا القتل وآثروا الاستشهاد فخدّ لهم أخاديد أحرقهم فيها وأحرق إنجيلهم [٣] ، وقد ورد ذكر ذلك في القرآن الكـــريم ، قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ [٤] .

---

[١] كوبيشـــانوف : (ب.م) الشـــمال الشـــرقي الإفـــريقي ، ترجمة صلاح هاشم ، عمان ١٩٨٨ م ص (٣٤-٣٥) .

[٢] الحـــيمي : (الحسن بن أحمد) سيرة الحبشة ـــ مقدمته للدكتور مراد كامل ، القاهرة ١٩٥٨ م ص٦١ ، جميلي : المرجع المتقدم ص٨٨ .

[٣] الأصـــفهاني : (حمـــزة بن الحسن) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ـــ منشورات دار مكتبة الحياة ـــ بـــيروت ص ١١٣ ـــ ويـــنظر : الحمـــيري (نشـــوان) ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٤٨ . وينظر : يعقـــوب الـــثالث (أغـــناطيوس) الشـــهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية ، بطركية السريان دمشق ١٩٦٦ م ص١٣ .

[٤] سورة البروج ، الآية ٤-٨ .

ونشير هنا أن الأخباريين جعلوا مركز الأحداث نجران ، لكن القرآن الكريم لم يذكر ذلك ، و لم يبين من هم الذي قُتلوا مما يثير التساؤل في نفس أي باحث في التاريخ ، ومع ذلك يقف عاجزاً عن إيجاد الإجابة .

وسبب اختيار نجران كونها تقع على طريق القوافل التجارية ، ولأن النجرانيين بارزوا الملك وقواده ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وتمردوا عليه و لم يسلموا إليه المدينة ، فما كان من الملك إلا أن انتقم منهم [١] . مع العلم أنه أحرق بيعة ظفار بما فيها ، وكان الشهداء من ظفار ومن الحميريين العرب . وأهل نجران وحضرموت ومأرب وهجرين [٢] .

والمتأمل في حادثة الأخدود يرى أن أصحاب الأخدود حسب قوله تعالى (مؤمنون) ذلك لأن اسم الرحمن كان مرادفاً لاسم الله في جنوبي الجزيرة العربية ، وذلك أن الشهداء الحميريين كثيراً ما كانوا يرددونه كقولهم " المسيح بن الرحمن " وكذلك كان اسم المؤمنين مرادفاً لاسم الموحدين [٣] .

فالحقيقة التي لا تخفى على باحث تجعل الدافع الديني للغزو الحبشي الثاني من أوهن العوامل التي حركت ملك أكسوم الأثيوبي ليدفع بجيشه عبر البحر الأحمر وإلى الساحل المقابل لبلاده ، فثمة عوامل سياسية واقتصادية كانت وراء الغزو الحبشي .

أضف إلى ذلك أن العملية في حد ذاتها أدت إلى تغيير حاد في الاتجاه السياسي لمملكة حمير ، فقد كانت سياستها موجهة ضد فئة من أعيان حمير جمعت ثروة لا يستهان بها من المتاجرة مع الحبشة وبيزنطة واعتنقت المسيحية ، أي أن ذا

---

[١] يعقوب الثالث : المصدر المتقدم ص (٢٥-٢٦-٢٧-٤٩-٥٠) .

[٢] يعقوب الثالث : المصدر نفسه ص (٦١-٦٤-١١٩) .

[٣] يعقوب الثالث : المصدر نفسه ص ٨٣ .

نـــواس ربـــط بين انتشار المسيحية في اليمن وازدياد النفوذ الحبشي والبيزنطي في بلاده ، فاضطهد المسيحيين ، ولكنه في الواقع كان يعمل ضد الأحباش والبيزنطيين ، فالصراع كان من أجل السيطرة على التجارة المحلية والدولية .

ذكـــر الأخباريون أن النجاشي (كالب) أرسل جيشاً لمهاجمة الحميريين يُقدر بسبعين ألفاً من الجنود وعلى رأسه القائد أرياط ، وأوصاه بالانتقام من ذي نواس أشد انتقام ، وعندما التقى الجيشان وانهزم الحميريون ، اقتحم البحر بفرسه فغرق فكان آخر العهد به [(١)] ، ثم دخل أرياط ذمار التي سميت (صنعاء) [(٢)] وانتهى ملك الحميريين عام ٥٢٥ م .

المصادر العربية تجعل من مصرع ذي نواس على يد أثيوبي عملية انتحار لملك حمير ، أما كتاب الشهداء الحميريين فإنه يفرد أهمية خاصة للجندي الذي جرّ الجثة إلى ســاحل الــبحر حيث كان الماء رقيقاً ، ثم استل سيفه وحزّ رأسه ، ثم طارده وجـــنوده الحميريين وحصدوهم كالسنابل ، وقبضوا على كثيرين ممن لم يستطيعوا الهرب ، ثم اجتازوا المدن الحميرية كلها وتناولوها قتلاً ونهباً [(٣)] .

ومن ثم فالأخباريون جعلوا العدد سبعين ألفاً ، أمراً مبالغاً فيه ، لأن مثل هذا العدد يشكل عبئاً على السكان المحليين ، مما يثير شعور السخط ضد الأحباش لدى شـــطر معين من السكان ، وبالتالي ليس لدى الحبشة إمكانات كافية لتجنيد مثل

---

(١) ابـــن هشام : المصدر المتقدم ٣٨/١-٣٩ . الحميري : المصدر المتقدم ١٤٩ . ابن بكار : (اسكندر بن يعقـــوب) ، نهايـــة الأرب في أخـــبار العرب . مرسيليا ١٨٥٣ م ص١٩ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٤٣١/١ . هبو : المرجع المتقدم ١٠٣ . قارن مع يعقوب الثالث : المصدر المتقدم ١٢١ ، كوبيشانوف : المرجع المتقدم ٨٣ .

(٢) الديـــنوري : (أبو حنيفة) الأخبار الطوال . مراجعة حسن الزين ـــ دار الفكر الحديث بيروت ١٩٨٨ م ص٦٢. هبو : المرجع المتقدم ص١٠٣ .

(٣) يعقوب الثالث : المصدر المتقدم ص ١٢١ .

هـــذا العدد الكبير أو حتى أقل من ذلك بكثير [1] ، فضلاً عن السفن لنقله ولنقل سـلاحه وعـتاده بالإضافة إلى أن الحميريين كانوا يومذاك تحت وصاية نجاشي الحبشة الذي ترك حامية حبشية في ظفار بعد الحملة الأولى على اليمن .

وقـد تحدث رقيم سميفع أشوع من حصن الغراب عن المعركة على ساحل البحر وأقتصر على ما معناه :

وأرسـل الأحباش حملتين إلى بلاد حمير قتلوا أثناءها ملك حمير وأقياله من الحميريين والأرحبيين [2] .

ونصـب النجاشي السميفع أشوع ملكاً على اليمن اختاره من بين نصارى حمير على أن يدفع إلى الأحباش جزية سنوية [3] .

وفي ذلـك دلالة على التبعية الدينية والإدارية للأحباش في الوقت الذي كان فيه القواد الأثيوبيون باليمن مستقلين عن السميفع أشوع الذي كان سلطانه مهتزاً لدرجة أنه سقط بسرعة ، وسقوطه ليس بسبب هجوم خارجي بل ضعف ذاتي [4]

أمـا الأخـبار العـربية فـتقدم حكايـة نصف أسطورية مفادها أن قائد الـثورة أبـرهة الأشرم جاء جندياً تحت قيادة أرياط الذي فتح اليمن ولكن ما إن تمضـي سـنوات معـدودة حتى ينازعه السلطان ثم يغدر به ويقتله في مبارزة [5]

---

[1] كوبيشانوف : المرجع المتقدم ص٤٠٦ ذكر أن العدد خمسة عشر ألفاً .

[2] كوبيشانوف : المرجع نفسه ص (٨٣-٨٤) .

[3] الأصـفهاني : (حمزة) ص ١١٣ ، ابن بكار : المصدر المتقدم ص ١٩ . يعقوب الثالث : المصدر المتقدم ص (٧٧-١٢٢) . كوبيشانوف : المرجع المتقدم ص (٨٧-٨٩) .

الرواية العربية لا تعرف شيئاً عن السميفع أشوع وتجهل مكانة أرياط كبير الأثيوبيين باليمن . الدينوري : المصدر المتقدم ص ٥١ .

[4] كوبيشانوف : المرجع المتقدم ص ٩٠ .

[5] الطبري : المصدر المتقدم ١٢٨/٢ .

ويصبح حاكماً للبلاد ، ويشرع في تدعيم وضعه في البلاد بطريقة جدية فقضى على الثورة التي قامت ضده ومن ثم اهتم بإصلاح البلاد وإصلاح ما أفسدته الثورة في سد مأرب ، وقد سجل ذلك في نقش عرف بنص أبرهة [١] ولقب نفسه " ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في النجاد وفي تهامة " [٢].

وبعد ذلك سعى أبرهة إلى منافسة عرب الشمال الذين نشطوا في المجال التجاري فراحوا يسيِّرون القوافل المحملة بين بلاد الشام واليمن ، ولا سيما قبيلة قريش المقيمة في مكة ، ولأجل ذلك حاول في بداية الأمر صرف الحج عن مكة فابتنى القليس [٣] ليكسب من ذلك فوائد مادية وسياسية وأدبية . ويُقال إن الإمبراطور البيزنطي هو الذي أرسل بالصناع ومواد البناء لبنائها [٤] وإن أبرهة استغل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة .

ولكن أحد الأعراب دنسها بالقاذورات مما أغضب أبرهة فأقسم ليهدمنّ الكعبة انتقاماً ، فجهز جيشاً عظيماً سار به إلى مكة يتقدمه فيلٌ ضخم لم ترَ العرب مثله من قبل ، ولكن الحملة لم تحقق غايتها [٥] ، وباءت بالإخفاق ومات

---

[١] شيخو : المصدر المتقدم ١/٦٢-٦٣ .

[٢] بافقيه : (محمد عبد القادر) تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣ م ص ١٦٧ .

[٣] ابن حبيب : (أبي جعفر محمد) المنمق ـــ صححه وعلق عليه خورشيد محمد فارق ، عالم الكتب ١٩٨٥ م ط١ ص ٧٠ . الأزرقي : (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد) أخبار مكة . تحقيق رشدي الصالح ملحس ـــ دار الأندلس ـــ مدريد ـــ إسبانيا ج١ ص ١٣٧ وما بعد . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٤٤٢/١ . الحموي : المصدر المتقدم مادة قليس .

[٤] كوبيشانوف : المرجع المتقدم ص ١٢٧ .

[٥] ابن هشام : المصدر المتقدم ٥٦/١ . ابن سعد : (أبو عبد الله محمد) الطبقات الكبرى ـــ لجنة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة ١٣٥٨ هـ ج١ ص ٥٦ . هبو : المرجع المتقدم ١٠٥ .

أبرهة ، وهذه الحادثة معروفة في القرآن الكريم بحادثة الفيل [1] .

الحملة وقصة القليس وغزو مكة رواية يستتر وراءها الهدف الأساسي ، وهو منافسة الحجاز اقتصادياً ، والسيطرة على المنطقة الغربية من الجزيرة العربية ، والسيطرة أيضاً على البحر الأحمر ومنافذه ، والتحكم في المنطقة الغربية وتجارها ، والاتصال بملك الغساسنة حلفاء البيزنطيين .

أي أن غزو أبرهة لمكة كان تنفيذاً للخطة الموضوعة التي ترمي إلى إخضاع شبه الجزيرة العربية للنفوذ البيزنطي ، ومحاصرة الفرس من الجنوب أيضاً ، بالإضافة إلى الغرب .

خلف أبرهة ابنه يكسوم في حكم اليمن ، ويروى أنه كان ظالماً مستبداً [2] . حيث أذل خلالها أهل اليمن ، وكان في علاقة تبعية مع أثيوبية كما كان أبوه [3] فلما توفي خلفه أخوه مسروق الذي كان أكثر تعسفاً في معاملة الحميريين ، وأخبث سيرة [4] ، وقد انتزع من أحد الأعيان (سيف بن ذي يزن) امرأته ريحانة في الوقت الذي كان فيه أهل حمير يتوقعون من حكامهم الجدد درجة معينة من الأمن والسلام ، وإعادة العلاقات التجارية .

ولعل هذه الأفعال نفرت أهل اليمن من حكم الأحباش ، ورغبتهم في التخلص منهم ، ومن استبدادهم ، وعندما طال البلاء ، نهض سيف بن ذي يزن ، ويكنى أبا

---

[1] سورة الفيل : الآية (١-٢-٣-٤-٥) .

[2] المسعودي : (أبي الحسن علي بن الحسين بن علي) مروج الذهب ــ دار الأندلس ــ بيروت ١٩٨٤ م ط١ ، ج٢ ص٥٥ .

[3] كوبيشانوف : المرجع المتقدم ص ١٨٥ .

[4] الأزرقي : المصدر المتقدم ١٤٨/١ . الدينوري : المصدر المتقدم ٥٢ . المسعودي : المصدر المتقدم ج٢ ص ٥٥. الأصفهاني (حمزة) المصدر المتقدم ١١٤ .

مرة [1] ، وقرر التخلص من حكم الأحباش وتحرير بلاده ، وتخليص قومه ، ولما كان مـن المستحيل عمل ذلك بالسيف ، وبالاعتماد على القبائل اليمنية لأن الأحباش جردوا الشعب من قواه ، وضربوا فئاته ببعضها ، مما جعله يتطلع إلى قوى خارجية ، ولما كان ذلك مستحيلاً من بيزنطة بحكم الرابطة التي تربطها بالأحباش ، حيث إن الأحباش حلفاء لبيزنطة ، استنجد بالفرس والتمس منهم النصرة بعون عسكري .

٦- الفرس في اليمن (٥٧٥ م حتى قيام الإسلام وانتشاره) :

استجاب كسرى لإلحاح سيف بن ذي يزن ، وعقد مجلساً من وزرائه ، واتفقوا على إرسال بعض القتلة والمساجين ، فقد قال وزراؤه له : " إن هلكوا كان الذي أردت بهم ، وإن ظفروا كان ملكاً زاده الملك إلى ملكه " [2] .

وكان تعداد السجناء ثمانمائة فارس من عتاة المجرمين الذين وجد بينهم بعض النبلاء ممن لحقهم سخط الشاهنشاه ، وكان على رأس الحملة قائد فارسي متمرس هو وهرز ، وصحبه في الحملة سيف بن ذي يزن وقسم هؤلاء المقاتلة الفرس المجرمون إلى ثماني مجموعات وضعوا في ثمان سفن ، وبعد رحلة طويلة شملت دجلة والخليج العربي ، وبحر العرب ، بلغ الأسطول الصغير سواحل حضرموت ، ولكن غرقت سفينتان بمن فيهما ووصلت السفن الباقية التي بلغ تعدادها ستمائة مقاتل ، ما إن رست السفن حتى أمر وهرز بإحراقها وتدميرها وتدمير المؤن والميرة ، بل وكل متاع عسكره ثم ألقى عليهم خطبة يدعوهم فيها إلى النصر أو الموت ، ليعلم الجنود أنه الموت أو الانتصار [3] وسارع السكان المحليون إلى معاونة الأمير اليزني

---

[1] الطبري : المصدر المتقدم ١٣٩/٢ . ابن كثير : المصدر المتقدم ٢٢١/٢-٢٢٢ .

[2] الطبري : المصدر المتقدم ١٤٠/٢ . ابن كثير : المصدر المتقدم ٢٢٣/٢ . كريستنسن (آرثر) إيران في عهد الساسانيين ــ ترجمة يحيى الخشاب . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ دمشق ١٩٥٧ ص ٣٥٥ .

[3] الطبري : المصدر المتقدم ١٤٤/٢ قارن مع بقية المصادر العربية ، وكوبيشانوف : المرجع المتقدم ص١٨٨

ضد الملك الأجنبي .

نجحـــت الحملة نجاحاً تجاوز كل التوقعات ، وانهزم جيش مسروق بن أبرهة وقـــتل في المعركة ، ودخل وهرز صنعاء ، وضبط اليمن ، وأعلم كسرى بالنجاح فكـــتب هـــذا إلى وهرز يأمره بقتل كل أسود باليمن ، وبتمليك سيف عليها ، وفرض عليه جزية وخراجاً معلوماً في كل عام [1] .

وفي مناقشـــة للرواية السابقة تبين أن وهرز كان من ذوي الخبرة والتجربة ، وكان " قائداً متمرساً " ، أي أنه سياسي محنّك ، الأمر الذي يوضح أن من أرسل لـــنجدة ســـيف ليســـوا كمـــا وصفتهم الرواية عتاة أو مجرمين ، بل هم سجناء سياســـيون سجنوا لسببٍ أو لآخر ، ولا سيما أن انتصار وهرز مع العدد ستمائة مقـــاتل لدليل على حسن التنظيم والخبرة السياسية والقتالية الكبيرة ، بالإضافة إلى ذلـــك أنـــه من غير المعقول تجاهل التنافس بين القوتين العظيمتين فارس وبيزنطة حيـــث كـــان عـــلى أشـــده حول مناطق شبه الجزيرة العربية ، واليمن وإرسال هـــؤلاء ــ العتاة والمجرمين ــ وبسط سيادتها على الجنوب ، إذن لا بد أن هؤلاء المقاتـــلين ــ كما أشرنا ــ هم سجناء سياسيون ينتمون إلى طبقة الفرسان ، وإلى عشـــائر الأعيـــان ،ومـــن ثم لم يكن لديهم أمل بالعودة إلى أوطانهم ، بدليل أنهم استقروا بصورة نهائية ومستديمة في البلاد التي فتحوها ، واتخذوا زوجات من تلك البلاد ، وفيما بعد حاولوا الخروج على القانون ، والاستئثار بالبلاد ، وامتنعوا عن دفع الجزية .

وأمـــا مـــا ذُكر بشأن تمليك سيف على اليمن فهو أمر طبيعي ، وذلك لأن

---

[1] الطبري : المصدر المتقدم ١٤٢/٢ . الدينوري : المصدر المتقدم ٥٣ . حوفي : (أحمد محمد) تيارات ثقافية بـــين العـــرب والفـــرس ــ دار النهضة للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٦٨ ص ١٨ . بافقيه : المرجع المتقدم ص١٧٢ .

كسرى اقتنع بضرورة إقامة حكم وطني في اليمن ، وربطه بالتبعية عندما فرض الجزية ، وذلك كي لا يؤلب اليمنيين عليه في بداية الأمر الذين تخلصوا من حكم أجنبي ليعودوا إلى آخر .

بالإضافة إلى أنه كان مشغولاً في حرب الروم ، وعندما انتهى من ذلك عيّن حكاماً من الفرس ، وأما أمره القاضي بقتل كل أسود فهو دليل ضمني على المنافسة الشديدة بين الفرس والأحباش ، ومن ورائهم بيزنطة على هذا الجزء المهم من الجزيرة العربية ، فاليمن مفتاح السيطرة على البحر الأحمر ، وعلى المنطقة الغربية من الجزيرة العربية .

وتذكر بعض المصادر الإخبارية أن وهرز بقي إلى جانب سيف [١] ، ليتابع الأحداث التي كانت تجري في اليمن عن قرب ومن ثم يوصلها إلى الفرس ، أو لإقامة حكومة مشتركة يمنية فارسية تولى رئاستها سيف .

وقد اشترط كسرى على سيف نظير مناصرته له عدة شروط منها أن يتزوج الفرس من نساء اليمن ، ولا يتزوج اليمنيون من نساء الفرس ، وأن يحمل سيف إلى كسرى الخراج [٢] كما سلف القول . وعملية الزواج هذه بمنْزلة الاستيطان بالنسبة للفرس السجناء ، وسيخلفون الأبناء فيما بعد [٣] .

وهكذا تحول الجنوب العربي إلى ولاية من ولايات الدولة الساسانية ،

---

(١) الأصفهاني (حمزة) ص ١١٥ . الديار بكري : (حسين بن محمد بن الحسن) تاريخ الخميس في أنفس نفيس ــ دار صادر ــ بيروت ١٩٣ .

(٢) المسعودي : المصدر المتقدم ٥٦/٢ . فرعون : (محمود) السياسة الساسانية في شبه الجزيرة العربية من ق٣ -٧م ، أطروحة دكتوراة بالروسية بإشراف ميخائيل بتروفسكي ، إيلي كاليسنيكوف ، لينينغراد ١٩٩٠ ص ١١١ .

(٣) الأبناء هم بقايا هذا الزواج . ابن حبيب : المحبر ص ٢٦٦ .

وكـــانت هذه بداية لسياسة فارسية جديدة في الجزيرة العربية ، فالحاكم الفارسي لليمن ، يحمل في المصادر العربية لقب المرزبان [1] .

وقد استمرت السيادة الفارسية على الجزيرة العربية إلى أن وحدها المسلمون وبهذا سيطر الفرس سيطرة فعلية على الطريق البحري التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمـــر ، وازداد نفوذهـــم حتى كاد يعم أنحاء الجزيرة العربية إذ كانوا مسيطرين أيضاً على العراق والبحرين وحضرموت .

حضارة اليمن :

قـــبل البدء بالتعرف على حضارة اليمن قديماً يجدر القول أن تاريخ سبأ هو عمود التاريخ اليمني القديم ، وتكوينه السياسي الكبير ، وما الممالك الأخرى التي ذكـــرت سوى كيانات سياسية كانت معاصرة لحقب سبأ انفصلت عنها أحياناً ، واندمجـــت فيها أحياناً أخرى ، مثل مملكة معين وقتبان وحضرموت ... الخ ، أو اتحدت معها لتكون مملكة واحدة كمملكة حمير ، وأقدم الشواهد التاريخية هي التي تذكر سبأ مع أطول صراع وأعنفه دار في اليمن قديماً ، وكان حول اللقب الملكي مـــلك سبأ وذي ريدان ، وعندما حسم الصراع في أواخر القرن الثالث الميلادي ، لم يســـم ملوكها أنفسهم بملوك حمير ، وإنما بملوك سبأ وذي ريدان ، وذي ريدان هـــم حمير ، وعلى الرغم من أن حمير كانت هي الغالبة على حكم اليمن ، إلا أن سبأ تصدرت ألقاب ملوكهم توكيداً لتلك الحقيقة [2].

فسبأ هي أساس الحضارة اليمنية القديمة وبداية عمرانها ، فقد اهتم أهل سبأ بـــناء المعـــابد وملحقاتها في العديد من مناطق سلطتهم ، وبناء القصور مثل قصر

---

[1] الطـــبري : المـــرجع المتقدم ١٤٨/٢ . ومرز بالفارسية : تعني الحدود . ومرزبان حاكم الثغور وحاكم الحدود . كوبيشانوف : المرجع المتقدم ص ١٩٣ حاشية .

[2] عبد الله : مرجع متقدم ص ١٩٨ ، وينظر سيف الحمادي مرجع متقدم ص ٣ .

غمدان وسليح ... والعديد من المنشآت الحربية كالقلاع والحصون [1] وأسوار المدن وغير ذلك ، وبما أن سد مأرب هو رمز رقي اليمن ، وبما أنه عاصر نشوء الحضارة اليمنية ، وشهد شمس ازدهارها فقد كان انهياره إيذاناً بأفولها ، لذا سيشغل الحديث عن السد مساحة كبيرة ، فهو في أرض سبأ ، وواحد من منشآت الري الزراعية العديدة ، وقد بني بسبب حرصهم على استغلال كل قطرة ماء تسقط على أراضيهم التي تنعدم فيها المياه الدائمة الجريان ، كالأنهار التي حظيت بها أرض بلاد الرافدين ، وبلاد النيل ، فأقاموا السدود الضخمة في عرض الأودية لحجز السيول ، ورفع مياهها لري الأراضي المرتفعة إذ فرضت عليهم بيئتهم الجافة التي لا تسقط فيها الأمطار إلا في مواسم قصيرة في فصل الصيف ، ضرورة البحث عن مصادر المياه السطحية والجوفية للاستفادة منها في المواسم الجافة [2] .

وسد مأرب أشهر آثار اليمن ، وأعظم عمل هندسي قديم في الجزيرة العربية وقد بني بالقرب من مدينة مأرب ، وبالتحديد الجنوب الغربي لهذه المدينة ، وبني بهدف التحكم في السيول الجارفة ، وتحويلها سريعاً إلى القرى ، والحقول في سهل مأرب والتي عرفت بالجنتين [3] ، وتدل الدراسات الأولية الحديثة والصور الجوية على أن المساحة التي كان يرويها السد شاسعة ، وقدرت بأكثر من / ٧٢ / كم مربع [4] ، والسد قديم قدم ازدهار حضارة سبأ . بل إن ذلك الازدهار مرتبط ولا ريب بتلك القدرة الفنية الرائعة على إقامة ذلك السد الشهير ، وآثاره الباقية تدل

---

[1] سيف الحمادي : المرجع نفسه ص ١٧٨ .

[2] سيف الحمادي : المرجع نفسه ص ٦٥ .

[3] عبد الله : المرجع المتقدم ص ٢٠٥ .

[4] عبد الله : المرجع نفسه ص ٢٠٦ .

على أن بناءه قد مرّ بمراحل عديدة ، وأنه تضخم وتجدد مع الزمن ، ويستدل من النقوش التي عثر عليها على جدرانه أن الذي بناه أولاً هو المكرب اسمه (علي ينوف بن ذمار) وابنه (يثع أمربين) نحو القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد ، ولهذا لا بد أن يكون السد قد أقيم لأول مرة منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة ، وأن تجارب بنائه الأولى قد تقدمت على ذلك بقرون .

وقد تهدم السد على مراحل بعد أن صارع عوادي الزمن والطبيعة وإهمال الإنسان طيلة المدة التي كان قائماً فيها ، ولا ريب أنه تأثر بتلك التحولات السياسية والاقتصادية التي شهدتها اليمن قديماً ، حيث تعرض للإهمال والكوارث الطبيعية مراراً ، وتصدع نتيجة ذلك مراراً أيضاً [١] ، وقد أعيد بناؤه في عهد الملك شرحبيل بن يعفر ، وفي عهد أبرهة الأشرم بعد الغزو الحبشي لليمن ٥٢٥ م وأيضاً في عام ٥٧١ م [٢] وصرفت على ترميمه أموال طائلة أشير إليها في نقش أبرهة ، وقد ذكر هذا السد في القرآن الكريم ، كما ذكر في كتب التاريخ التي عنيت بالآثار ، وهناك قصص مثيرة حول انهيار السد ، وبمناسبة الحديث عن السد يجدر القول أن الرواة اهتموا بكل المنشآت العمرانية .

والسؤال الذي يتبادر للذهن هنا ، ما هو الخط الذي كتبت به النقوش اليمنية والتي أخبرتنا عن تاريخ الدول في اليمن قبل الإسلام ؟ .

نقشت تلك الكتابات بخط المسند ، وهو خط كان يتألف من ٢٩ حرفاً ، أي بزيادة حرف على الأبجدية العربية الشمالية ، وينتمي في مجمله إلى الخط الفينيقي على أصح الأقوال ، ويشبه الخط الأثيوبي الحديث الذي تفرع في الأصل

---

[١] عبد الله : المرجع نفسه ص ٢٠٧ .

[٢] مجلة اليمنية ص ٢٦ .

عـن خـط المسند [1]، وما يميزه من غيره أن النقوش السبئية تختلف عن غيرها في لهجة خاصة اصطلح على تسميتها بلهجة الهاء ، وبها كتبت معظم النقوش اليمنية القديمـة التي كشف عنها في العديد من مناطق اليمن ، ولا سيما في الموطن الأول للسبئيين (مأرب) وصرواح والامتداد السلطوي السبئي في بقية اليمن سادت في كتاباتها اللهجة السبئية ، واستمر تدوين الكتابات الرسمية للدولة بتلك اللهجة حتى مرحـلة مـلوكها حمير ، وامتدت إلى عصر الأحباش الذي انتهى في عام ٥٧٥ م وبعدها لم يكشف النقاب عن أي وثائق تاريخية حتى الآن [2] .

ومـن المفيد في سياق الحديث عن الخط المسند أنه من الأقلام العتيقة ، وهو أقـدم الأقلام التي عرفت في جزيرة العرب حتى الآن ، وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة أن استعماله لم يكن قاصراً على اليمن بل كان القلم المستعمل في كل أنحاء بـلاد العـرب [3] وذكر أن بعض الدول والجماعات العربية الشمالية قد كتبت بالخط المسند ، ونتيجة لظروف واتصالات كان من أهمها ما قامت به مملكة ددان أو لحيـان ، الـتي كانت حاضرتها في واحة العلا الحالية ، وكانت حروفها أقرب الحـروف الشـمالية شبهاً بحروف المسند مع تعديلات طفيفة فيها ، ثم جماعات الـثموديين الذيـن تعددت مناطقهم في شمال الحجاز ... وغيرها من مناطق شبه الجزيـرة قـد كتبوا نصوصهم القصيرة بخطين : خط تقيدوا فيه بأشكال حروف المسـند التقـليدية ، وخط آخر اشتقوا أشكال حروفه من أشكال المسند أيضاً ، ولكـنهم حوّروا فيها تحويراً ملحوظاً ، أما المنطقة الثالثة التي أخذت بكتابة المسند

---

[1] عبد الله : المرجع المتقدم ٢٠٨ ـــ سيف الحمادي ص ٦ وينظر أيضاً : حسن الشيبة (عبد الله) دراسات في تاريخ اليمن القديم ـــ صنعاء ـــ مكتبة الوعي ط١ ص ٨٢ .

[2] سيف الحمادي : مرجع متقدم ص ٢ .

[3] علي : مرجع متقدم ٢٠٢/٨ .

فهي تقع بين جبل أسيس شرقي دمشق وبين قلعة الزرقاء إلى الشمال الشرقي من عمان ، وعلى سفوح جبل حوران إلى الجنوب الشرقي من دمشق ، وسميت كتابتهم اصطلاحاً باسم الكتابة الصفوية ـ مع أن أقدم نصوصها وجدت في الحرة وليس في الصفا [1] ، وكانت لغتها مزيجاً من اللهجات العربية التي هي أقرب إلى لغتنا العربية الفصحى منها إلى اللغة اليمنية القديمة .

وهناك دليل لغوي ينبئ باشتراك اللغة الأكادية مع اللهجات المعينية والقتبانية والحضرمية باستعمال السين بدلاً من الهاء في الضمائر ، مما يعزز القول بعراقة الأصول المشتركة ، والعلاقات المميزة بين حضارة بلاد ما بين النهرين وحضارة اليمن القديم [2] .

وهكذا يمكن للباحث أن يقرر أنه في تخوم المناطق الحضارية في بلاد الشام كانت العربية الفصحى موجودة منذ قرون قبل الإسلام ، وكانت حينئذ لغة العرب البدو وأكثر الحضر ، ثم أصبحت لغة كياناتهم السياسية ، واتحاداتهم القبلية كما عرفت بعد ذلك لدى المملكة اللخمية على حدود العراق ، ومملكة الغساسنة في أطراف بلاد الشام وممالك كندة في أطراف بلاد اليمن ، وهي المراكز نفسها التي عرفت في القرن السادس الميلادي شعراء العرب في الجاهلية مثل عدي بن زيد وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، وامرئ القيس الشاعر الكندي المشهور .

إن هذا المزيج اللغوي الذي نلحظه هو في الواقع نتاج منطقي لعملية التواصل المستديمة بين حياة العرب في باديتهم وحياتهم في حاضرتهم . وقد غلب على العرب منذ القديم في باديتهم لهجات خاصة ، ولكنها متشابكة ومتناثرة تنظمها

---

[1] حسن الشيبة : مرجع متقدم ص (٨٦-٨٧) .

[2] عبد الله : مرجع متقدم ٢٨١ .

وحـــدة لغوية واحدة هي تلك اللغة العربية المحضة ، والتي تمثلت في آخر الأمر في لغة العرب قبل الإسلام ، ثم تجلت في أرقى مستوياتها في لغة القرآن الكريم [1] .

وذهب كثير من المستشرقين إلى تأكيد أثر المسند نفسه مباشرة أو بالواسطة في عدد الأقلام الأخرى ، ومنها كتابات عثر عليها في إفريقية في إحدى اللهجات الكوشـــية أو الـــنوبية ، والخط البربري القديم الذي يعود إلى أيام قياصرة رومة ، والقـــلم الـــبراهمي حيـــث نلاحظ شبهاً كبيراً بين حروف هذا القلم والمسند ، ولا يســـتبعد وجـــود تـــأثير المسند منه لأن العلاقات بين العربية الجنوبية والهند كانت قوية جداً [2] .

والجديـــر بالذكـــر أننا أُخبرنا من قبل بعض الباحثين الجزائريين الذين زاروا دمشـــق أنـــه قد عثر في منطقة تاغيت في الجنوب الغربي من البلاد على مقبرة في عام ١٩٨٤ م تعود إلى القرن الثامن ق.م ، وفيها ألواح كُتب عليها بالخط العربي (الجزم) [3] نشرت عنها آنذاك الصحف والتلفاز . ولا نعرف أكثر من ذلك حول هـــذا الموضوع ، لأن الإنسان لا يمتلك وسائل الاتصال ، ووضع الجزائر لا يُمكن مـــن التواصل الحضاري والبحثي ، وفي ذلك دلالة أخرى على عمق الصلات في أرجاء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج .

ومـــن خـــلال الـــنقوش يمكن معرفة التحولات الدينية للعقيدة لدى عرب الجنوب والتي بدأت بعبادة مجموعة من الآلهة الفلكية المتمثلة بعبادة الشمس والقمر والزهرة ، وترتيبها في اليمن القديم على الأغلب القمر والزهرة والشمس ، وذلك

---

(1) عبد الله :مرجع متقدم ص ٢٩٣ .

(2) علي : مرجع متقدم ٢١٣/٨ .

(3) العرب تسمي (الكتاب العربي) أي خطنا (الجزم) وذكروا أنه سمي جزماً لأنه جزم من المسند أي قطع منه وهو خط حمير في أيام ملكهم . الزبيدي : تاج العروس مادة جزم .

لانـــتفاع أهل شبه الجزيرة العربية بالقمر في مسرى القوافل ، وتوقيت الشهور مع شـــدة قسوة الشمس ولا سيما في البيئات الصحراوية حيث عدت الشمس بمنْزلة الأم ، والقمر بمنْزلة الأب ، والزهرة (عثتر) بمنْزلة الابن ، ثم تطورت هذه العقيدة وبـــرزت أسماء معبودات جديدة تدل على الوحدانية للإله ، وظهرت أسماء سلالة مـــن مثل رب السماء (ذي سماوي) والإله رب السماء والأرض ، تلا ذلك اسم الـــرحمن ، وأضيف إليه صفة ترحم في بعض النقوش السبئية ، ولا سيما في مرحلة ظهـــور الديانـــتين اليهودية والمسيحية في اليمن القديم ، والتي بدأ كل منها يتخذ مـــنحى خاصـــاً في الإشارة إلى عقيدته التوحيدية ، ولإضفاء المسحة الدينية على نقوشـــهم الكـــتابية ، اتخذ المسيحيون من عبادة الرحمن ومسيحه والروح القدس صيغة دينية تميز نقوشهم ، وتدل على ديانتهم المسيحية خلافاً لما كان لدى اليهود من صيغ دينية كعبارة الرحمن رب السماء والأرض ، وغير ذلك من الصيغ التي لا مجال لحصرها في هذه الدراسة [١] .

ولما كانت اليمن أرضاً زراعية فإن الركيزة الأولى في البناء الحضاري كانت الـــزراعة وما يرتبط بها من منشآت ، وكان اللبان والبخور والمرّ موارد أساسية ، وكـــان هناك إقبال كبير عليها في العالم القديم ، وحرص اليمنيون على إنتاجهما وتســـويقهما وتســـويق غيرهما من السلع اليمنية ، مستغلين موقع البلاد للعمل في الـــتجارة ، محـــتكرين أسرار حركة الرياح الموسمية في المحيط الهندي حيث كانوا بـــارعين في الملاحـــة وبناء السفن ، الأمر الذي ساعد على إثراء المنطقة ، ودفع بعجـــلة البناء إلى الأمام ، ولن نطيل الحديث عن الجانب الاقتصادي ، ويكفينا أن نعـــرف أن البحث في أسباب قيام الحضارة الجنوبية وازدهارها قبل الإسلام لا بد

---

[١] سيف الحمادي : مرجع متقدم ص ٧ .

أن يولي هذا الجانب أهمية كبيرة ، فقد كان أهل اليمن على اتصال بالهند وشرقي أفـــريقية وبلاد الشام ومصر وبلاد الرافدين ، وذلك عبر الطرق البحرية والبرية ، والــتي مـــن أهمها طريق اللبان البري ، والذي امتد من ميناء قنا على البحر العربي جـــنوباً حتى غزة في فلسطين على البحر المتوسط شمالاً ، بالإضافة إلى ما تميزت به بلادهـــم مـــن تنوع في المناخ بين الشمال والجنوب ، أدى إلى تنوع في المحاصيل الزراعية ، ومن ثم أدى إلى تنشيط التجارة الداخلية والخارجية ، ويشهد على ذلك الـــنقوش العديـــدة الـــتي تظهر تنظيم أعمال البيع والشراء والتي تشير إلى بعض المعاملات التجارية الخاصة بالمحاصيل الزراعية وبالثروة الحيوانية [1] .

---

[2] سيف الحمادي : مرجع متقدم ص (١٧٠-١٧١) .

الفصل الرابع

مملكة الأنباط

- تمهيد .
- مقدمة .
- ملوك الأنباط .
- حضارة الأنباط .



مملكـــة الأنبـــاط

ــ تمهيــد :

تعرفنا في الفصل المتقدم الممالك العربية التي قامت في جنوبي الجزيرة العربية ، وعرفنا أن التجارة هي المحور الأكبر الذي استقطبت حوله هذه الحضارات .

ولم يكـن عـرب الجـنوب وحدهم أصحاب حضارة ، بل كانت هناك حضـارات أخـرى ، أقامـتها ممالك عربية صغيرة في شمالي شبه الجزيرة العربية ووسـطها ، واسـتمدت هـذه الممالك قوتها من التجارة حيث سهل لها موقعها الجغـرافي الاتصال بأقوام غربي آسية وشرقي البحر الأبيض المتوسط ، وكان لهذه الممـالك الأثـر في السياسة المحلية لمنطقة الشرق الأوسط في القديم ، وذلك لأن بعضـها يفصل ما بين حدود الدول العظمى التي تتصارع على النفوذ في الشرق كفـارس وبيزنطة ، أو كانت تحمي حدود هذه الدول من غارات البدو ، وهذه الممالك هي :

مـملكة الأنـباط ــ مـملكة تدمر ــ مملكة الغساسنة ــ مملكة الحضر ــ مملكة المناذرة ــ وممالك كندة .

مقدمـــة :

قـــبل البدء في تعرف تاريخ هذه المملكة يجب أن ننوه إلى أنه لم يظهر لدى الأنـــباط من يكتب تاريخهم ، وما عرف من أخبارهم إنما استمد أكثره من خلال علاقاتهم بجيرانهم .

وحـــتى الآن لا نمـــلك معلومات نهائية عن موطنهم الأصلي ، والزمن الذي هاجـــروا فيه من ذلك الموطن ، المهم أنهم سكنوا الجنوب الشرقي من البحر الميت في مـــنطقة وادي موســـى التي تقع شرقي الأردن ، هذه المنطقة التي كانت محطة للقوافل التجارية ، والتي عرفت باسم العربية الصخرية عند اليونان والرومان .

وكـــل ما نعرفه أنهم قوم من العرب كانوا يسكنون بادية الشام الجنوبية في القـــرن السادس قبل الميلاد ، ثم رحلوا في هجرة جماعية نحو الغرب ونزلوا أرض الأدوميين [١] واغتصبوها منهم [٢] ، وعموماً لا يعرف في الزمن الحاضر شيء عن مبدأ تاريخ الأنباط بشكل مؤكد .

وقد ذهب فريق من الباحثين إلى أنهم قبيلة عربية كانت تحتل الجزء الشمالي الغربي من جزيرة العرب حيث تمر القوافل التجارية المحملة بالبخور والتوابل القادمة

---

[١] الأدوميـــون شعب من نسل عيسو الابن البكر لإسحق كان يسكن بلاد أدوم الواقعة جنوب بلاد شرق الأردن الحالية ، والتي كانت تضم سلسلة المدن الممتدة شرق وادي عربة ، وكانت بلاد أدوم تسمى في عهـــد الحوريين الذين سبقوهم في سكناهم " سعير " وقد انتقل جدهم عيسو بأهله وجماعته من أرض الكـــنعانيين ليعيش بأرض سعير ، ولما قويت شوكة أحفاده الذين عرفوا باسم الأدوميين طردوا الحوريين مـــن ســـعير ، واحتلوا أرضهم . وكانت عاصمتهم بصرى . الخازن : (نسيب وهبة) من الساميين إلى العرب ، دار مكتبة الحياة ،بيروت ، ص (٦٥-٧٣) .

[٢] علي : المرجع المتقدم ١٥/٣ . يحيى : المرجع المتقدم ص ٣٤٥ .

مـــن حضرموت في الجنوب [1] ، وقد استغلوا موقع بلادهم على شرايين التجارة بـــين العـــربية الجنوبية وبلاد الشام ، وبين الخليج العربي والعراق والبحر المتوسط ومصر ، فعملوا بذكاء للاستفادة من هذه الطرق ، واستغلالها لمصلحتهم ومصلحة مملكـــتهم ، ففرضوا ضرائب على التجارة العابرة ضماناً لسلامتها ، كما اشتغلوا هـــم أنفسهم بالوساطة في نقل البضائع والسلع التجارية بين بلاد الشام ومصر ، ومواضـــع من جزيرة العرب ، فدرت هذه الوساطة عليهم أموالاً طائلة ، جعلتهم مـــن الشـــعوب العربية الغنية بالنسبة إلى غيرهم ممن يسكنون البوادي ، والمواقع المقفرة المنعزلة [2] .

وقـــد شمـــلت مملكة الأنباط في أوج اتساعها منطقة واسعة ضمت دمشق ، وســـهل الـــبقاع ، والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين ، وحوران ، وأدوم ، ومديـــن ، إلى ددن أو ددان وسواحل البحر الأحمر ، وثبت أيضاً أن جماعة منهم سكنت الأقسام الشرقية من دلتا النيل ، وقد تركت لنا عدداً من الكتابات [3] .

وورد أول ذكـــر للأنـــباط في الـــتاريخ في قائمة آشورية تعدد أعداء آشور بانيبال الذي حكم آشور سنة ٦٤٧ ق.م [4] . ولكن البتراء في هذه الفترة كانت ما تزال بيد الأدوميين [5] ، وليس من السهل أن نحدد التاريخ الذي بدأ فيه الأنباط

---

[1] هـــاردنج : (لانكســـتر) آثـــار الأردن . تعريب سليمان موسى . عمان ، منشورات وزارة الثقافة ط٣ ص (١٤٣-١٤٧) .

[2] علي : المرجع المتقدم ١٥/٣ .

[3] عـــلي : المرجع نفسه ١٥/٣ ، حتي : (فيليب) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور جورج حداد والدكتور عبد الكريم رافق ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٨ ، ج١ ص ٤٢٢ .

[4] عثمان : (عبد العزيز) . تاريخ الشرق الأدنى القديم ـــ دار الفكر الحديث لبنان ١٩٦٦ م ص ٣٤٨ .

[5] هـــاردنج : المرجع المتقدم ص ٤٧ . وينظر بيك : (فريدريك ج) تاريخ شرق الأردن وقبائله ، ترجمة بهاء الديـــن طوقـــان ـــ الـــدار العـــربية للنشر والتوزيع ١٩٣٤ م ص (٢٩-٣١) ، عاقل : المرجع المتقدم ص ١٠٣ ، زيدان (جرجي) . العرب قبل الإسلام ، دار مكتبة الحياة ـــ بيروت لبنان ص (٩٥-٩٦) .

سكناهم في البتراء ، ويستدل مما ذكره الكاتب الكلاسيكي ديودورس الصقلي أنهم كانوا يعيشون في هذه المنطقة منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد [1] . وقد أخذ أخباره من مؤرخ قبله يعود خبره إلى ٣١٢ ق.م .

بناء على المعطيات الدولية ، يمكننا أن نرجع بدايات ظهورهم على مسرح السياسة إلى قيام الإمبراطورية الآشورية واحتلالها لسورية الحالية وفلسطين وتوحيدها لبلدان الهلال الخصيب تحت رايتها ، وانتشار الأمن ، الأمر الذي ساعد على ازدهار التجارة ، فانتعش الطريق التجاري الذي كان يمر بالعراق ، ومن ثم ضعفت التجارة التي تمر من غربي الجزيرة ، فأدرك اليمانيون ، وعرب الشمال أيضاً أن مصالحهم التجارية قد باتت في أيدي الآشوريين ، لذلك كانوا يتوددون إليهم ، ويعملون تحت لوائهم حيناً ويثورون عليهم أحياناً أخرى ، ومع أن الإمبراطورية الآشورية لم تمد نفوذها إلى جنوبي الجزيرة ولا إلى شمالها ، ومن ثم ليس من دليل على أنه أخضعت منطقة وادي موسى لحكمها ، فإن سكان المنطقة تأثروا بازدهار تجارة العراق ، وتحول الطريق عن شمالي الجزيرة ، وظلوا قابعين ينتظرون ظرفاً دولياً أكثر ملائمة [2] .

وجاء الإسكندر المكدوني بحملته على هذه البلاد وتوغل الجيش في بلادهم ولكنه عجز عن إخضاعهم ، وعقب وفاته تفككت إمبراطوريته فحصل سلوقس أحد قواده على سورية ، وبلاد الرافدين ، وحصل قائد آخر اسمه بطليموس على مصر ، وكان التنافس شديداً بين بطليموس وسلوقس ، وأراد سلوقس أن يقطع التجارة عن منافسه في مصر ، لذلك أراد احتلال بلاد الأنباط التي تسيطر على

---

[1] هاردنج : المرجع المتقدم ص ١٤٧ ـ عاقل : المرجع المتقدم ص ١٠٣ . باشميل : (محمد أحمد) . العرب في الشام قبل الإسلام ـ دار الفكر ١٩٨٧م ط٢ ص (٣٢-٣٣) . نقلاً عن ديودورس .

[2] عاقل : المرجع المتقدم ص ١٠٣ .

طرق التجارة البرية ولكن الفشل كان حليفه ، أتبعها بمحاولة أخرى انتهت بعقد الصلح ، وبعدها أدرك السلوقيون عجزهم عن الاستيلاء على تلك البلاد بسبب صمود الأنباط ، واستبسالهم في الدفاع عن أرضهم [١] .

وقد عزم البطالمة من جانبهم على فرض سيطرتهم عليهم ، وبعد أن أدركوا صعوبة ذلك ، عزموا على أن يتركوا لهم استقلالهم ، وأن يجعلوهم تحت نفوذهم ، لذلك استولوا على المدن الفينيقية وفلسطين التي كانت تنتهي إليها قوافل الأنباط ، وأرسلوا حملة احتلت أراضي اللحيانيين شمال الحجاز ، وأنشؤوا عند أطراف بلاد الأنباط مستوطنات إغريقية ، وبذلك هيمنوا على منافذ الطرق التجارية [٢] .

وقد رد الأنباط على هذه الأعمال بأن قاموا بمهاجمة السفن التي تسير في البحر الأحمر بقصد عرقلة نشاطها التجاري انتقاماً من البطالمة . وكان من نتائج سياسة البطالمة الرامية إلى السيطرة على البحر الأحمر واحتكار التجارة البحرية مشاطرة تجار العرب أرباحهم التي كانوا يجنونها من الاتجار مع مصر والشام [٣] .

وفي القرن الثاني قبل الميلاد ضعف البطالمة ، وتمكن السلوقيون من استرجاع سورية ، وحاولوا جذب الأنباط إليهم ، فتحسنت علاقتهم معهم ، وعندها عاود الأنباط نشاطهم التجاري مع سورية وزار تجارهم بعض الموانئ كصور وقاموا بعقد الصفقات [٤] .

لم تدم الأمور على هذا الوضع ، إذ تغير وضع المنطقة سياسياً حيث قامت في فارس الأمبراطورية البارثية وأعقبها فترة ضعف مر بها السلوقيون ، فحاولت

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٣/١٨-١٩ . هاردنج : المرجع المتقدم ص٤٧ وما بعد .

[٢] عاقل : المرجع المتقدم ص ١٠٤ .

[٣] علي : المرجع المتقدم ٣/٢١-٢٢ .

[٤] عاقل : المرجع المتقدم ص ١٠٥ . برو : (توفيق) تاريخ العرب القديم . دار الفكر ١٩٨٤ م ط١ ص ١٠٢

بعض المناطق أن تخلق لنفسها شخصية مستقلة ، وسادت الفوضى ، واضطرب الأمن بالمشرق العربي وبالتالي ضعفت التجارة المارة بالعراق ، الأمر الذي أدى إلى انتعاش الطرق التجارية المارة في غربي الجزيرة العربية واستعاد الأنباط نشاطهم التجاري وازدهرت البتراء بنتيجة ذلك [1] .

ومما لا ريب فيه أن النزاع بين السلوقيين في سورية ، والبطالمة في مصر ، قد استثمره الأنباط لتقوية مركزهم ، والأغلب أنهم صاروا دولة عظيمة إبان هذه الفترة .

ملوك الأنباط :

تمكن الباحثون من ضبط أسماء جملة ملوك حكموا النبط ، ومع ذلك لا نعرف اليوم من هو أول من أسس مملكة النبط ، ولا الزمن الذي أسست فيه تلك المملكة ولا الأسر التي أنجبت أولئك الملوك ، وكل ما نستطيع قوله هو أن استقلال النبط كان قبل الميلاد وإننا نعرف أسماء بضعة ملوك حكموا قبل الميلاد بصورة أكيدة لا مجال فيها لأي شك ، كما نعرف أسماء ملوك كان حكمهم بعد الميلاد .

ويكثر اسم الحارث بين أسماء الملوك ، حتى لقد ذهب الباحثون إلى الظن بأن هذا الاسم هو لقب ، أما الاسم الذي يليه في المرتبة فهو عبادة ثم مالك ، ورب إيل ، وذهب باحثون آخرون إلى أن لفظة الحارث هي اسم الأسرة الحاكمة التي حكمت النبط ، وأنها من أصل آرامي هو حرثت [2] .

١- الحارث الأول (١٦٩-١٤٦ ق.م) :

أول ملك نبطي ذكرته المصادر ، ولكنه ليس من الضروري أن يكون أول

---

[1] هبو : المرجع المتقدم ص ١٤٣ .

[2] علي : المرجع المقدم ٢٢/٣ .

ملك نبطي ، وكان ذلك في ١٦٩ ق.م تقريباً ، حين حدث بين اليهود نزاع حول من يتولى الكهانة العليا [١] ، فلجأ أحدهم إلى الحارث ، ولعله جاسون كبير كهنة اليهود في بيت المقدس بعد أن طرد من بلاده ، ولكن الحارث ما لبث أن طرده من بلاطه [٢] .

ويبدو من طرد الحارث لجاسون أنه كان على علاقة حسنة مع المكابيين ، فهو لا يريد أن تسوء هذه العلاقة بسبب إيواء شخص مطرود لسبب أو لآخر ، ومن ناحية أخرى كان الأنباط إذ ذاك قويي الشكيمة ، شديدي البأس ، وقوتهم لا تقهر ، ولذلك لن يسمح الحارث بتدمير هذه القوة بقيامه بمثل هذا العمل .

٢- الحارث الثاني (١١٠-٩٦ ق.م) :

تطول المدة بعد الحارث الأول حتى نسمع عن ملك نبطي آخر ، وهو الحارث الثاني ، حيث وصلت المملكة في عهده إلى درجة كبيرة من القوة ، جعلت اسكندر جينوس ملك المكابيين يلجأ إليه طلباً للنجدة ضد خصومه ، ولكن سرعان ما ظهر طمعه في الأرض النبطية نفسها ، وتطلعه إلى نشر اليهودية بين أفرادها [٣] ، وتبين أن تقربه ليس لطلب النصرة على خصومه فقط ، بل بقصد الانسراب إلى الأرض النبطية نفسها ، والاستيلاء عليها حين تكون الفرصة مواتية ، فانقلب ضده ، وساعد مدينة غزة ــ التي كانت إحدى الموانئ التي تنقل إليها المتاجر النبطية ــ في أثناء حصاره لها [٤] . وعندما استغاث أهلها به أنجدهم ، ثم تلكأ في مد يد العون لهم لسبب أو لآخر ، فاستولى المكابيون عليها ،

---

[١] التوراة : سفر المكابيين اصحاح ٥ الآية (٧-٩) .

[٢] هاردنج : المرجع المتقدم ص ١٥٢ . عاقل : المرجع المتقدم ص ١٠٥ .

[٣] برو : المرجع المتقدم ص ١٠٣ .

[٤] عباس : (إحسان) تاريخ دولة الأنباط ــ عمان ــ دار الشروق ص ٤٠ . برو : المرجع نفسه ص ١٠٣.

ونهبوها ولكنهم لم يحتفظوا بها طويلاً بسبب حرب أهلية اشتعلت نارها في شمالي المملكة المكابية .

وفي زمـــن الحارث الثاني هذا ، صدرت نقود نبطية ، ولعله أول زعيم نبطي فعل ذلك ، إذ لم تصلنا نقود لملك قبله ، وتحمل النقود المنسوبة إليه حرف (A) ، وهـــو الحـــرف الأول من اسمه ، وقد وجدت حديثاً كمية من العملة وفيها نماذج تحمل حرف (ح) بالآرامية إشارة إلى الحارث [1] .

٣- عبادة الأول (٩٥-٨٨ ق.م) :

استمر النِّزاع واستمرت المعارك بين المكابيين والأنباط في عهد عبادة الأول لأن أطماع زعيمهم اسكندر جينوس التوسعية امتدت إلى جلعاد ومآب ، فعندما تغـــلب على عرب هاتين المنطقتين تصدى له عبادة في معركة على الضفة الشرقية مـــن نهر الأردن ، انتصر فيها عبادة وأجبر خصمه على التنازل عن بعض المناطق التي كانت تحت سيطرته كمآب وجلعاد وما فيهما من معاقل مقابل امتناع عبادة عن مساعدة خصومه [2] .

وقـــد أدى انكسار المكابيين هذا إلى تشتت شمل مملكتهم وإلى قيام الثورات العديـــدة عـــلى مـــلكهم ، فـــبدأت مملكـــتهم بالاضطراب والتردي والانقسام والصراعات الداخلية ، وقد ورد اسمه مضروباً على النقود [3] .

٤- رب ايل الأول (٨٨-٨٧ ق.م) :

اضطربت المصادر في أخباره ونسبت الأحداث المتصلة به إلى أخيه عبادة [4] .

---

[1] عباس : المرجع المتقدم ص ٤٠ .

[2] علي : المرجع المتقدم ٢٧/٣ . هاردنج : المرجع المتقدم ص ١٥٢ .

[3] علي : المرجع المتقدم ٢٦/٣-٢٧ .

[4] علي : المرجع نفسه ٢٨/٣-٢٩ . عباس : المرجع المتقدم ص ٤١ .

٥- الحارث الثالث (٨٧-٦٢ ق.م) :

قطف الحارث الثالث ثمرة الانتصار الذي حققه إخوته ، وقد بلغت المملكة في عهده أوج عزها وازدهارها ، حيث استطاع أن يستفيد من الظروف الدولية في زمنه ، ومضى قدماً في السياسة النبطية التوسعية ، وقد سنحت له الفرصة حين عرض عليه أهل دمشق أن تصبح مدينتهم تابعة له ، واستفاد من ضعف الدولة السلوقية ، فدخل في معارك مع القوى المعاصرة له ، وانتصر عليها وبسط سيطرته على المناطق المجاورة له ومنها سهل البقاع ٨٥ ق.م بعد أن هزم السلوقيين هزيمة منكرة في معركة جرت قرب حيفا سقط خلالها القائد السلوقي نفسه ، ثم التفت إلى المكابيين واشتبك معهم في موضع يُقال له (حديدة) إلى الشرق من يافا ، ثم انسحب بعد الاتفاق مع خصمه على شروط معينة ، وبدأ يتدخل حينئذ في الشؤون الداخلية للمكابيين ، فحين اختلف أبناء الزعيم اليهودي أرسطوبولس ، وهركانوس على العرش ، تدخل الحارث الثالث لصالح هركانوس لقاء تعهد الأخير بإعطائه ما بقي من منطقة شرقي الأردن خارج سلطة الأنباط إذا أوصله الحارث إلى الحكم ، فاشتبك الحارث مع أرسطو بولس وانتصر عليه وأوشك الجيش على دخول بيت المقدس لولا حدوث تطور سياسي عسكري خطير ، قلب الوضع ، وهو هجوم الرومان فجأة في أيام حكم بومبي على دمشق ، وسورية ، مما أتاح لخصمه اليهودي أن يستعين بهم ، وكان على الحارث أن يرضخ للأمر حرصاً على تجنب النِّزاع مع الرومان [١] .

وقد أدرك الحارث أن جيشه لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الرومان فآثر العودة والدفاع عن مملكته ، فسر بومبي من هذه النتيجة حتى أنه أمر بوضع صورة

---

[١] حتي : تاريخ سورية ٤٢٠/١ . يوسيفوس : تاريخ يوسيفوس ، بيروت ١٨٧٢ م ص ١١٦ وما بعد .

الحارث في موكب نصره ، وقد ضربت النقود آنذاك عليها صورة الحارث ، وقد أحنى رأسه راكعاً ، وحاملاً سعفة تعبيراً عن استسلامه له [١] .

تــوفي الحارث بعد ذلك ، وذهبت معه آماله وأحلامه ، ولعل النكسة التي وقعت له قد أثرت فيه فعجلت في منيته ، وبدأ الانهيار النبطي بعد ذلك .

٦- عبادة الثاني (٦٢-٤٧ ق.م) :

تــودد لــلرومان ، وحــالفهم لأنــه وجــد أنهم سيطروا على كل المنافذ الــتجارية وســدوا على الأنباط السبيل إليها [٢] . وقد عثر على نقد من الفضة ضرب بأمره [٣] .

٧- مالك الأول (٤٧-٣٠ ق.م) :

تــاريخ حكــم مــالك مــتداخل مع الأحداث الأخرى ، ومع المتغيرات والتحولات التي شهدها التاريخ الروماني في الحقبة المضطربة قبل قيام الإمبراطورية الأولى ، إذ كانت تلك التغيرات والتحولات تفرض التنقل من ولاء إلى آخر لدى حكــام الدول الصغيرة ، وقد كان الملك الأدومي هو المحرك لنشاط مالك في هذا الاتجــاه أو ذاك بصفته الناصح الأمين لأنه عدَّ نفسه صديقاً للأنباط كونهم قريبين مــن المــنطقة التي يحكمها ، ولقوته العسكرية وإمداداتهم المالية له ، ولأنه تزوج فتاة منهم [٤] .

وجعــلت هذه الصلة الوثيقة الملك المكابي يغري مالكاً بمعونة يوليوس قيصر ضد حاكم مصر البطلمــي بسبب ولائــه له ، وبالفعل أسهم الأنباط بفرقة من

---

(١) علي : المرجع المتقدم ٣/٣٣ .

(٢) هبو : المرجع المتقدم ١٤٤-١٤٥

(٣) علي : المرجع المتقدم ٣/٣٤ .

(٤) علي : المرجع نفسه ٣/٣٥ .

الفرسان في الحملة التي قادها الإمبراطور يوليوس قيصر على مصر سنة ٤٧ ق.م في حصاره لمدينة الإسكندرية ، وما لبث أن غير ولاءه [١] .

فلما حاول الفرس احتلال جنوبي سورية الطبيعية وطرد الرومان منها غيّر مالك موقفه ووقف إلى جانب الفرس ضد الرومان وحلفائهم حكام البلاد وكان النصر للرومان وحلفائهم [٢] .

ثم حضر أنطونيو إلى المشرق ووقع تحت تأثير كليوباترا ملكة مصر ، فقدم لها قسماً من مملكة النبط واقعاً على خليج العقبة ، ولكن مالكاً تقاعس عن دفع الجزية إلى ملكة مصر مما جعل أنطونيو يكلف ملك اليهود بحرب مالك ، وكانت المعارك سجالاً إلى أن انتصر هيرودوس ملك اليهود آخر الأمر [٣] ، ولم يعمر مالك بعد هذه الخسائر التي حلت بالأنباط ، توفي وخلفه :

٨- عبادة الثالث (٣٠-٩ ق.م) :

تصفه الروايات التاريخية بالكسل ، وتراخي الهمة ، وبأنه لم يعر الشؤون العامة أي اهتمام ، فضلاً عن الشؤون العسكرية ، ووصف وزيره صالح بالقدرة والكفاية على صغر سنه [٤] ، لذلك كان هو المتصرف في الأمر ، والمدير لشؤون المملكة ورجل الدولة الحقيقي .

وقد أسهم الأنباط في عهده في الحملة الرومانية ضد اليمن التي قادها عاملهم في مصر إيليوس غالوس ٢٤ ق.م فأرسل الملك النبطي وزيره سيلوس (صالح) ليرافق الحملة ويكون دليلاً لها [٥] . وأخفقت الحملة وألقيت تبعة ذلك على عاتق

---

[١] علي : المرجع نفسه ٣٥/٣ . حتي : تاريخ سوريا ٤٢٠/١ .

[٢] عاقل : المرجع المتقدم ص ١٠٨ .

[٣] هاردنج : المرجع المتقدم ١٥٣ . علي : المرجع المتقدم ٣٧/٣ . بيك : المرجع المتقدم ص ٤٨ .

[٤] علي : المرجع المتقدم ٣٨/٣ . عباس : المرجع المتقدم ٥١ .

[٥] زيدان : المرجع المتقدم ص (٩٩-١٠٠) . نيلسن : المرجع المتقدم ص ٣٠٠ وما بعد .

صالح واتهم بالخيانة والمكر والتغرير بالجيش لأنه قاده في طرق وعرة ليس فيها ماء فـأهلك الجيـش ، ولذلـك لم يعز الرومان إخفاقهم إلى ضعفهم وعجزهم عن السيطرة على الشبكة التجارية بين القارات [١] .

٩- الحارث الرابع (٩ ق.م – ٤٠م) :

كـان عهـده أزهى عصر شهدته المملكة النبطية ، حيث تميز بنشاط عربي واسع ، وقد خلف هذا الملك آثاراً فنية رائعة لا يزال بعضها في مدينة البتراء ، وفي مدائن صالح في الحجاز (قبور الحجر) شاهداً على ذلك ، وهي تتحدث عن أمور مختلفة [٢] ، دينية وشخصية ، وقد ذكر فيها أسماء الأفراد والآلهة التي تؤكد عروبة الأنباط وانتماءهم الواضح . وتكاد القبور المحوبة في الصخر تضاهي الآثار المنحوتة في الصخور في البتراء نفسها ، وقد اتخذ عدد كبير منها مدافن لقادة عسكريين من ذوي الرتب المختلفة ، مما يوحي بأن مدائن صالح جعلت قاعدة عسكرية .

كـان الأنـباط أيام الحارث الرابع خاضعين لرومة ، لكن ذلك تعارض مع سيادة الحارث الرابع ومن بعده من الملوك ، حتى قام تراجان بضم الدولة نهائياً إلى رومة عام ١٠٦ م [٣] .

وربمـا دامـت تلك التبعية مدة قصيرة ، ثم نالوا استقلالهم الذاتي ، وهذا ما يفسر انكفاء هم إلى الجنوب ، فقد كانت هناك محاولة لإنعاش الوضع التجاري ، وتعويض الخسائر ، حيث كان الحارث يحاول تقوية هذه المنطقة لتصل تجارته من خلالها إلى بصرى من دون المرور بالمنطقة الواقعة شرقي الأردن التي قد تفكر رومة

---

(١) imngham, (J.S.) Christianity Among the Arabsin pre-Islamic Times, London and Newyork. P.28.
Strabo, Ibid, XVI, 113.

(٢) علي : المرجع المتقدم ٣/٤١-٤٢ . هبو : المرجع المتقدم ص ١٤٦ .

(٣) عباس : المرجع المتقدم ص ٥٩ . قارن نيلسن : المرجع المتقدم ص ١٢٠ .

ذات يوم في ضمها إلى الولاية السورية .

وزاد هـــذا الـــتخوف من المنافسة الخارجية على النشاط التجاري الاهتمام بالـــزراعة في هذه الآونة ، وبما أن الري هو العامل الفعال الضروري ، لذلك عمل على حفظ مياه المطر وجرها إلى الأراضي الصالحة للزراعة . وسعى الحارث بكل جهده إلى أن يوفر لشعبه استقراراً زراعياً يؤمن له وسائل العيش إذا جفت ضروع الـــتجارة ذات يوم دون أن يتخلى عن إيجاد طريق تجارية بديلة لا يستطيع التمرس بهـــا ســـوى الأنباط أنفسهم ، كما قوى وسائل الدفاع الداخلي ، ومنح المراكز الكبرى من بلاده نهضة عمرانية .

" فـــنالت بترا نصيباً كبيراً من العمران في عهد الحارث ، حيث أنشئ أكبر معلمين من معالم تلك المدينة ، وهما الطيطر المجبوب في الصخر .. والمعبد القائم في مركز المدينة ويعرف اليوم باسم قصر البنت [1] .

أدرك الحـــارث أنه ينتقل بعمله هذا بالمملكة إلى مشارف حضارة جديدة ، لذلك كان يخلد أيام حكمه بتوالي الإصدارات النقدية ، حتى إنه لا تكاد سنة من سنوات حكمه المديد تمضي دون صدور نقد جديد ، وقد كتب على معظم النقود التي أصدرها " حارثة ملك النبط ، محب أمته " [2] .

وقد كان الحارث الرابع من المتأثرين بمعطيات الحضارة العربية المهيمنة آنذاك ، وقد ظهر هذا الأثر في المباني العامة التي أقيمت في أيامه ، وفي الكتابات اليونانية في عهـــده ولا يستبعد أن يكون قد أتقن ما دعي اللغة اليونانية ، وأخذ يتكلم بها مع اللسان الآرامي والنبطي [3] .

---

[1] عباس : المرجع نفسه ص ٦١ .

[2] عباس : المرجع نفسه ص ٦١ .

[3] علي : المرجع المتقدم ٤٥/٣ .

تـــدل كـــل المؤشرات على أن الأنباط عاشوا في ظل حكم الحارث المديد باســـتقرار واطمئـــنان ، وقطفوا ثمار حياة سليمة وادعة ، وضربوا في الثراء بسهم وافـــر ، ودخـــلت علاقـــتهم برومة مرحلة عدم تضارب المصالح ، وبذلك أمنوا اســـتفزازات جيرانهـــم من اليهود ، وذلك حين تزوج عامل الرومان اليهودي في فلســـطين المدعو هيرود أنتيباس من ابنة الحارث ، لكن هذا الزواج لم يدم ، وجر المشـــكلات الأســـرية على الدولة النبطية ، فوقف الرومان إلى جانب الهيروديين وزحفوا إلى البتراء لاحتلالها ، وفي أثناء ذلك مات الأمبراطور الروماني (تيبريوس) فتوقفت المعارك ، وارتد الجيش عن البتراء [١] .

ويســـتدل مـــن رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثس أن دمشق كانت تتبع مـــلك الأنباط ، وقد كان بولس في دمشق نحو سنة أربعين [٢] ، وهو آخر عام في حكـــم الحـــارث ، فكيف عادت دمشق إلى حكم الأنباط بعد أن استولى عليها الرومان ؟ . من الصعب أن نجد تعليلاً مناسباً لذلك .

١٠- مالك الثاني (٤٠ م ــ ٧١ م) :

الأخـــبار الـــتي تتحدث عن عهده قليلة ، كل ما ذكر عنه أن كان معاصراً للأمبراطور الروماني كلوديوس (٤١-٥٤ م) ، وفي أيامه كانت حملة تيطس ععلى اليهود ، وتخريب الهيكل ، فاشترك بفرقة من الأنباط في الحملة .

وقد انتزعت دمشق من حكمه في زمن لا نعرفه ، إلا أن الأراضي في شرقيها وجنوبي شرقها بقيت جزءاً من مملكة النبط [٣] .

وأصبحت مملكة الأنباط بعد ذلك ولاية رومانية بعد أن بدأ الرومان يضمون

---

[١] علي : المرجع نفسه ٣/٤٣-٤٤ . هبو : المرجع المتقدم ١٤٦ .

[٢] هاردنج : المرجع المتقدم ١٢٤ .

[٣] علي : المرجع المتقدم ٣/٤٧ .

الدويـــلات الصـــغيرة في سورية وفلسطين إلى إمبراطوريتهم المركزية ، ليوحدوا جهودهم أمام العدو الفارسي الخطير [1] .

١١- رب ايل الثاني (٤١-١٠٦ م) :

آخـــر ملوك الأنباط ، كان صغيراً حين تولى العرش ، لهذا عينت أمه وصية عـــليه ، استمرت حتى عام ٧٥ م ، وقد ذكرت مع ابنها كتابة على إحدى القطع النقدية وصايتها عليه حين انتقل العرش إليه ، ولما تزوج رب ايل من زوجه جميلة أمر بضرب اسمها مع اسمه على النقود [2] .

حقـــبة حكمه قليلة الأحداث ، بعد موته تحرك نائب الأمبراطور الروماني في سورية تراجان إلى البتراء ، وقطع الطريق على الأنباط الذين كانوا يعتزمون تعيين خلف الملك ، وألحقها بالولاية العربية الرومانية ، وأطلق عليها اسم الكورة العربية وقـــد نقل مقر الحكم من بترا إلى بصرى ، فتضاءل بذلك شأن العاصمة القديمة ، فلما كان القرن الثالث للميلاد صارت البتراء مجرد موضع قليل الشأن [3] .

لقـــد قضـــى الرومان على استقلال النبط في العربية الحجرية ، فهاجروا إلى مواطـــن أخـــرى طلـــباً للرزق ، وامتزجوا بأهل البلاد الأصليين من السريان ، وانتشـــروا عـــلى حدود سورية الحالية وجنوبها فلسطين مما يلي البادية بين سيناء والفرات ، ولم تقم لهم قائمة منذ ذلك الحين . وبهذا يمكن تسمية الأنباط بالعرب الذائبة لأنهم لم يفنوا ، ولكنهم ذابوا بامتزاجهم بمختلف الشعوب حيث لم يعد لهم كيان مستقل [4] .

---

[1] هبو : المرجع المتقدم ص ١٤٦ .

[2] علي : المرجع المتقدم ٤٨/٣ .

[3] علي : المرجع نفسه ٤٩/٣ .

[4] باشميل : المرجع المتقدم ص ٣٥ .

حضـــارة الأنبـــاط :

بـــلغت ممـــلكة الأنباط أقصى اتساعها الجغرافي أيام الحارث الرابع ، وكان هذا الاتساع في معظمه سياسي وتجاري ، إلا أن الاتساع التجاري قد تجاوز هذه الرقعة كثيراً .

وقد توافر في حاضرتهم الماء والخصب والموقع ، مما جعلهم على احتكاك مع بقيـــة الأقوام بحيث صيّر حضارتهم مزيجاً من عدة معطيات حضارية عربية قديمة ، فقـــد كانت عربية اللغة ، آرامية الكتابة لشيوع الآرامية في تلك الآونة ، وكانت قـــد تغلـــبت على أكثر لغات الشرق الأدنى ، وصارت لغة الكتابة والتدوين قبل الميـــلاد ، وبعـــده بقرون [1] إلا أنهم عملوا على تطوير الحروف الآرامية فاستقلوا بـــنمط خـــاص عـــرفت به كتابتهم ، ومن ثم أصبح أساساً للخط العربي المتطور المعروف بالخط النسخي [2] .

وممـــا لا شـــك فيه أن لغة الأنباط لهجة عربية شمالية ، فكثير من الكلمات الـــواردة في الـــنقوش النبطية المكتشفة عربية خالصة مثل قبر ، بل إننا نلاحظ في بعض النقوش أن عبارات بأكملها تكاد تكون عربية [3] .

وقـــد تأثروا بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً ، وظهر هذا الأثر في نقودهم ، إذ قلدوا في ضربها النقود اليونانية ، بل كتبوها باليونانية غالباً [4] .

وأمـــا ديانـــتهم فهي من النوع الوثني المنتشر آنذاك في الجزيرة العربية ، لا

---

(1) علي : المرجع المتقدم ١٠/٣ .

(2) زيـــدان : المرجع المتقدم ص ١٠٦ وما بعد . عبد الحميد : المرجع المتقدم ص ٣٧ . دلو : المرجع المتقدم ج١ ص ٢٠٤ وما بعد .

(3) A. Cooke, atext book of Northsemitic inseriptions, Oxford 1903. p. 214 .

(4) علي : المرجع المتقدم ٥٢/٣ .

تختلف عما ألفه أشقاؤهم العرب من معتقدات ، فإله الشمس عندهم ذو شرى ، وإله القمر كان يسمى اللات ، ويرمز إلى الخصب ، كما كانوا يعرفون الآلهة مناة والعزى ، وهبل ، ويقيمون لها الطقوس الدينية الرسمية ، ولا سيما الإله ذو شرى الـــذي كانوا يحجون إلى معبده ، ويقدمون له الذبائح ، وربما كان اسمه مشتقاً من اسم الجبال الواقعة قرب البتراء ، والمسماة جبال الشراة التي احتفظت باسمها حتى هـــذا اليـــوم [1]. ولعلـــه أطلق اسم الشراة على هذا الجبل لقرب هذا الوثن من الموضع المذكور .

ولعـــل انـــتقالهم مـــن حيـــاة بدوية ، أو شبه بدوية إلى حياة مستقرة كان العـــامل الأول في تطـــور الديـــن على مستوى المعبود ، والشعائر والمعتقدات ، والمؤسسات الدينية .

والعـــامل الـــثاني في تطور الدين لديهم هو اتصالهم بحضارات أخرى غربية وشرقية ، منها الحضارة البارثية والهلنستية والرومانية والمصرية وغيرها ، مما أثر في فنهم وعمرانهم أيضاً .

وقـــد اشـــتغل قوم منهم بالزراعة ، لذلك حفروا الآبار ، وجمعوا مياه المطر في صهاريج حفروها في الصخور ، ووصلوا بعضها ببعض بأقنية نقبت في الصخر وقـــد وجهـــوا إليهـــا مياه الأودية والسيول واستعملوها في المدينة ، وفي الحقول للشـــرب وللزراعة ، وتعد هذه الصهاريج الآن من الآثار المهمة في البتراء ، وهي مـــربعة الشـــكل لها فوهات ضيقة حتى إذا امتلأت الصهاريج أحكموا سد هذه الفوهـــات واســـتخدموا كل ما وهبوه من مهارة ليخفوها عن الأنظار ، وجعلوا عـــليها علامات لا يعرفها سواهم ، لترشدهم إليها عند الإيجاب ، بينما يستحيل

---

[1] هاردنج : المرجع المتقدم ص ١٤٧ .

علـــى الأعـــداء ـــ فيما إذا هاجموهم ـــ أن يعثروا عليها فيموتوا عطشاً في هذه المنطقة الجافة المحرومة من المياه الطبيعية [1] .

أمـــا صناعاتهم فإنها اقتصرت على صنع الأواني الخزفية التي تعد أحسن نوع أنتجه الشرق [2] .

غـــير أن عصب البقاء والاستمرار البشري النبطي إنما كان التجارة ، إذ لم يكونـــوا في توســـعهم يندفعون بحوافز المجد السياسي أو الاعتزاز بالقوة ، أو حب السيطرة من أجل السيطرة نفسها ، بل كان همهم الأكبر هو الاستيلاء على طرق القوافل المهمة التي تؤمن لهم نقل المتاجر بأمان ، وقد ظلوا يمارسون التجارة وقيادة القوافل حتى بعد فتح الرومان لبلادهم [3] .

وقد كان النشاط التجاري حسبما هو معتقد سبباً في بروز مظاهر كثيرة من الحياة النبطية كتربية الجمال ، وبناء السفن ، والتدريب على شؤون البحر ، وتهيئة كـــل مـــا تتطلبه الموانئ من معدات ، وتهيئة أماكن للتفريغ والتخزين ، فدفع هذا النشاط التجاري في طريقه حيوية صناعية وزراعية ورعوية وتعدينية [4] .

وفـــيما يتعـــلق بتنظـــيم الدولة عند الأنباط فإن الملك هو رئيس الدولة ، والـــرجل الأول في الحكومـــة ، وهو الذي يختار من يوكل إليهم إدارة الأعمال ، وتســـيير أمـــور الرعية ، وللملك حاشية القربة عنده ، أُوكل إليها مهمة النظر في المســـائل العـــليا للدولة ، وتقديم الاستشارة إلى الملك ، ويُقال للواحد منهم أخو المـــلك ، ويظن أنها كانت طبقة خاصة من الطبقات الأرستقراطية انحصرت فيها

---

(1) علي : المرجع المتقدم ٣/١٦-١٧ . برو : المرجع المتقدم ص ١٠٧ . هبو : المرجع المتقدم ص ١٤٩ .

(2) برو : المرجع المتقدم ص ١٠٧ .

(3) علي : المرجع المتقدم ٣/٤٩ .

(4) علي : المرجع نفسه ٣/٥٢ .

هذه الوظائف انحصار الملكية في الأسر المالكة [1]. فزوجة الملك أخت له وصورتها تظهر مع صورته على النقود ، حتى خُيّل لبعضهم أن بعض ملوك الأنباط تزوجوا شقيقاتهم [2] .

ولقد كان وزير الملك أخاً له ، حيث يشاركه بهذه الرابطة المسؤولية أو جانباً منها في الحكم ، فالأخوة ليست برابطة الدم ، بل بالوفاق والمشاركة .

وهناك عدد من الوظائف المدنية ، فالبلاد كانت مقسمة إلى ولايات ، ولكل ولاية حاكم، وهناك وظيفة الكاهن ، والقاضي والمحامي ، وهو ما لا بد من وجوده ، وتنظيمه لدى شعب بلغ درجة عالية من الرقي في الشؤون التجارية والمالية .

أما الوظائف العسكرية فكانت نتيجة اقتدائهم بالنظام الهليني والروماني .

وقد كانت الرابطة بين الملك ورعاياه قوية ، وكانت للمرأة النبطية منْزلة مرموقة في المجتمع ، وتُعامل باحترام ، وكانت مصونة الحقوق [3] .

ومما يلفت النظر ندرة استخدام العبيد ، ويفسر ذلك ــ كما تقدم ذكره ــ أن حاشية الملك من أسرته وأقربائه ، يخدم أحدهم الآخر ، أو يقوم الفرد منهم بشؤون نفسه ، وهذه العادة شملت الملوك أنفسهم [4] .

أما عمران الأنباط فإنه من النوع الفريد المدهش ، ذلك أن معظم ما يشاهد فيها الآن من أبنية جميلة إنما هو منحوت في الصخر ، وتشكل آثارها تراثاً فنياً رائعاً يجذب إليها السياح ، ويتبع العمران النبطي أساليب فنية وزخرفية نافرة

---

[1] علي : المرجع نفسه ٥١/٣ .

[2] عاقل : المرجع المتقدم ١١٠ .

[3] عباس : المرجع المتقدم ١١٧ .

[4] هاردنج : المرجع المتقدم (١٢٠-١٢١) . برو : المرجع المتقدم ١٠٥ .

مـــتأثرة بالفن الهلنستي العربي القديم ، الذي كان سائداً في سورية ومصر في أثناء حكم السلوقيين والبطالمة ، وقد اشتمل على معابد ، وقبور ، وعمائر .

وبالإضـــافة إلى هذه السمات اتصفت عمائر البتراء بالسمات الفنية العربية والمصـــرية والآشـــورية واليونانية والرومانية ، مما يدل على أنها خضعت لمزيج من الـــتأثيرات الفنية المتنوعة . وقد اتخذوا البتراء عاصمة لهم ، ومعنى بتراء في العربية الصـــخر ، والشـــق في الصخر ، أما اسمها القديم فهو سلع ويعني الصخر في لغة الأدوميين ، وكانت عاصمة أدوم من أشهر المدن في العالم القديم [١] .

تقع آثار المدينة وبقاياها اليوم في وادي موسى ، ويُسمى أيضا وادي السيق وقرب نهايته هيكل منحوت في الصخر يُسمى الخزنة [٢] ، وداخل باب الهيكل دار وعـــلى بعد ٦٠٠ قدم تقريباً من هذا الهيكل بقايا آثار مسرح عظيم منحوت في الصخر يتسع لزهاء أربعة آلاف إنسان [٣] .

والحجـــر مديـــنة من مدن النبط القديمة المهمة ، تقع على شريان التجارة في العـــالم القديم ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها مدائن صالح ، وذهب قسم آخر إلى أن مدائن صالح هي العلا لا الحجر ، وفرّق قسم ثالث بين موضع مدائن صالح والعـــلا ، ويعد الموضع المعروف بديوان من الآثار القيمة الباقية من الحجر ، وهو معبد يذكرنا بمعابد البتراء [٤] .

وهـــناك آثـــار أخـــرى في موقع البتراء ما تزال قائمة وكلها تشهد بعظمة الحضارة النبطية .

---

[١] عاقل : المرجع المتقدم ١١١ .

[٢] هـــاردنج : المـــرجع المتقدم (١٥٦-١٥٩) . القثامي : (حمود بن ضاوي) ، شمال الحجاز ـــ بيروت ، العصر الحديث للنشر والتوزيع ١٩٩١ م ط٣ ج١ ص (٦٠-٦٣) وما بعد .

[٣] علي : المرجع المتقدم ٥٣/٣ . القثامي : المرجع نفسه ٦٤/١ .

[٤] علي : المرجع نفسه ٥٥/٣-٥٦ .

الفصل الخامس

مملكة تدمر

- الموقع والنشأة .
- أسرة آل أذينة .
- الزباء (زينب) .
- حضارة تدمر .



مملكـــة تدمـــر

الموقع والنشأة :

التدمريون قوم من العرب ، استقروا في واحة خلقها في قلب بادية الشام نبع ماء غزير ، مياهه صالحة للشرب ، ويوجد إلى جانبه نبع كبريتي دافئ يستشفى به المرضى والأصحاء ، كما يصلح لسقي أشجار الزيتون والنخيل والرمان .

ذكرت تدمر في رقيمين من مدينة ماري (تل الحريري على الفرات) يعودان للقرن الثامن عشر قبل الميلاد ، الأول يذكر أربعة رجال تدمريين (٤ أويلو تدمرياً) وجاء في الرقيم الثاني أن ستين سوتياً (آرامياً) ذهبوا لينهبوا تدمر، ونزلوا (القريتين) ولكنهم عادوا صفر اليدين بعد أن قتل التدمريون رجلاً من السوتيين [١] .

وورد اســـم تدمـــر والتدمريين في أحد الرقم الآشورية القديمة المكتشفة في منطقة كبادوكيا حيث كانت محطة تجارية للآشوريين في النصف الثاني من الألف الـــثالث قبل الميلاد ، ويذكر النص بوزر عشتار التدمري (تدمريم) [٢] ، وفي رقم اكتشف حديثاً في مسكنة إيمار على الفرات ويعود إلى القرن الرابع عشر أو الثالث عشـــر قـــبل الميلاد ، ذكر أنه أمام أربعة شهود اثنان منهما تدمريان ، يدفع ملك داغان فدية تبلغ ٧٤ شاقلاً من الفضة إلى خادم آثر التدمري ، وفيه أول طبعة ختم

---

[١] بني : (عدنان) تدمر والتدمريون ـــ وزارة الثقافة . دمشق ١٩٧٨ م ص ٦٦ .

[٢] بني : المرجع نفسه ص ٦٦ .

تدمري معروفة حتى الآن [1] .

وفي حوليات الملك الآشوري تغلت فلاصر الأول (القرن الحادي عشرقبل الميلاد) والتي دوّن فيها أخبار حملته ضد العموريين ١١٠٠ ق.م في رقيم باسم تدمر أمورا [2] ، أي الغرب كموقع من المواقع التي اجتاحها هذا الملك في طريقه إلى سورية .

وفي الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد صارت تدمر من جملة البلاد التي أخضعها الاسكندر المقدوني لحكمه ، ومن عهد الاسكندر ظهر اسم تدمر الأجنبي أي بالميرا بين اليونان واللاتين [3] . وقد أشار بلينيوس إلى مدينة (بالميرا) ، وهو أول كاتب كلاسيكي يتعرض لها [4] ، كما ورد اسمها في كتب الكلاسيكيين الذين عاشوا بعد بلينيوس مما يدل على ازدياد شهرة هذه المدينة بعد الميلاد .

وفي عصر السلوقيين ظلت تدمر محتفظة بمكانتها الطيبة ، وذلك لأن السلوقيين الذين وحدوا سورية والعراق في ولاية واحدة هي ولا ية سورية ، شجعوا الطريق التجاري الذي كان يمر بالعراق وتدمر ، منافسة للبطالمة الذين أرادوا أن تمر التجارة من طريق البحر الأحمر ومصر [5] .

ولكن انقراض الدولة السلوقية وقيام الدولة الفرثية في العراق وفارس أضرا بها لأنه فصل العراق عن سورية ، وهدد مصالح التجار التدمريين ، إلا أن هذا لم يدم

---

[1] بني : المرجع نفسه ص (٦٦-٦٧) .

[2] حتي : تاريخ العرب ص (١١١-١١٢) . وينظر : يحيى : المرجع المتقدم ص ٣٤٧ .
G. A. Cooke, Palmyra, Enc. Britanica, 1964, Vol 17, P . 161 .

[3] علي : المرجع المتقدم ٨٥/٣ .
Agnescarr vaughan, Newyork, 1967, P . 7 .

[4] علي : المرجع نفسه ٧٩/٣-٩٠ . نقلاً عن بلينيوس .

[5] العلي : (صالح أحمد) . محاضرات في تاريخ العرب ــ مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٤ م ج١ ص ٤٧ .

طويلاً ، لأنه سرعان ما جاءت الدولة الرومانية إلى الشرق ، فسيطرت على سورية وفلسطين ثم مصر ، والمرجح أن تدمر اعترفت بسيادة رومة ، ودخلت ضمن منطقة النفوذ الروماني منذ ذلك الحين ، على أن النفوذ الروماني فيها كان آنئذٍ صورياً أكثر منه حقيقياً ، حيث إنها لم تتخل عن استقلالها ، كما أن الحامية الرومانية التي أقامت فيها ، لم تكن تشكل شيئاً مذكوراً بالنسبة لأهل المدينة ، والقبائل المحيطة بها ، حيث يستنتج من الكتابات التي تعود لمطلع القرن الأول الميلادي أن تدمر كان لها نظام حكم يقود على وجود مجلس للشيوخ ومجلس للشعب شأن المدن الإغريقية ، ولكن دور العشيرة كان هاماً جداً ، وهذا الحكم نصف الحضري ـــ نصف القبلي لم يتغير كثيراً بعد إلحاق تدمر برومة [١] .

ومهما كان أمر وصاية روما على تدمر ففي اعتقادنا أن تلك الوصاية لم تتم بقوة الفتح بقدر ما كانت نتيجة طبيعية لمصالح تدمر الاقتصادية واشتباك تلك المصالح مع مصالح الرومان الذين أصبحوا يسيطرون على الطرق والمرافئ في سورية ومصر والأناضول .

وقد ظلت على هذه الحال تبعية صورية لرومة ، حتى كان عهد الأمبراطور تراجان الذي ألحقها بالمقاطعة العربية التي أنشأها سنة (١٠٦ م) ، وعند وفاة تراجان ، وتولي هادريان الحكم في رومة ، منحها لقب هادريانا بالميرا ، أو هادريانا بوليس ، كما منح أهلها حقوق أهل رومة كحق الملكية المطلقة ، والحرية الكاملة في إدارة سياستهم ، وحق إعفاء تجارتهم من الضرائب وغير ذلك [٢] ، لذلك أخذت تدمر تزدهر ، وصار التدمريون يكثرون من تسمية أولادهم بأسماء

---

[١] بني : المرجع المتقدم ص (٦٩-٧٠) .

[٢] سالم : المرجع المتقدم ص ٢٠٤ .

رومانية [1] ، وقدموا للرومان قوات من الخيالة التي كانت تحارب بالنبال ، واتسع نشاطهم التجاري ، وازدادت ثروتهم ، واتسع العمران ، وهذا دليل العلاقة الوثيقة بين تدمر وروما .

وفي القرن الثالث جعلها سبتيموس سفيروس معمرة رومانية ، ولكنها لم تفقد الحكم الذاتي ، وبما أنها مدينة خلقتها خطوط القوافل ، فقد أصبحت الوارث الحقيقي للبتراء ، وسبتيموس هذا أصله من لبدة في ليبيا تزوج الأميرة الحمصية جوليا دومنا ابنة كاهن الشمس في حمص ورزق منها الإمبراطور المقبل كراكلا الذي منح عام ٢١٢ م تدمر اللقب المذكور الذي يسوي تدمر بروما من حيث إعفاؤها من دفع الضرائب ، وفي هذا دفع جديد للاقتصاد التدمري ، وبالفعل ظلت حركة تدمر التجارية في التحسن ووصلت تدمر في جمالها وفخامة عمرانها إلى مصاف كبرى مدائن العهد الروماني في سورية وخارجها [2] .

وكان للتجار مركزهم الأول في المجتمع التدمري ، كما تدل الكتابات الأثرية التي تعود إلى منتصف القرن الثالث الميلادي ، فهي تبين أن مجلس الشعب قد أمر بإقامة تماثيل لرئيس القافلة ، ورئيس السوق [3] .

وعلى الصعيد السياسي والعسكري ، وثقت الحكومة التدمرية علاقاتها مع قياصرة روما الذين قدموا لها المعونة العسكرية ، والمالية للدفاع عن مصالحهما المشتركة وكان على رأس المملكة التدمرية آنذاك أسرة آل أذينة .

أسرة آل أذينة :

زعيم هذه الأسرة هو أذينة من بني السميدع ، وينسبه الطبري إلى هوبر

---

(١) ok Ency Brit, vol. 17. P . 162 .

(٢) بني : المرجع المتقدم ٧٣-٧٤ .

(٣) عاقل : المرجع المتقدم ص ١٢٠ .

العمـــليقي مـــن العماليق [1] ، وهو من أسرة قديمة ومعروفة بوطنيتها ظهرت في القـــرن الثالث الميلادي ، تولى رجالها رئاسة الحكومة ، وقيادة البلد بفضل تأييدها للرومان ، وتقربها إليهم ، مما أكسبها ود القياصرة ، فأنعموا عليها بالألقاب والمال والمعونة العسكرية [2] .

وتمـــتعت هذه الأسرة بالمكانة والجاه مما جعلها تفرض سيادتها على المدينة ، فوطدت نفوذها ، وهيمنت على شؤون المدينة ، ووسعت تجارتها ، وأضافت لقب ســـبتيموس أمـــام اسمهـــا كدلالة على أنها كانت تتمتع بحق الرعوية الرومانية ، فاكتسبت بذلك كله منْزلة كبيرة [3] .

كـــان على رأس هذه الأسرة أذينة حيث وصل إلى منصب عضو في مجلس الشـــيوخ الروماني ، واستطاع أن يحكم تدمر حكماً مباشراً ، على طريقة مجلس الشيوخ الروماني وألف قوة عسكرية من أبناء تدمر ، ومن أبناء القبائل المجاورة ، مهمـــتها حفظ الأمن والنظام في المدينة ، والمناطق المجاورة الخاضعة لتدمر ، كما اســـتفاد من العناصر التدمرية التي كانت تخدم في الجيش الروماني ، وكوّن بذلك جيشـــاً نظاميـــاً ، مما هيأ له تنفيذ الخطة الرامية إلى إيجاد شخصية سياسية مستقلة لـــتدمر ، وقد نجح بذلك عام ٢٥٠ م ، فأعلن نفسه ملكاً ، مما أرعب الرومان ، فدبروا مؤامرة ضده وقتلوه [4] ، وخلفه ابنه خيران ثم تولى أخوه أذينة الثاني إدارة شـــؤون تدمر ، وكان أذينة هذا على درجة من القوة والشجاعة والفروسية ، وقد

---

[1] الطبري : المصدر المتقدم ج١ ص (٦١٧-٦١٨) .

[2] عاقل : المرجع المتقدم ص ١٢٣ .

[3] علي : المرجع المتقدم ٩١/٣ . دلو : المرجع المتقدم ٣٣٩/٢ .

Cook Ency Brit, vol. 17 . P . 162 .

[4] عاقل : المرجع المتقدم ص ١٢٤ . هبو : المرجع المتقدم ص ١٥٤ .

عرف فيه الرومان هذه الصفات ، فمنحوه درجة قنصل زمن الإمبراطور فاليريان وقد حدث أن طلب أذينة الثاني من فاليريان المساعدة للثأر من قاتل أبيه أذينة الأول ، ولكن فاليريان لم يعره أذناً مصغية ، فغضب أذينة ، وأخذ يتحين الفرص للانتقام من الرومان ، وجاءت الفرصة المناسبة حين اتبع الساسانيون سياسة التوسع ، وقامت بينهم وبين الأمبراطورية الرومانية وممتلكاتها في الشرق مشاحنات وخلافات حول مناطق النفوذ ، وخطوط التجارة ، وحدث أن بدأت المعارك بين الفرس الساسانيين والرومان في هذا الجزء من العالم القديم وانتصر الساسانيون بقيادة ملكهم سابور الأول على الجيش الروماني بقيادة فاليريان في معركة جرت قرب الرّها ، ووقع فاليريان أسيراً في قبضة الفرس [1] ، ولما بلغ أذينة نبأ انتصار سابور على فاليريان ، وجد الفرصة سانحة للانتقام لمقتل أبيه من هذا الأخير ، فأرسل رسله إلى سابور ، يحملون إليه كتاباً كله ود وعرض للصداقة والتحالف ، فلم يتقبل سابور الكتاب والرسل التدمريين قبولاً حسناً ، وعاملهم بجفوة ، واستهان بأمرهم ، وتوعد أذينة بالعقاب الشديد على جسارته في مخاطبته ، فأثار ذلك التصرف ثائرة أذينة فجمع فرسان تدمر بقيادة زبدا كبير قواده ، وزباي رئيس القواسين ورماة السهام ، وانضم إلى جيشه فلول جيش فاليريان ، وسار قاصداً طيسفون على رأس هذا الجيش [2] ، فهاجمهم في عقر دارهم ، واصطدم بجيش سابور في معركة عنيفة على ضفاف الفرات انتهت بهزيمة سابور ، وتتبع جيشه حتى أسوار العاصمة طيسفون ، ولكنه لم يستطع إنقاذ فاليريان من الأسر ، ولما كتب إلى الإمبراطور غاليانوس بن فاليريان يخبره بهزيمة الفرس فرح وأنعم عليه

---

(١) سالم : المرجع المتقدم ص ٢٠٦ .

(٢) علي : المرجع المتقدم ٩٣/٣ . سالم : المرجع نفسه ٢٠٧ .

نحو عام ٢٦٢ م بلقب (قائد عام على جميع جيوش الشرق) [١] .

أخـذ بعـد ذلك يعمل على استرجاع المناطق التي استولى عليها الفرس من الـرومان فاسترجع الرّها ونصّيبين ، وتوغل ثانية في المناطق الفارسية ، وحاصر العاصـمة ، فاسـتحق مكافـأة أخرى من الأمبراطور الروماني ، فمنحه لقب " امـبراطور جميـع بـلاد الشرق " ، وهذا يعني أن أذينة أصبح نائب الإمبراطور الروماني المطلق في القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية مكافأة له على بطولته في حمايـتها ، ولم يكتف بما ناله من تكريم فلقب نفسه أيضاً بلقب ملك الملوك ، ومـنحه مجـلس الشيوخ الروماني لقب أغسطس ، وهو لقب أباطرة الرومان [٢] ومهمـا يكـن من أمر فقد كان قائداً عربياً باسلاً في رأي غويدي يتصرف وفق مصالح تدمر ولحسابها [٣] .

لم تجر الأمور بعد ذلك على ما يرام ، ففي أثناء محاصرته العاصمة عبر القوط البحر الأسود ، وزحفوا باتجاه آسيا الصغرى آملين احتلالها للزحف إلى بلاد الشام مسـتغلين غيـاب أذينة ، ووجوده بعيداً عنها ، فاضطر إلى ترك الحصار والتوجه بـالجيش لرد هجوم القوط عن بلاده ، حينذاك ولى القوط الأدبار هاربين ، وأراد أن يعود لمتابعة فتح عاصمة الفرس طيسفون ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان حيث لقي مصرعه في حمص في ظروف غامضة [٤] ، ولعل رومة ارتابت في ولائه فأوعزت إلى بعضهم أن يريحها منه .

---

(١) حتي : تاريخ العرب ص ١١٣ .

Cook, Ency, Brit, vol. 17 . P . 163 .

(٢) زيدان : المرجع المتقدم ص ١١٥ ، سالم : المرجع المتقدم ٢٠٧ .

(٣) Guidi, (Eng), L'Arabieantéis Lamique, Paris, 1921, P . 4 .

(٤) علي : المرجع المتقدم ٩٥/٣ . عاقل : المرجع المتقدم ص ١٢٥ .

لقــد أثبت أذينة في حروبه التحريرية وطنية صادقة ، وقيادة فذة ، وشجاعة باســلة اعترف بها أعداؤه قبل أصدقائه ، وأكسبته تقدير الرومان ، واحترامهم ، وكــان إلى جانب ذلك رجل إرادة وسياسة وتسامح ، مما أسهم في تماسك أبناء البلد ، وتلاحمهم في وحدة وطنية صلبة ، ساعدت على تحقيق الانتصارات المظفرة على الجيوش الساسانية النظامية التي تفوق جيش التدمريين عدداً وعدة ، وفي واقع الحــال كان يتصرف وفق مصالح تدمر ولحسابها ، ويعمل بحزم وبسرعة من أجل تــأمين تــلك المصالح وقد زحف على بلاد الساسانيين على أمل أن يعيد مفاتيح تجارتهــا المســلوبة [1] ، وبذلــك رفع مكانة تدمر ، وخلد ذكرها في التاريخ ، والحقيقة أن تدمر بدأت في عهده تلعب دوراً مهماً في القضايا السياسية والدولية .

انــتقل الملك بعد اغتيال أذينة في حمص إلى ابن أخيه معن ، ولكن حكمه لم يــدم طويــلاً عــلى العرش ، فقد لقي هو الآخر مصرعه بعد أيام من مقتل عمه ولأسباب مجهولة أيضاً ، فانتقل الملك إلى وهب اللات بن أذينة من زوجته زينب ولما كان وهب اللات صغيراً ، فقد تولت والدته الوصاية وحكمت باسمه .

زينب (الزباء) :

كان المستفيد الوحيد من مقتل معن ومن قبله أذينة الثاني هو زينب .

يذكــر الأخــباريون العــرب أنها نائلة بنت عمرو أو الزباء بنت عمرو بن الظــرب بــن حسان بن العمليق ، ويدّعون أنها قتلت جذيمة الأبرش ملك عرب الضاحية النازلين بين الحيرة والأنبار في بادية العراق ، وكان قد قتل والدها عمرو بــن الظــرب ، ثم وقعت ضحية انتقام أقارب جذيمة [2] ، ويبدو أن هذه الرواية

---

[1] بني : المرجع المتقدم ص ٧٦ . دلو : المرجع المتقدم ٣٤١/٢ .

[2] الطبري : المصدر المتقدم ٦٢٣/١-٦٢٤-٦٢٥ .

بعيدة عن الصحة ولا تنطبق على زنوبيا ملكة تدمر [1] .

كانت زينب واعية للوضع السياسي في رومة والشرق وتتمتع بثقافة عالية ، فقد كانت تتكلم إلى جانب العربية الآرامية وتجيد اللاتينية ، وتتقن المصرية ، وقد قـرأت تـاريخ رومـة وخلاصة تاريخ الشرق ، وعرف عنها اهتمامها الشديد بالفلاسفة ، فقد استقدمت إلى بلاطها الفيلسوف لونجينوس ، وجعلته مستشاراً لها والكـاتب المؤرخ كليكراتس الصوري ، واللغوي الفيلسوف لويوكومر البيروتي ، والمـؤرخ الدمشقي يوسانياس ونيوكوماخوس من الفلاسفة والكتاب والمؤرخين المتضلعين بالإغريقية ، وصار من مستشاريها [2] .

ولعـلها كـانت مـثل زوجها مولعة بالفروسية والصيد والإلمام بالحروب والمعارك ، فقد كانت تشاركه مهمات الحكم ، وتقف إلى جانبه في إرساء دعائم المملكة الفتية .

وقـد فـاقت سياستها سياسة زوجها لأنها اتبعت سياسة عربية تعتمد على الـتقرب من البداة والتودد إليهم والاعتماد عليهم في القتال والحروب . وتقربت إلى العناصر العربية المستوطنة في المدن [3] ، وأظهرت مقدرة فائقة في إدارة شؤون المـلك ، فخـاف منها الرومان ، وعزم غاليانوس بتحريض من شيوخ رومة على القضـاء عـليها قبل استفحال أمرها ، فأرسل جيشاً إلى الشرق تظاهر بأنه يريد محاربـة سـابور ، غير أنه كان يريد في الواقع مهاجمة تدمر ، وإخضاع الملكة ، فبـلغ خـبره مسـامع الـزباء فاستعدت لمقابلته وخرجت إليه ، والتحمت فعلاً بكـتائب الـرومان ، وانتصرت عليها انتصاراً باهراً ، فولت هذه الكتائب هاربة

---

[1] هبو : المرجع المتقدم ص ١٥٥ .

[2] علي : المرجع المتقدم ١١٣/٣ .

[3] علي : المرجع نفسه ١١٣/٣ .

تاركــة قائدهــا هرقليانوس قتيلاً في ساحة الحرب . وتنبهت بعد ذلك إلى الخطر الفارســي ورأت أن تقــوم بــتقوية حــدود مملكتها من ناحيتها فأمرت بإنشاء حصــن زينب على الفرات ليقف في وجه الهجمات التي يشنها الساسانيون على بلادها من الشرق [1] .

اتســعت المملكة التدمرية في زمنها حتى أصبحت أشبه بإمبراطورية حقيقية شمــلت سورية الطبيعية وجزءاً من آسية الصغرى وشمالي الجزيرة العربية [2] ، وقد وصل تأثيرها حتى بحر العرب .

ووجهت أنظارها إلى مصر ، ووضعت الخطط للاستيلاء عليها ، فإذا أخذنا في الحســبان أهميــة مصر الاقتصادية كاهراء من اهراءات رومة ، وسيطرتها على طــريق الهند عبر البحر الأحمر الذي ازدادت أهميته بعد إغلاق الساسانيين لمنطقة الخــليج العربي ، عرفنا أن مصالح تدمر الاقتصادية كانت وراء مخططاتها السياسية والحــربية ،وأنها من تدمر يمكنها أن تراقب بصورة تامة المواصلات بين الهند وعالم البحر الأبيض المتوسط [3] .

أتــتها الفرصة عام ٢٧٠ م ، مستغلة الصراعات على السلطة في رومة وغزو الــبرابرة (الألمــان والقــوط) للقسم الغربي في الإمبراطورية الرومانية ، وخروج بــروبوس حــاكم مصــر من قبل الرومان في أسطوله لمطاردة القراصنة ، فانتهز الوطــنيون والمعارضون لحكم الرومان هذه الفرصة وكتبوا إلى ملكة تدمر يحضونها عــلى تحريــر مصــر من حكم روما ، وتولي الحكم فيها ، فاستغلت زينب هذه الظروف وما تعانيه الإمبراطورية الرومانية من أزمات حادة ، وسيرت جيشاً بقيادة

---

(١) علي : المرجع نفسه ١١٣/٣ . عاقل : المرجع المتقدم ١٢٩ .

(٢) زيدان : المرجع المتقدم ص ١١٦ .

(٣) بني : المرجع المتقدم ص ٨١ .

زبدا لاحتلالها ، انتصر على جيش الرومان عند بابليون [1] .

وهكذا أصبحت مصر تحت حكم زينب . ويبدو أنها اتفقت مع رومة على بقـاء حاميـة تدمـرية في مصر نظير اعتراف تدمر بسيادة الرومان على مصر ، وكدليـل على صحة هذا الخبر عثر على عملة تدمرية ضربت في الإسكندرية عام ٢٧٠م ، أي بعـد اعـتلاء الأمبراطور أورليان العرش ، نقش عليها صورة وجه وهب اللات إلى جانب صورة وجه أورليان ، والجمع بين الصورتين دليل على أن وهب اللات أصبح يحكم مصر ممثلاً للأمبراطور الروماني [2] .

وفي عـام ٢٧١ م ضربت نقود أخرى في سورية والإسكندرية لم تعد تظهر فيهـا صـورة إمـبراطور الرومان أورليان [3] بل ظهر فيها وهب اللات متوجاً بالإكـليل ذي الأشعة ، وهو رمز الأباطرة الأنطونيانيين ، وعليه اسم الأمبراطور قيصـر (وهـب الـلات) ولم تكتف بذلك فقد أعطت ابنها لقب ملك الملوك وأغسـطس ، وتلقـبت هـي أوغسطا [4] وفي ذلك دلالة على أنه أصبح لها قوة تسمح لها بأن تعلن استقلالها تماماً عن رومة ، وهذا تحدٍّ صريح ودليل واضح على ما حدث من شرخ عظيم في العلاقات السياسية بين تدمر ورومة .

وأخـذت تقيم المنشآت الضخمة في عاصمتها وتكتب عليها ألقابها وألقاب ابنها وأسماء قوادها [5] .

وفي المرحـلة الـتالية ، وإمعاناً في إظهار استقلالها عن روما أمرت القائدين

---

(1) بني : المرجع نفسه ص ٨٣ .

(2) عاقل : المرجع المتقدم ١٢٩ .

Cook, Ency, Brit, vol. 17 . P . 163 .

(3) حتي : المرجع المتقدم ص ١١٣ .

(4) بني : المرجع المتقدم ص ٨٣ . عاقل : المرجع المتقدم ١٢٩ .

(5) عاقل : المرجع نفسه ص ١٢٩ .

التدمريين زبدا وزباي بالقيام بحملة أخرى ضد آسيا الصغرى ، استطاع فيها الجيش الوصول إلى مضيق البوسفور ، مما جعلها تمتلك مصر وسورية ومضيق البوسفور ، وبامتلاك ذلك وضعت تدمر تحت سلطتها كل منافذ طرق المواصلات البرية والبحرية مع الشرق الأقصى ، والمصادر الرئيسة لتموين روما في الوقت نفسه [1] .

وبذلك بلغت تدمر قمة مجدها السياسي ، ففزع الرومان ، فأسرع الأمبراطور أورليان إلى إنهاء مشكلاته في الغرب حيث أعاد بقوة بأسه النظام إلى الأمبراطورية ، وأمن حدودها على الدانوب بعد حقبة من الاضطراب تميزت بهجمات الفرنجة والألمان والقوط ، وكذلك الفرس كما تقدم ذكره ، وحين اطمأن إلى وضع الإمبراطورية في قسمها الغربي تقدم بجيش قوي لمحاربة زينب ، وتصفية الحساب مع حكام تدمر المتمردين .

اجتاح الرومان ٢٧٢ م الأناضول ، فانسحب زبدا بجيشه إلى أنطاكية ومنها إلى حمص ، وفي الوقت نفسه استعاد حاكم مصر بروبوس مصر .

ولما دخل الجيش الروماني حمص " حدثت معركة حامية ربح فيها التدمريون الجولة الأولى ، ولكنهم غُلبوا في النهاية بسبب تفوق الفرسان والمشاة الخفيفة التابعة لأورليان بتحركاتها على فرق فرسان زنوبية الثقيلة " [2] . ولأن سكان حمص لم يقدموا لزينب المؤازرة الحقيقية التي تساعدها على المقاومة .

وتركت زينب حمص ، وعادت إلى تدمر للدفاع عنها ، ودخلها الجيش الروماني بقيادة أورليان ، فغنم ما تركته زينب من عتاد وتجهيزات وأموال ، وزار

---

[1] بني : المرجع المتقدم ص ٨٢ .

[2] عاقل : المرجع المتقدم ص ٣٠ .

معبد المدينة ، وقدم لإلهها تقدمات كبيرة ونسب له النصر الذي أحرزه [1] .

ولما رأى أن الطريق بات مفتوحاً إلى تدمر زحف بجيشه إليها ، وبسرعة مذهلة قبل أن تتمكن الملكة من تحصين مدينتها أو الاتصال بالفرس ، وبالقبائل العربية الضاربة في البادية ، فيصعب عندئذ الاستيلاء عليها [2] .

لكن طريق سيره إلى تدمر لم يكن سهلاً كما توقع فقد عانى جيشه عناءً كبيراً من غارات البدو والأعراب ، ومن القيظ ، ولم يصل تدمر قبل أسبوع [3] ، فحاصرها عسكرياً واقتصادياً ، وعززت قواته بجيوش مصرية ، في الوقت الذي لم تتلق زينب أي مساعدة حتى ولا من الفرس الذين كانوا يعانون من مشكلات واضطرابات داخلية كثيرة .

واجه المحاصرون مقاومة ضارية ، واستبسل المدافعون ، ورموا الرومان بالسهام وألقوا عليهم الحجارة والنيران ، وأرسلوا إليهم الشتائم ، والسخرية من أعالي الأسوار وهكذا كان حصار الإمبراطور لتدمر من أشد ما واجه من صعاب ولا سيما أنه أصيب خلاله بجرح من أحد النبال ، يدلنا على ذلك ما جاء في خطاب له قائلاً : " إذا تحدث الشعب الروماني يتحدث باستهزاء وسخرية عن الحرب التي أشنها ضد امرأة ، فذلك لأنهم يجهلون شخصية زينب وقوتها ، وإنه لمن العسير أن تحصى معداتها الحربية من الحجارة والسهام وكل أنواع القذائف " [4] .

---

[1] علي : المرجع المتقدم ١٢٢/٣ . بني : المرجع المتقدم ٨٤ .

[2] حتي : المرجع المتقدم ص ١١٣ . عاقل : المرجع المتقدم ١٣١ .

[3] بني : المرجع المتقدم ص ٨٤ .

[4] جيبون : (أدوارد) ، اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها ، تعريب محمد علي أبو درة ـــ القاهرة بلا تاريخ ص (٢٦٩-٢٧٠) .

وحدثـــت خلال الحصار مراسلات ، ولا يعرف مدى صحتها [1] ، عرض خلالها أورليان على زينب التسليم لقاء شروط معتدلة ، وهي أن تنسحب انسحاباً كريماً ، وأن يحتفظ مواطنوها بامتيازاتهم القديمة ، لكنها رفضت شروطه بإباء وشمم لا بل اقترن الرفض بالإهانة [2] .

والواقـــع أنهـــا ركزت أملها على أن تحل المجاعة في الجيش الروماني ، فيرغم على الانسحاب ، وبأن يأتيها المدد من ملك فارس ، ولكن الاضطرابات الداخلية والمشكلات عندهم خيبت أملها ، وأدركت أنها تحارب في معركة خاسرة ، وقد تحســن وضع جيش أورليان ووصلته إمدادت عسكرية ومواد غذائية كافية لإطالة أمد الحصار عندها قررت ترك العاصمة للأقدار والتسلل من العاصمة ليلاً للوصول بنفســـها إلى الفـــرس علّهم يرسلون لها نجدة تغير الموقف ، وتبدل الحال ، ولكن خطتها بالهرب أخفقت إذ أدركها الخيالة الذين يلاحقونها وهي على هجين سريع بينما كانت تحاول عبور الفرات وأُعيدت إلى معسكر أورليان [3] .

اســـتمر الوطنيون التدامرة في مقاومة المحاصرين لمدينتهم غير أن أسر زينب ونضـــوب المواد التموينية ، وجنوح بعض المتخاذلين لطلب الصلح دفع التدمريون إلى الاستســـلام ســـنة ٢٧٢ م ، ودخل الجيش الروماني مدينتهم الجميلة الغنية ، ووضع يده على غنائم كبيرة .

وقـــبض أورليان على حاشية الملكة ومستشاريها ، واستصفى أموالها وجميع كـــنوزها ، وقـــوض معالم المملكة المستقلة وأخذ زينب ، ومن قبض عليهم معها وتوجـــه بهـــم قاصداً أنطاكية تاركاً في تدمر حامية عسكرية وقائداً عليها ليحكم

---

[1] علي : المرجع المتقدم ٣/١٢١-١٢٢ . بني : المرجع المتقدم ص ٨٥ . دلو : المرجع المتقدم ١/٣٤٤ .

[2] جيبون : المرجع المتقدم ص ٢٧١ .

[3] حتي : تاريخ العرب ص ١١٣ . علي : المرجع المتقدم ٣/١٢٢ .

المدينــة ويحــافظ على الأمن فيها [1] . ولما وصل إلى حمص قتل بعض التدمريين ومنهم لونجينوس مستشارها ، ومن المحتمل أنه قتل زبدا قائد جيشها [2] .

وعــندما وصل تراقيا في أواخر سنة ٢٧٢ م سمع بقيام ثورة جديدة في تدمر بقيادة أبسوس أدت إلى اغتيال حاكمه والتغلب على حامية المدينة ، وتنصيب أحد أقــرباء زيــنب ملكاً على المدينة ، وباندلاع ثورة أخرى في مصر بطلها فيرموس الــثري الشــهير ، وكــان هدف الثورتين واحد هو التحرر من حكم الرومان والحصول على الحرية والاستقلال [3]، فعاد إلى تدمر بسرعة مذهلة وأعمل السيف في سكانها وأباحها لجنوده فأعملوا فيها يد التخريب والسلب [4] ، وهناك رسالة لأورليان نفسه يعترف فيه بأن الإعدام الرهيب لم يقتصر على المتمردين ، بل تعداه إلى الشيوخ والنساء والأطفال والفلاحين [5] .

وعــاد إلى رومــة عــام ٢٧٤ م في موكب نصر قيصري عظيم اشترك فيه ١٦٠٠ مصــارع وعــدد غفير من الأسرى من بينهم زينب وهي مزينة بالذهب والجواهــر ، وعــربة زيــنب الخاصــة التي أعدها لتدخل فوقها منتصرة عاصمة الــرومان ، وعربة أهداها هرمز ابن سابور إلى القيصر [6] . وفرض على زينب أن تقــبع في بيت خصص لها في تيبور مع أولادها لتعيش في عزلة في هذه البقعة من إيطاليــة ويظهــر أن ما ذكره بعض المؤرخين اليونان من زواجها من أحد أعضاء

---

[1] علي : المرجع نفسه ١٢٣/٣ .

[2] بني : المرجع المتقدم ص ٨٦ .

[3] علي : المرجع المتقدم ١٢٤/٣ .

[4] حتي : المرجع المتقدم ص ١١٤ .

[5] جيبون : المرجع المتقدم ص ١٧٢ .

[6] علي : المرجع المتقدم ١٢٦/٣ .

مجلس الشيوخ هو أسطورة من الأساطير راجت بعد ذلك عن حياة ملكة الشرق الجميلة [1] .

هذه المرأة كادت أن تصبح ملكة العالم قد جمعت إلى الجمال متانة الخلق والثقافة الرفيعة فضاهت سميراميس في نفوذها وكليوباترة في مهارتها وجوليا دومنا في ثقافتها دون أن تكون متعطشة للحكم كما يحلو للمؤرخين أن يتجنوا عليها . إنها تستحق مصيراً أفضل وأن وطنها ليرى فيها واحداً من أكبر أمجاده [2] .

ومن ذلك ما قاله الإمبراطور الروماني أورليان عنها في رسالة لمجلس الشيوخ رداً على منتقديه : " يلومونني أنني تباهيت بالنصر على امرأة ، إنهم ما كانوا يتفوهون بمثل ذلك لو كانوا يعلمون أية امرأة هي ، لو كانوا يعلمون أناتها في المجالس وثباتها على القرارات ، وحزمها مع الجنود ، وتسامحها عند الضرورة ، إن أذينة مدين لزوجته بنصره على الفرس ، وفرار سابور من أمامه ووصوله إلى طيسفون " [3] .

أما تدمر فقد زالت أهميتها سياسياً إلا أن أطلال مدينة القوافل ، الشارع الكبير والمسرح والمعابد والمدافن تشهد بمآثر التدمريين الذين ساهموا بجهودهم وخبراتهم الفنية والتقنية وبأموالهم في بناء المدينة الجميلة .

حضارة تدمر :

يتضح مما لدينا من معلومات ــ يعود أغلبها إلى العصر الروماني حيث تكثر الوثائق التاريخية ، والآثار التي تحكي حضارة تدمر ــ أن تدمر كانت مزيجاً غريباً من العناصر اليونانية والسورية والفرثية . وأن سكان تدمر كانوا يتألفون من فئات

---

(1) علي : المرجع نفسه ٣/١٢٧ .

(2) بني : المرجع المتقدم ص ٨٧ .

(3) بني : المرجع نفسه ص ٧٩ .

مختلفة : المواطنون الأحرار والعبيد والأجانب ، أما الأحرار فكانوا أفراد القبائل التي تعيش هناك ومنها " قبائل بني أنوبات ، بلتي ، بلعا ، برسعة ، جد بعل ، زيد بعل ، حتار ، حنفى حشاش ، قمر ، وغيرها ، وكانت هذه القبائل غير متكافئة في شرف النسب ، فبعضها أعلى مكانة وله الأفضلية في الوظائف الإدارية ، وكانت كل قبيلة تتمتع بنوع من الاستقلال في شؤونها الخاصة ، ولها مجلس خاص ، وكثيراً ما كانت تقوم الخلافات والحروب بينها " [1] .

أما الأجانب فكان أغلبهم من الأغريق والعبيد المحررين ، ولم تكن لهم مكانة محترمة في المجتمع ، أما الفرس فمع أنهم كانوا من الأجانب إلا أنه كان لهم في تدمر مكانة عالية ، وكانوا يعاملون وكأنهم من المواطنين الأحرار ، وكان هناك أيضاً بعض الرومان الذين يشتغلون بعض الوظائف ، وبعض التجار الذين يقيمون لأغراض تجارتهم مدداً مؤقتة ، ويسكنون أماكن خاصة بهم ، ويخضعون لمراقبة موظف خاص ، أما الغرباء أو الزوار فكانوا يقيمون عادة في نزل خاصة ، ولكل جالية نزلها الخاص الذي يشرف عليه رئيس مسؤول عن تلك الجالية .

أما البضائع فكانت تتألف من بعض الحاجيات الضرورية إلى جانب الكمالية، ومنها الصوف والأرجوان ، والأواني الزجاجية ، والحرير ، والعطور ، والروائح ، وزيت الزيتون ، والتين المجفف ، والجبن ، والخمور ، وقد وجدت قطع من الحرير الصيني في قبر يعود إلى عام ٨٣ م ، وكان للتجار قيمتهم ، فقد أعلن في الكتابات الأثرية التي تعود إلى منتصف القرن الثالث الميلادي أن مجلس الشعب أمر بإقامة تماثيل لرئيس القافلة ، ورئيس السوق .

وقد ازدهرت الصناعة الوطنية ، وتدل كتابة أثرية من عام ٢٥٨ م

---

[1] عاقل : المرجع المتقدم ١٣٢-١٣٣ .

علـى وجـود نقابـة للصـاغة الذين يصيغون الذهب والفضة ، وكان لها نفوذ كبير وواسع [1]

ولعلنا لا نستطيع أن نفصل في حياة الحرف إذ ليس لدينا مستندات كافية ، ولكـنها في اعتقادنا لم تكن تخرج عن القواعد المتبعة قديماً في المهن ، فالابن يتعلم صـنعة أبيه غالباً والمعلم يتدرج من أجير إلى صانع . والشيء المهم هو أن جانباً كبيراً من الأعمال الحرفية كان يقع على كاهل العبيد [2] .

ومـن الأعمـال التي يتولاها العبيد العمل في الزراعة ، على أن الزراعة لم تشـكل أبداً عنصراً أساسياً في الاقتصاد التدمري ، فتدمر مدينة تجارية وقوافل ، وليس في البيئة الطبيعية ما يساعد على قيام زراعة مهمة خارج حدود واحة مدينة تدمر نفسها ، والواحات التابعة لها [3] . وينقل بعضهم مرويات كثيرة مبالغاً بها ، فيهـا غزارة المياه والأمطار [4] ، ولو كان الأمر كذلك لما وجدنا في القانون المالي التدمري ارتفاعاً باهظاً لسعر المياه [5] .

أمـا الدين فقد كان التدمريون يدينون بالوثنية ، وقد زاد عدد آلهتهم على الأربعـين أعظمهـم ثلاثة : الإله بعل وهو الإله الوطني لتدمر ، وعبادته معروفة قديماً، والإله بعل سمين أي سيد السماء وهو حامي الزراعة ، والإله يرحبول وهو إلـه الشمس ، وكانت هذه الآلهة الثلاثة تُعبد معاً ، وفي معبد واحد ، فيمثل بعل في الوسـط ، وعلى يمينه بعل سمين ، وعلى شماله يرحبول ، وقد عرف التدمريون

---

(1) عاقل : المرجع نفسه ص ١٢٠ .

(2) بني : المرجع المتقدم ١١٩ .

(3) بني : المرجع نفسه ١١٩ .

(4) حتي : المرجع المتقدم ١١٤ . سالم : المرجع المتقدم ٢٠٣ .

(5) بني : المرجع المتقدم ١١٩ .

اللات والعزى ومناة .

عبد التدمريون أيضاً آلهة أخرى بابلية الأصل ، كما عبدوا الإله حدد ، والإله عشتروت ، وهما سوريان ، وكان رجال الدين في تدمر أقوياء ، يقيم بعضهم في المعابد الرئيسية ، وبعضهم الآخر يعيش مع القبائل ، وكانوا يشرفون على الطقوس الدينية التي تقام بمناسبة الأعياد حيث تشرب فيها الخمور ، وتقدم الأطعمة على موائد خاصة ، كما كان دفن الموتى يجري باحتفالات ذات طقوس خاصة تنصب فيها موائد الطعام [١] .

وقد تأثر التدمريون في مظاهر حياتهم العادية ، وفنهم بمؤثرات عديدة ، حيث كانت حضارتهم مزيجاً من معطيات سورية (محلية) وأخرى خارجية .

وكانت كتاباتهم بالخط الآرامي ، وقلمها المعروف في كل أنحاء سورية في ذلك الوقت ، لكنهم طوروا هذا الخط إلى خط خاص بهم عرف باسم الخط التدمري ، وكانت القرارات يصدرها الحكام بخطين اليوناني والآرامي [٢] .

وشيدت المباني الفخمة والشوارع و الساحات المزدانة بالأعمدة ، وخططت المدينة على شكل المدن اليونانية والرومانية ، وقد تجلى الحس الفني عند التدمريين فيما شيدوا من منشآت ضخمة مثل معبد الإله بعل الذي يُعدُّ معجزة هندسية فنية رائعة ، وكذلك الحمامات ، ودور خاصة مبلطة بالفسيفساء والرخام ، وآثار قصر آل زينب الذي يشكل بتيجانه الكورنثية الغنية بالزخارف ، وأعمدته وواجهاته المخرمة بالزخارف معجزة فن النحت [٣] ، وكذلك المدافن التي برع الفنان

---

[١] عاقل : المرجع المتقدم ١٣٤ .

[٢] حتي : تاريخ العرب ١١٤ . هبو : المرجع المتقدم ١٥٩ .

[٣] سالم : المرجع المتقدم ٢٢٠ .

الـــتدمري في إنشـــائها وتزيينها بتماثيل نصفية للموتى . وقد عرفت تدمر ثلاثة نماذج من المدافن [1] :

١- المدفـــن البـــرج :

وهـــو أول نماذج المدافن التدمرية وأقدمها ، مظهره الخارجي كالبرج المربع تماماً ، وهو من مبتكرات المعماريين التدمريين ، وقد مر بمراحل متعددة من التطور حـــتى أصـــبح في القرن الأول الميلادي أكثر جمالاً وسعة وإتقاناً وأصبح يضم في داخله أربعة طوابق أو خمسة ، وتتجاوز العشرين متراً في ارتفاعها ، وتتسع لمئات القبور الجدارية ، ولها أحياناً طابق تحت الأرض ويعرج إلى الطابق بأدراج ملتوية ، وفي جنبات كل طابق معازب وتوابيت عليها بعض منحوتات تمثل صاحب المدفن وأهلـــه ، ومعهـــا لوحة مكتوبة تؤرخ المدفن . والطابق الأرضي الذي يؤدي إليه الـــباب مباشرة يكون عادة أغنى الطوابق يبهج النظر بأعمدته الكورنثية المخددة ، وأفاريـــزه المزخـــرفة المـــلونة ، وسقفه المجزوع الملون بالألوان الضاحكة والمحلى بالنقوش شديدة البروز .

وأحسن النماذج الباقية في تدمر عن المدفن البرج في أعلى مراحل تطوره هي مدفـــن إيلابل (قصر العروس) ومدفن يمليكو . وكلاهما في وادي القبور الشهير ، وقد سميا باسم مؤسسيهما [2] .

٢- المدفن البيت :

ظهـــر في القرن الثاني الميلادي ، وهو شديد الشبه بالبيت ، بطابق واحد ، وهـــو مدخل جميل غني بالنقوش بباب حجري ذي درفتين وراءه دهليز ينفتح إلى

---

(١) ok, Ency, Brit, vol. 17 . P . 162 .

(٢) بني : المرجع المتقدم ١٦٧-١٦٨ .

باحـــة فيها أربعة أعمدة تحمل رواقاً يدور بجوانب البناء والسقف غني بالزخارف الهندسية ، وحول الباحة على طول الجدران مصاطب فيها معازب كل منها يضم ثلاثة قبور فوق بعضها وفوق المصاطب منحوتات جنازية تمثل أصحاب المدفن مع عائلاتهم [1] .

٣- المدفن الأرضي :

انتشر هذا النوع في القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، ونقدر أن هناك مئات منه في جميع المقابر التدمرية .

أحسن النماذج المعروفة في تدمر من المدافن الأرضية مدفن الأخوان الثلاثة ، ومدفن يرحاي المعاد إلى المتحف الوطني بدمشق ... الخ .

المدفـــن الأرضي محفور في الطبقة الصخرية بشكل حرف **T** مقلوب يُنـــزل إليه بدرج مستقيم ، أو منعطف وأحياناً بمنحدر غير مدرج ، يوصل على عمق قد يبـــلغ نحو سبعة أمتار إلى باحة مزينة بعضائد بارزة قليلاً عن الجدارين الجانبيين . وفي واجهـــة المدفن الخارجية نافذة حجرية مخرمة للإنارة والتهوية ، ومعها لوحة التأســـيس وتحتها ساكف مفروز أحياناً بعدة مستويات ، وعليه نص أو نصوص الاشتراك على المدفن ، تحت الساكف باب بدرفة أو بدرفتين يدور بجرن ، ويفتح نحـــو الداخـــل ، وقـــد نحـــتت فيه حقول مستطيلة مزينة بأشكال هندسية على مســـتويات عـــدة . ونحـــتت في الأبواب رؤوس أسود أو حيوانات خرافية فيها حلقات تقليداً لدقات الأبواب العادية . ويوجد وراء الباب درجتان أو ثلاث يُنْزل بهـــا إلى باحـــة داخلية تتوسط جناحاً رئيساً في صدر المدفن وجناحين جانبيين . وتحفـــر في جدران الأجنحة صفوف متوازية من المعازب العميقة ، وفي كل معزبة

---

[1] بني : المرجع نفسه ص ١٦٨ .

نحـو سـتة قبور فوق بعضها ، يسجى في كل قبر أحد الموتى ، ويغلق من دونه بتمـثاله النصفي . وبين المعازب أعمدة أو أنصاف أعمدة متوجة بتيجان كورنثية أو أيونية ملونة [١] .

ومما يميز الحضارة التدمرية غناها بالمنحوتات ، فقد كان النحت أبرز آثار الفـن الـتدمري ، وكـانت بعض زخارفهم توحي لدقتها ، وكأنها نفذت على خشـب وليس على حجر ، فأسهم أولئك في إضفاء مسحة من الجمال والروعة على المدينة ، ما تزال تؤثر في زائريها من السواح اليوم [٢] .

وتظهـر المـنحوتات الأسرة المالكة ، والطبقة الأرستقراطية ، وهي ترتدي الألبسـة اليونانيـة ، بينما كان عامة الشعب يظهرون بلباس الفرس ، أو باللباس العربي التقليدي ، وهو ثوب طويل فوقه عباءة تدور حول العنق ، وأغلب التماثيل بـالحجم الطـبيعي بهيئة وقورة ، ومعظمها تماثيل غير كاملة كانت موضوعة في شـوارع المدينة ومعابدها ، وميدانها (الأغورا) ، وفوق أعمدتها التذكارية تخليداً لعظماء المدينة ، وشيوخ قبائلها وأعضاء مجلس الشيوخ ، وكبار الموظفين والتجار والقادة والكهنة [٣] ، ويدل ما يضعونه على رؤوسهم على مهنتهم .

وتوجـد هذه التماثيل التي عثر عليها المنقبون في عدد من المواضع في سورية في المتحف الوطني بدمشق ومتحف تدمر .

وقد نحت الفنانون التدمريون أعمالهم على الحجر والمعدن ، وكان مما سهل مهمـة الـنحاتين أن جبال تدمر القريبة غنية بأنواع الحجر الكلسي منها ما هو ضارب إلى الصفرة طري نسبياً سهل المعالجة ، ونفذت معظم المنحوتات التدمرية

---

(١) بني : المرجع نفسه ١٦٩-١٧٠ .

(٢) هبو : المرجع المتقدم ص ١٦٠ .

(٣) بني : المرجع المتقدم ١٣١-١٣٢ . عاقل : المرجع المتقدم ١٣٧ .

القديمة على هذا النوع من الحجر .

وهـــناك نوع آخر ناصع البياض قاس شديد التبلور أشبه بالمرمر ولكنه خال من اللمعان ، ونجد نوعاً ثالثاً في مثل قساوة النوع شديد البياض لكنه يضرب إلى اللون الوردي ، أما الجص وعجينة الجبس فقد اقتصر استعمالها على تزيين الأفاريز والنوافذ وبعض التفاصيل الصغيرة الأخرى وفي بعض النواحي التطبيقية [١] .

ولســـوء الحـــظ لم يعثر في تدمر إلا على أجزاء طفيفة من تماثيل البرونز التي تـــتحدث عنها النصوص ، وهي على كل حال تشهد بمهارة التدمريين في معالجة هذا المعدن وصبه [٢] ، وذلك لأن التماثيل المعدنية قد ذوبت في عهد انحطاط تدمر أو انتهـــبها الرومان ، والتماثيل الحجرية قد حطمت انتقاماً من مقاومة تدمر فهي تذكرهم بأيام ازدهارها وأمجادها .

ولعـــل من أجمل التماثيل المكتشفة مؤخراً تمثال أسد اللات وتمثال الربة أثينا الـــذي عـــثر عـــليه في معبد اللات بتدمر عام ١٩٧٧ م وهو منحوت من حجر الكلس الطري [٣] .

وكـــانت أكـــثر المنحوتات التي عثر عليها المنقبون في تدمر ذات طابع ديني وجـــنائزي يتبين من دراستها أنها مرت في أدوار خلال الحقبة التاريخية الممتدة من القـــرن الأول قـــبل الميـــلاد إلى النصف الأول من القرن الثالث الميلادي ، وتمثل المنحوتات الدينية :

١- مشـــاهد أرباب منفردة أو مجتمعة منقوشة في جدران المعابد أو أفاريزها

---

[١] بني : المرجع نفسه ١٢٦ . دلو : المرجع المتقدم ٢/٥٩ .

[٢] بني : المرجع نفسه ١٢٨ .

[٣] أسعد : (خالد) الروائع الأثرية المكتشفة حديثاً . وزارة الثقافة ، المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق ، بلا أرقام صفحات .

أو سقوفها ، ومنها ما هو بمحاريب وأطر مزخرفة ، وتكون أحياناً شديدة البروز كأنها تماثيل ملصقة بالجدار .

٢- مناظر التقدمات الدينية ، وتوجد فيها عادة شخص أو شخصان يؤججان محرقة بخور ، وفي المنظر صف من الآلهة ، الإله الرئيس في الوسط ويليه الأيمن وهكذا ، وهذه المناظر تضم أحياناً آلهة على خيول وجمال وحيوانات أسطورية ، وكان التدمريون يقدمون هذه المناظر منحوتة على ألواح كنذور وقرابين للآلهة توضع في معابدها .

٣- مشاهد أرباب ومتعبدين بأوضاع مختلفة منقوشة على مذابح نذرية تهدى للمعابد ، وقد بذل الفنان التدمري جهده في تمييز معبوداته وإخراجها بأكثر ما يستطيع من جمال وقوة ، وجعلها أحياناً تسوق العربات الحربية وتلبس الدروع وتمتطي صهوات الجياد ، وظهور الإبل وتشرع الرماح وتتمنطق بالسيوف وترمي بالسهام وتسير مواكب وتقف صفوفاً [١]

أما النحت الجنائزي فيضم :

١- **التماثيل النصفية** : وهي في الواقع بين التمثال النصفي والنقش البارز . وقد عثر على نماذج منها في مدفن شلم اللات : تمثال يمثل مؤسس المدفن ، وتمثال ثانٍ يمثل المشارك على المدفن ، وتمثال ثالث لرجل تدمري ملتح ، وتمثال رابع يمثل حفيد المشارك على المدفن ، وتماثيل نصفية ملونة لنساء مثقلات بالحلي [٢] .

---

[١] بني : المرجع المتقدم ١٣٤ .

[٢] بني : المرجع نفسه ٤٧-٤٨ .

٢- **الألـواح** : وعـليها مشاهد جنازية أو شخصان متصلان أو منفصلان ضمن دوائر ، وقد عثر على نماذج في مدفن شلم اللات كلوحة جنائزية تمثل كاهناً وعقيلته وابنهما منفصلين عن بعضهما ضمن دوائر . ولوحة ثانية تمثل شيخاً وعقيلته متصلين [١] .

٣- **الشواهد** : وهي صغيرة الحجم مقوسة أو مثلثة أو مستقيمة من الأعلى وعـليها أشخاص واقفين أو أطفال من الجنسين . وقد عثر على نماذج منها في عدد من المدافن [٢] .

٤- **واجهـات الـتوابيت والسرر الجنائزية** : وعليها مشاهد من الولائم الجـنائزية ، ومـن حيـاة الموتى في عالمنا ، وبعض أفراد أسرة الميت أو كلهم [٣] .

وتحمـل جميـع المنحوتات الجنائزية تقريباً وراء أحد الكتفين أسماء أصحابها كاملة مسبوقة أو متبوعة بعبارة "حبل" التي تعني واأسفاه ، ومع الأسماء نجد أحياناً أعمار الموتى أو تعريفاً بهم . وهذه الكتابات منقوشة وملونة باللون الأحمر .

أمـا الصـور الجدارية (الفريسكات) فقد أدت أعمال التنقيب في تدمر إلى الكشف عن عدد كبير منها ، ويلاحظ أنها وإن كانت تحمل شيئاً من طابع الروح الهلنسـتية في التفاصيل إلا أنها تنبع من التقاليد الشرقية القديمة ، ولا سيما إحاطة الموضـوعات بخطوط غامقة واضحة رغبة في التحديد والإبراز ، وهو تقليد عربي عريق موجود في الرسوم الآشورية المكتشفة في تل يرسيب ، لا بل حتى في رسوم القصـر الملكي في مدينة ماري . وهي شرقية أصيلة بخضوعها لقاعدة التوجه إلى

---

[١] بني : المرجع نفسه ٤٣ .

[٢] بني : المرجع نفسه ٥١-٥٣ .

[٣] بني : المرجع نفسه ٤٤ .

الأمام والنظرة الثابتة التي تشبه السجاد .

وقد نفذ هذه الفريسكات فنانون محليون على طبقة من مونة الجير ملساء جافة ، واستخدموا في ذلك ألواناً مركبة من الأكاسيد المعدنية المحلولة بالماء [١] .

وأما الإدارة في تدمر فقد كانت منظمة حيث تشير الوثائق إلى أنه كان فيه مجلسان الأول مجلس الشيوخ يؤخذ أعضاؤه من كبار التجار ورجال المال ورؤساء القوافل والوجهاء ، وله رئيس وأمين سر وللرئيس مركز مهم في تسيير أمور الدولة ، والثاني مجلس الشعب ، ويضم أفراد القبائل البالغين جميعهم ، ومع تنامي ثروة التجارة وأرباب القوافل ازداد نفوذ مجلس الشيوخ وتناقص نفوذ مجلس الشعب [٢] . ولما جاء أذينة تناقص نفوذ المجلسين كليهما [٣] .

وكان للمدينة رئيس أراكون وموظف يدعى متقن المدينة وموظف للمالية ، وموظف مسؤول عن الأسواق ، وموظف مسؤول عن المنازعات والشؤون القضائية ، وقائد للحامية ، وقائد للجيش [٤] .

وكان لها أيضاً قوة من الشرطة لحماية القوافل والطرق من غزوات البدو ، وهي مكونة من رماة النبال والخيالة أو الهجانة . تسند رئاستها عادة إلى الزعماء والأغنياء ، وكانت قوة الشرطة توضع تحت حماية الإلهين (آرصو) وعزيز و(العزى) إلهي القوافل ، إلى جانب ذلك كان هناك قوة من المليشيا تعسكر عند الآبار واستراحات القوافل وفي المناطق المهمة من الصحراء [٥] .

---

(١) عاقل : المرجع المتقدم ص ١٣٨ .

(٢) العلي : محاضرات ٥٢/١ .

(٣) عاقل : المرجع المتقدم ١٣٤ .

(٤) العلي : محاضرات ٥٢/١ .

(٥) العلي : المرجع نفسه ٥٣/١ .

إلى جانب ذلك أنشأت الحكومة جيشاً نظامياً قوياً استطاع أن يخيف الفرس ويلحق بهم الهزائم ويكبدهم خسائر مادية ومعنوية وينتزع من الرومان بلاد الشام ومصر التي كانت تُعدُّ من أغنى ممتلكاتهم الأمبراطورية . وقد بلغ قوام الجيش التدمري عندما التقى أمبراطور الرومان أورليان زينب عند حمص عام ٢٧١م ومعه نحو سبعين ألفاً [1] .

وكان الجيش التدمري يتألف من كتائب الفرسان والمشاة والفرق الثقيلة المسلحة بالمجانيق وآلات الحصار ، ففي عام ٢٦٤ م سار الجيش التدمري إلى طيسفون (المدائن) عاصمة الساسانيين وألقى الحصار عليها ونصب المجانيق وآلات الحصار لفتحها [2] . وقد صمد هذا الجيش الذي قاده قادة عسكريون أكفياء ذوو خبرات قتالية أمثال زبدا قائد الفرسان وزباي قائد القواسين ، وصمد هذا الجيش في مناسبات عديدة ضد تطاولات الفرس والرومان على حدود البلاد ، كما جعل من تدمر عاصمة لمملكة قوية تضم الشام ومصر وآسية الصغرى .

لذا تعزز الأمن فصمدت أمام الغزو والعدوان ، وبفضل هذا الجيش التدمري النظامي استطاعت أن تشيد امبراطورية التجار في أوج مجدها السياسي والعسكري.

وكان على رأس السلطة ملوك ينتمون إلى أسر ثرية ، وعلى رأسها آل أذينة ويساعدهم على الحكم مستشارون ورجال البلاط وكبار الموظفين وقادة الجيش .

وكان بلاط الملكة زينب يضم طائفة من الفلاسفة والمؤرخين والكتاب ، وقد ركز أذينة السلطات المدنية والعسكرية بيده لصالح الفئات التجارية العليا مما قلص سلطات المجالس الشعبية كما ذكرنا .

---

[1] علي : المرجع المتقدم ١١٩/٣ .

[2] علي : المرجع نفسه ٩٥/٣ .

وإلى جـــانب الأهميــــة التاريخية للقانون التدمري المالي من حيث كونه وثيقة تعكس لنا جوانب مهمة من أوضاع تدمر الاقتصادية والمالية والإدارية والسياسية كـــان يشــــير إلى مســـتوى التطور الذي بلغته دولة مدينة القوافل في أوج مجدها الاقتصادي والسياسي والعسكري .

الفصل السادس

مملكة الحضر

- مقدمة .
- عوامل نشوء الحضر .
- تاريخ الحضر .
- حضارة الحضر .



مملكـــة الحضـــر

مقـــدمـــة :

الحضـــر مديـــنة واســـعة تكثر فيها المباني المشيدة بالحجر المهندم ، والمزينة بالـــزخارف والـــتماثيل ، وهي واقعة على بعد ١٤٠ كم من الموصل إلى جنوبها الغربي ، ومنطقتها بادية لا تتوافر فيها المياه الجارية ، ولا الزروع الوافرة ، شأنها في هـــذا شأن تدمر ، والبتراء ، وغيرهما من المدن الصحراوية التي نمت وازدهرت في ظرف خاص ملائم لوجودها في أماكن منعزلة واقعة على طرف البوادي المحاددة ، أو الفاصـــلة بين امبراطوريتين عظيمتين ، الرومانية والفرثية ، اقتسمتا العالم القديم في القـــرون الأولى لـــلميلاد ، وكان بينهما صراع مستمر على السيطرة ، وبسط النفوذ ، وقد سخرتا إمكاناتهما المادية والبشرية للفوز في ذلك النِّزاع ، وقد بذلت كل منهما جهداً كبيراً ومالاً وفيراً لكسب ود القبائل العربية ، ولعلماء الآثار آراء في أصل التسمية [١] .

عوامل نشوء الحضر :

الحضـــر عاصمة لمملكة يرجع كثير من الباحثين أصول حكامها إلى أصول عـــربية ، وكانت لها حدود طبيعية هي دجلة من الشرق والفرات من الغرب [٢] ،

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٦٠٩/٢ .

[٢] الطـــبري : المصـــدر المتقدم ٤٧/٢ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٣٨٧/١ . ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمـــد) العـــبر وديـــوان المبتدأ والخبر ، منشورات مؤسسة الأعلمي ج١ ص ٢١٨ . ابن منظور : المصدر المتقدم مادة حضر .

وكذلك جبال سنجار من الشمال ، ومشارف المدائن من الجنوب ، إلا أن نفوذها امتد في الشمال إلى ما وراء سنجار ، فوصل إلى الخابور ونصيبين ، وهي إحدى الدويلات التي كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي ضمن السيطرة العامة للأمبراطورية الفرثية في العصر الذي أطلق عليه المؤرخون العرب ومنهم المسعودي اسم عصر ملوك الطوائف [(١)] ، لأن نظام الحكم كان يقوم على طوائف لكل منها سلالتها الحاكمة المتمتعة بشبه استقلال في إدارة شؤونها الداخلية ، وفي ممارسة حرياتها ونظمها الدينية والقومية ، ولها حق ضرب النقود وجباية الأموال ، ولكنها مرتبطة بالمركز الفرثي في طيسفون (المدائن) بالدفاع المشترك ، وذلك عن طريق تقديم الرجال والمعدات والمال عند الحاجة .

وتعرف بلاد مملكة الحضر باسم عربايا أي بلاد العرب [(٢)] ، فبعد أن سقطت مدينة نينوى عام ٦١٢ ق.م ، وزال كيان الآشوريين من مسرح التاريخ إلى الأبد ، بعد أن ظلوا يهيمنون على بلاد الشرق الأوسط ، ويتحكمون بها لمدة تجاوزت مئتي عام ، انهارت تحصيناتهم ، وتداعت ثغورهم ، ومنها التي كانت على الفرات ، لذلك أخذت قبائل عربية جديدة تتدفق إلى جزيرة بادية العراق الشمالية من الغرب والجنوب الغربي ، وحدثت هجرة واسعة جديدة امتدت شمالاً من نصيبين وديار بكر ، فزعزعت الاستقرار في جميع بلدان الشرق ، وأدت تلك الزعزعة والتحركات البشرية إلى نمو كيان الأنباط في منطقة البتراء كما سلف الحديث عنها في فصل متقدم ، وإلى اندفاع قبائل عربية جديدة شمالاً إلى ما وراء مدينة الرها وإلى سهل أنطاكية ، وكان تدفق القبائل سريعاً وكبيراً حتى إن الأقاليم

---

(١) المسعودي : المصدر المتقدم ٢٥٧/١ وما بعد .

(٢) علي : المرجع المتقدم ٦١١/٢ .

الشمالية من ما بين النهرين صارت تعرف بعد سقوط نينوى بنحو قرن من الزمن باسم عربايا نسبة إلى العرب [1] .

ويبدو أن أرض الحضر كانت فيها منذ زمن الآشوريين قرية نشأت على المناقع التي تتجمع فيها مياه الأمطار المنسابة من المنحدرات المجاورة إلى أرض الحضر ، أو التي تسير تحت الأرض في سرب ، ثم تظهر في البثوق التي تكثر في أطراف تلك القرية . ولا يعرف مكان آخر في جزيرة البادية الشمالية فيه مثل هذه المياه من الوفرة والعذوبة . وقد ساعدت هذه المياه الفائضة على غسل أرض الحضر ، وحمل أملاحها إلى وادي الثرثار الواقع على بعد ثلاثة كيلو مترات شرقيها . وبذلك يكون هذا الوادي منْزلاً طبيعياً لبادية الجزيرة ، حيث تنصبّ فيه المياه من منحدرات سلسلة جبال سنجار إلى منخفض الثرثار الواسع الطويل الذي يمتد جنوباً حتى ينتهي بمنخفض واسع يقع على بعد سبعين كيلو متراً من شمالي غربي بغداد .

ولقد كانت تلك القرية أشهر مركز للقبائل التي حلت في بادية الجزيرة الشمالية ، وأخذت على مر الأيام تستقر بقربها في مواسم الربيع نظراً لكثرة المراعي حولها ، وتوافر المياه فيها ، فقد أنشؤوا لهم فيها بيتاً للأصنام كانوا يقدمون إليه نذورهم ، ويحجون إليه في أعيادهم ويدفنون بالقرب منه ، وكانت الشمس أشهر آلهتهم فقد عبدت باسم شمش أو شمشا في الحضر .

ثم توسع ذلك المستوطن ، ولا سيما بعد فتح الاسكندر المقدوني (٣٣١-٣٢١) ق.م لبلاد الشرق ، وما أعقب ذلك من تأسيس مدن وظهور شبكة من

---

[1] سفر ومصطفى : (فؤاد ومحمد علي) مملكة الحضر ، مدينة الشمس ، وزارة الإعلام ، مديرية الآثار العامة الجمهورية العراقية ص ٥ .

الطرق والمسالك تتشعب من بابل إلى جميع الجهات .

والحضر تقع على أحد طريقين يربطان بين عاصمتي السلوقيين ، سلوقية الواقعة في أرض المدائن على دجلة وأنطاكية الواقعة على سهل الإسكندرية في أعلى سورية ، وقد اتسعت الحضر وصارت مدينة كبيرة بعد بزوغ أهميتها العسكرية للدفاع عن الأمبراطورية الفرثية منذ الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في آسية الصغرى مع الرومان ٦٩-٥٧ ق.م . ومنذ ذلك الوقت استمر خطر الرومان طوال العصر الفرثي . ولذلك برزت أهمية القبائل العربية التي أصبحت الحضر أكبر مركز لها لكونها قوة عسكرية أساسية يحسب لها الحساب في الدفاع والهجوم [1] .

وقد ساعد الحضر على القيام بهذه المهمات العسكرية تمرس أهلها في شؤون الحرب ، ونزعتهم التواقة إلى الحرية والاستقلال ومكانة الحضر الدينية بين القبائل وموقعها الجغرافي النائي [2] .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الحضر لقيت حافزاً آخر ساعد على نموها بالإضافة إلى العاملين الديني والعسكري المذكورين آنفاً ألا وهو التجارة ونقل البضائع ، فقد كانت الحضر تسيطر على طرف القوافل المتنقلة في بادية جزيرة العراق . إذ كانت الحضر تسيطر على طرف القوافل المتنقلة في بادية جزيرة العراق . إذ كانت السفن تأتي من الهند والصين إلى الموانئ الواقعة في أعالي الخليج محملة بالحرير والتوابل والأخشاب والعطور والأحجار الكريمة ، وتعود إلى بلادها بمنتوجات الشرق العربي القديم وأوربة من ملابس صوفية وتحف عاجية ومعادن وخمور [3] .

---

[1] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص ٥ .

[2] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص (١٧-١٨) .

[3] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص ١٩ .

أمـــا الزراعة فلم تكن في بادئ الأمر ذات أثر كبير لأنها محدودة حول مدينة الحضـــر لشح الأمطار ، غير أنها أصبحت فيما بعد من العوامل المهمة لاقتصاديات المديـــنة بعدما امتد نفوذ الحضر إلى السهول والسهوب الواسعة الممتدة إلى سنجار وتلعفر حيث تكثر الأمطار فتكون الغلة وافرة [1] .

وهذا التحليل لعوامل نشوء الحضر وزوالها يفسر لنا كذلك السبب في عدم ظهور مدينة أخرى في بادية العراق قبل الحضر ولا بعدها لأنه لم يكن لها مثل هذه العوامـــل ، والظروف في الأزمنة التي سبقت عصر الحضر ، ولم تتكرر في الأزمنة الـــتي لحقـــت ذلك العصر ، ولهذا فإن الحضر درة يتيمة في سلسلة الدرر المكونة لتاريخ العراق .

تاريخ الحضر :

إن مـــا تـــزودنا بـــه الكتابات الحضرية تجعلنا ننشئ صفحات من التاريخ السياسي للحضر بعد مقارنته بما هو معروف عن الفرثيين ومدينة الحضر في كتب اليونان والرومان وتآليف المؤرخين والبلدانيين العرب ، ولكن ذلك لن يكون نهائياً لأنـــه لم يكشـــف في الحضـــر إلا عن نص يربط بين النتائج العلمية من التنقيب والتحري في هذه المدينة ، والأحداث التاريخية المعروفة من العصر الفرثي .

وبمساعدة النقوش والمعلومات المتيسرة يمكننا أن نقسم تاريخ الحضر إلى ثلاثة أدوار وهي :

١- دور التكوين .
٢- دور السادة .
٣- دور الملوك .

---

[1] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص ٢٠ .

١- دور التكويـــن :

لا يعرف متى بدأ هذا الدور ، إلا أن الحضر أخذت تنمو منذ منتصف القرن الأول قــبل الميلاد حصناً منيعاً ، وكان سادتها مستفيدين من الخلاف الذي كان بين الفرث واليونان ، فقد استغلوه بذكاء وحنكة فحصلوا على أموال من الجانبين لما لموضعهم من الشأن العسكري والسياسي والاقتصادي . وكانوا كلما زاد مالهم وبرزت أهميتهم ازدادت المدينة توسعاً ، وبهاءً وعمراناً ، حتى صارت مدينة كبيرة ذات شأن سكنتها جاليات أجنبية أيضاً أنجزت ، وتولت الوساطة في البيع والشراء ونقل تجارة آسيا إلى تجارة أوربة ، وتجارة أوربة وحاصلاتها إلى تجار آسية [١] .

وقد انتهى هذا الدور نحو منتصف القرن الأول للميلاد بظهور حكم الحكام الذيـــن كـــان كـــل منهم يلقب بـــ (مريا) أي السيد ، وقد اهتم هؤلاء الحكام كـــثيراً بإعـــادة بـــناء المعبد الكبير ، وتجميله ، وينسب إليهم كذلك بناء معظم المعابد الصغيرة [٢] .

يـــبدو أن الســـلطة في الحضر في دور تكوينها ، كانت موزعة بين الشيوخ الذيـــن كانوا يعرفون بكلمة ربا أي الزعيم ، أو العظيم ، وبين السدنة الذي يطلق على الواحد منهم لقب (رب ـــ بيتا) أي صاحب البيت ، والمقصود بالبيت المعبد الكبير ، وهو مسؤول عن سلامة المعبد ومحتوياته ، ونظافته ، وعن زيادة كنوزه ، وأوقافه وهي ليست مرتبة دينية لأن الأمور الدينية كانت موكلة إلى كهنة يرأسهم (الأفكل) أي رئيس الكهنة ، ويليه قشيشا أي القسيس ، ومن ثم (كمرا) الكاهن و(كمـــرتا) الكاهـــنة . وفي الوقـــت ذاته كان لقادة الجيش ، ولأرباب القوافل

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٢/٦٠٩-٦١٠ .

[٢] سفر ومصطفى : المرجع المتقدم ص ٢٦ .

الـــتجارية نفوذ في تسيير أمور المدينة التي يظن أنها كانت تدار في اجتماعات بهيئة مجـــالس للتشاور وإقرار السبل الناجعة ، فقد وجد داخل المعبد الكبير مدرج من الممكـــن أن تـــلك الاجتماعات كانت تعقد فيه . ويبدو أن هذه المراتب العليا في المديـــنة مقصـــورة عـــلى ذوي الحسب والنسب ولكن المقدرة والجدارة تؤديان دورهمـــا ، ولا يكون التنسيب لمنصب أو لعمل مهم مقبولاً إلا بآراء أغلبية أعضاء المجلس ، وأحياناً بآراء أهل المدينة جميعهم .

وفي دور الـــتكوين توسع المعبد الكبير وربما تمت محاولة لتحويطه بسور من الحجر وجدت أسسه في ضلعه الشرقي ، وكانت له أبراج نصف دائرية .

٢- دور السادة :

استمر هذا الدور ما يقارب قرناً من الزمن تلاه تأسيس الملوكية نحو منتصف القـــرن الـــثاني لـــلميلاد ، وقـــد تعاقبت على الزعامة فيه أشخاص يلقبون بمريا (أي الســـيد) لذا يصح لنا أن نطلق على هذه الفترة دور السادة ، ومن المحتمل أن هـــؤلاء السادة كانوا من عائلة واحدة ، وكانت الحضر في زمنهم تقوم بتصريف شؤونها الخاصة .

ويظـــن أن ذلـــك الدور استمر إلى نهاية حملة تراجان في عام ١١٧م ، ومن الأحـــداث الجســـام في مطلع هذا الدور اشتداد الخلاف بين الفرثيين والرومان ، والـــذي انـــتهى بعقـــد معاهدة صلح برغبة صادقة من الطرفين في سلام دائم ، وأصبحت نافذة المفعول عام ٦٥ م .

وقـــد انتعشت الحضر كثيراً في فترة السلم ، وأثرى أبناؤها ، ويبدو أن من أبـــرز الشخصيات فيها أو أعظمها كان نشريهب السيد الذي صار أحفاده فيما بعد ملوكاً .

ولما تولى تراجان العرش في روما أخذت دعائم السلم تتداعى فتبلورت فكرة تحصين الحضر للدفاع عن العاصمة طيسفون وتحويلها إلى قاعدة عسكرية تجند فيها القبائل العربية للقتال في صف الجيش الفرثي لصد الرومان ومنعهم من عبور الفرات . ومن المؤكد أن تحصين المدينة استغرق سنين عديدة ، وشغل أكثر من حاكم واحد ، وتطلب ذلك استقطاب عدد كبير من البنائين والنحاتين ، وأصحاب الصناعات الأخرى للعمل في هذا المشروع الواسع [١] .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت تعرف الحضر بمناعة أسوارها وبشجاعة أبنائها ، والصمود أمام الحصار الذي ألقاه تراجان حولها ، ويظن أن حاكمها آنذاك هو نصرومريا (السيد) الذي عمر طويلاً وترك أعمالاً عمرانية جليلة .

وبعد حملة تراجان بدأت فترة سلم واستقرار دامت نحو خمسين عاماً ، وشيد خلالها المعبد الكبير (باستثناء خلوة الشمس) الذي أصبح من أوسع الأبنية وأجملها في بلدان الشرق القديم ، وينفرد عن غيره من المعابد التي شيدت لإله الشمس في كل من تدمر ومنبج وبعلبك والبتراء بالأواوين التي هي الطراز السائد في عمائر الحضر .

توفي نصرو في نحو عام ١٣٥ م ، فترأس الحضر من بعده نشريهب السيد ، وهو الشخص الثاني من الزعماء الذي سمي بهذا الاسم ، وجاء بعده معنو السيد في نحو ١٥٠ م ثم تولى الزعامة ولجش ، ويظهر أنه أول من نصب نفسه ملكاً على الحضر واتخذ له لقب " ملك العرب " أي ملك سكان بادية شمالي العراق رعية لملكه وهذا يعني أن الحضر بلغت من المناعة والشهرة والنفوذ شأواً مكنها من أن تصبح قاعدة لمملكة العرب ، وأن تكون لها الحرية التامة في إدارة شؤونها بنفسها [٢] .

---

[١] سفر ومصطفى : المرجع المتقدم ص ٢٩ .

[٢] سفر ومصطفى : المرجع المتقدم ص ٣٠ .

٣- دور الملــوك :

بدأ هذا الدور بعد منتصف القرن الثاني للميلاد بقليل وانتهى بسقوط الحضر في عام ٢٤٠م أو ٢٤١م .

وفي دور المــلكية تمتعت الحضر بقسط أوفر من الاستقلال ، وتوسع نفوذها حــتى بلغ فيما بعد نهر الخابور . ومن المحتمل أن ولجش كان أول من نصب نفسه ملكاً كما أشرنا .

وفي هــذا الــدور خرق الملك الفرثي السلم ، وكان في أثنائها يحكم الحضر ســنطروق الأول بــن نصر والسيد ، فاتخذ موقفاً حكيماً محايداً تجاه تلك الحرب الخاطفــة ولا سيما أن البيت المالك الفرثي كان مضعضعاً بسبب الصراع المستمر بــين أبنائه ، ولعل سنطروق أول من ضرب النقود في الحضر ، وعليها النسر رمز الإله الشمس ، وكتب عبارة (الحضر مدينة الشمس) على أحد الوجهين ، ورسم صورة الإله الشمس على هيئة شاب حول رأسه هالة مشعة على الوجه الثاني ، وما الحرفان S C المضروبــان على هذه النقود واللــذان يعنيــان أن الضــرب كان برخصة من مجلس الشيوخ بروما إلا دليل على أن ملك الحضر قد نال رضى رومــة ، إلا أن هذا الاستنتاج متسرع نوعاً ما لأن مسكوكات الحضر لم تدرس ولم يحدد زمنها بعد [١] .

وقــد شيد سنطروق المعبد المربع الذي كان خلوة للشمس أو أكمل بناءه ، ومــن أعمالــه العمرانية الأخرى مساهمته في تشييد السور الشمالي للمعبد الكبير والأروقــة المجــاورة له ، ولقب نفسه ملك العرب ، وقد يعني هذا أن نفوذه امتد بعيداً في الجزيرة ، وساعد على ذلك السلام والاستقرار اللذان سادا بلدان الشرق

---

[١] سفر ومصطفى : المرجع المتقدم ص ٣١ .

في زمنه ، واستمرا مدة ناهزت الثلاثين عاماً .

ولما اعتلى عبد سميا العرش حاول سفيروس (امبراطور رومة) الاستيلاء على الحضر لكنه فشل مرتين ، ولما خلف سنطروق الثاني أباه عبد سميا كانت الحضر ما تزال تنعم بمكاسب صمودها ، وقد ذاع صيتها ، وامتد نفوذها بعيداً إلى الخابور ، وعبر الفرات مما دفعه أن يلقب نفسه " المظفر ملك البلاد العربية " ويبدو أن سنطروق اتخذ هذا اللقب لأنه تولى بنفسه الدفاع عن المدينة زمن أبيه الذي من المحتمل أنه كان طاعناً في السن . وأصبحت الحضر تتصل بمن تشاء وتحالف من تشاء . لها الاستقلال الكامل في تصرفاتها واتصالاتها .

وقد قاد عبد سميا جيوش الحضر ضد أردشير وحالف الرومان في عهد اسكندر سفيروس (٢٣٨م) وجعل الحضريين ينعمون بعيش رغيد ، ثم بدؤوا يدخلون في المحنة التي أودت بحياتهم إلى الأبد فقد حاصرها الأمبراطور الساساني شابور الأول ٢٤٠ م لمدة سنة اضطرت أخيراً إلى الاستسلام بعد أن فقدت القدرة على الصمود ، فدخلها منتصراً ، واكتفى بأسر أبنائها ، وأخذ كل ما فيها من غال ورخيص ، ويرى بعض الباحثين أن سقوطها يرجع إلى خيانة أميرة اسمها النضيرة بنت الضيزن ملك الحضر ، وذكروا أنها دلت سابور على طريقة لدخول المدينة [1] ، بيد أن اسمها واسم أبيها لا وجود لهما في كتابات الحضر ، وليس من دليل على أنهما شخصيتان تاريخيتان [2] .

ومع ذلك يستشف من كتب التاريخ العربية القديمة التي تتردد فيها هذه القصة وأخبار أخرى عن الضيزن أن قبائل عربية جديدة كثيرة العدد دخلت

---

(١) ابن هشام : المصدر المتقدم ج١ ص ٧٤ قارن الطبري : المصدر المتقدم ٤٨/٢-٤٩ . الحموي : المصدر المتقدم مادة حضر . ابن خلدون : المصدر المتقدم ١٧٠/٢-١٧١ .

(٢) سفر ومصطفى : المرجع المتقدم ص ٣٤ .

العراق من الغرب في الوقت الذي توغل فيه الساسانيون من الشرق في الفترة التي بدأت فيها الدولة الفرثية بالاضمحلال .

وتذكـــر تلك المراجع أن العرب النازحين تحالفوا فيما بينهم تحت اسم تنوخ وأسسوا مدينة الحيرة مركزاً مرحلياً انتشروا منه في العراق وبلاد الشام . وقد أغار عـــليهم ســـابور ، فذهـــب أغلبهم بعد هزيمتهم إلى الحضر ، وكان على رأسهم الضـــيزن بن معاوية التنوخي الذي يذكر نسبه بأشكال أخرى . ومن المحتمل أن الضـــيزن ومن معه احتموا بأسوار الحضر برضى من ملكها سنطروق أو بالتحالف معه ، وقد حارب الملكان سنطروق والضيزن في صف واحد للدفاع عن المدينة ، ويفســـر لنا الالتباس الحاصل بين اسميهما لدى بعض المؤرخين ومنهم الطبري [١] الـــذي نقـــل لـــنا روايـــات عن أصل الضيزن تقول أحداها إن ملك الحضر هو الساطرون ، وهو " الذي تسميه العرب الضيزن " وما الساطرون إلا صيغة محورة عـــن اسم سنطروق [٢] . وحسب رأي أهل الأخبار أن الحضر من عرب قضاعة نزلوا هذه المواضع في زمن لم يحددوه ، وأقاموا هناك [٣] .

حضـــارة الحضـــر :

١ – الديانة :

استقت الديانة الحضرية معتقداتها وطقوسها وفرائضها من أربعة منابع هي : الآشـــورية البابـــلية ، والإغريقية الرومانية ، والفارسية القديمة من مزدائية وزردشتية وأخيراً ديانة القبائل التي قوامها المظاهر الطبيعية والعوامل المؤثرة في حياة

---

[١] الطبري : المصدر المتقدم ٤٧/٢ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٣٨٧/١ .

[٢] ابـــن خلدون : المصدر المتقدم ١٧٠/٢-١٧١ . ابن كثير : المصدر المتقدم ٢٢٨/٢ . والساطرون معناه بالسريانية الملك . ابن هشام : المصدر المتقدم ٧٣/١ حاشية .

[٣] علي : المرجع المتقدم ٦١٩/٢ .

الرعي والتنقل وطابعها الميل إلى التبسيط والتوحيد في المعتقد والعبادة .

وللديانة الحضرية طابع خاص يميزها من تلك الديانات الأربع ، بيد أنها تتألف من شتيت من كل ما اقتبسته بسلسلة من عمليات غير طوعية من انتقاء وتنسيق وتمثيل ، وقد خصوا الشمس بالأولية في عباداتهم ، وهي عندهم مذكر تعرف باسم شمش أو شمشا ، ويعدونها كبير الآلهة . بل إن الحضر جميعها ملكاً له.

ولدى الحضريين تثليث يتردد ذكره بكثرة في أدعيتهم وأقسامهم مرن ومرتن وبرمرين أي الأب والأم والابن ، يقابله لدى القدماء بأشكال مختلفة يتألف أحدهما من شمش وسن عشتار أي من الشمس والقمر والزهرة [١] .

ومن الآلهة المشهورة جداً عند الحضريين نرجول أو نرجل الذي لم يخل معبد في الحضر من صنم واحد له أو أكثر ، وهو إله للحرب وحارس لعالم تحت الأرض حيث مصير الأرواح [٢] ، وتردد اسم اللات في الكتابات الحضرية [٣] .

ومن معبودات الحضر مجموعة مكونة من سبعة آلهة تمثل الكواكب الخمسة المعروفة لديهم ، بالإضافة إلى الشمس والقمر . ولقد كان لكل من آلهة هذه المجموعة يوم من أيام الأسبوع ، ولا تعرف أسماء هذه الآلهة باستثناء الشمس والقمر [٤] .

٢- الفن :

يعرف الفن في الحضر بالدرجة الأولى من أبنيتها الباقية على شكلها الأصلي تقريباً ومن تماثيلها كثيرة العدد والنوع .

---

[١] سفر ومصطفى : المرجع المتقدم ص ٤١ .

[٢] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص ٤٣ .

[٣] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص ٤٤ .

[٤] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص ٤٥ .

وتـــتميز العمـــارة في هـــذه المدينة في دور نضوجها عما هي عليه في المدن المعاصـــرة أو الأقـــدم زمـــناً في نواحٍ كثيرة تشمل الفصال والتصميم والزخرفة ، وتعـــتمد العمـــارة في الحضر الإيوان في أسلوبها ، ويقل استخدام الأعمدة فيها ، وتكـــون الزخـــرفة فيها مركزة في واجهة البناء ، وعلى الأقواس أكثر مما هي في الداخل والجوانب ، وتمتاز هذه الزخرفة بعناصر متنوعة موزعة بشكل جيد [١] .

والحضـــر غنية بالمنحوتات فقد وجدت في معابدها مجاميع كبيرة من أصنام لآلهـــة مختـــلفة وتمـــاثيل لأفـــراد مـــن العائلة الحاكمة فيها ، ومن رجال الدين وأربـــاب المـــال ، وقادة الجيش وغيرهم من علية مجتمعها . وأصنام آلهتها صغيرة الحجـــم في الغـــالب ، مصـــنوعة من الحجر أو النحاس وجد معظمها في المعابد الصـــغيرة . أمـــا تماثيل الأشخاص فهي غالباً بحجم الإنسان أو أكبر بقليل ، وهي مصنوعة من أحد نوعين من الحجر موجودين في منطقة الحضر ، الحجر الكلسي ، والرخام الموصلي [٢] .

وتشـــاهد في التماثيل أزياء مختلفة في فصالها وزخارفها ، وهي تمثل ملابس أفـــراد الطـــبقة العـــليا من سكان المدينة الذين صنعت لهم تماثيل لخدماتهم العامة أو لمنْزلـــتهم الاجـــتماعية . ويلاحظ في هذه الملابس مشابهتها الواضحة للملابس اليونانيـــة .

ولا يعـــني هـــذا أن الأزيـــاء العراقية القديمة التي كان يرتديها الآشوريون والبابليون قد اختفت تماماً إذ لا بد أنها ظلت مستعملة بشكل أو آخر في الأرياف وبـــين الطبقة العامة مع أنها غير ممثلة في المنحوتات الحضرية ، ثم إن تبدل الأزياء

---

[١] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص ٥١ .

[٢] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص ٥٢ .

لـدى الطـبقة الحاكمة في المجتمع المدني أوسع وأسرع من تبدلها في الريف وبين عامة الناس [1] .

٣- العمـارة :

لـلعمارة في الحضـر أساليبها الخاصة في طريقة البناء ومادته ، في التصميم والزخرفة فهي تتسم باستعمال الحجر المنجور ، والجص بكثرة وباستخدام الإيوان عنصـراً أساسياً في التصميم ، وبتزيين واجهة الأواوين في المعبد الكبير ، بتماثيل وزخارف وأعمدة وأنصاف أعمدة موزعة بأسلوب معين .

تقسـم الأبـنية في الحضر إلى نوعين أحدهما مشيد باللبن والملاط الجص ، وثانيهما وهوالبارز مشيد بالحجر المنجور والجص ، والحضر من أقدم المدن المعروفة التي استعمل فيها الجص على نطاق واسع ، فقد كان الملاط المستعمل في البناء في المدن القديمة مثل آشور ونينوى وبابل من الطين عادة ، وأحياناً من القار .

---

[1] سفر ومصطفى : المرجع نفسه ص ٥٥ .

الفصل السابع

مملكة الغساسنة

- مقدمة .
- ملوك الغساسنة .
- حضارة الغساسنة .



مملكة الغساسنة

مقـــدمـــة :

بـــنو غسان قبيلة عربية من أزد اليمن ، خرجت قبل تصدع سد مأرب ، أو بعده بقيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء إلى سورية الجنوبية بعد أن أقاموا مدة من الزمن في جنوب الحجاز وفي يثرب [1] .

وسموا الغساسنة نسبة إلى ماء يُقال له غسان في تهامة ، ويقع بين زبيد وزُمَع (وادي الأشعريين باليمن) ، وقد نزلوا على هذا الماء بعد خروجهم من اليمن [2] .

والمصادر التي بين أيدينا لم تذكر أكان سبب خروجهم من تهامة حرباً هزموا فيهـــا ؟ أم باختيارهم ؟ وإنما ذكرت تفرقهم في البلاد ، فنَزل آل جفنة عمرو بن عامـــر مزيقيا الشام ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مر الظهران ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان عمان [3] .

وعـــند وصول آل جفنة بلاد الشام نزلوا في حوران والجولان ، وفي غوطة

---

[1] ابـــن قتيـــبة الدينوري : (أبو محمد عبد الله بن مسلم) المعارف . طبعة دار الكتب المصرية وطبعة المطبعة الإســـلامية بمصـــر الأزهـــر ١٣٥٣ هـــــ ١٩٣٤ م ص ٢٧٩ . اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢٠٣/١ . المسعودي : المصدر المتقدم ٨٣/٢ . الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ص ٨٩ .

[2] الهمداني : المصدر المتقدم ١٢٢ . ابن دريد : (أبو بكر محمد بن الحسن) الاشتقاق ـــ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـــ نشر مؤسسة الخانجي بمصر مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٨ هـــ ـــ ١٩٥٨ م ص ٤٣٥ .

[3] ابن كثير : المصدر المتقدم ١٩٦/٢ .

دمشق وأعمالها ، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام [١] .

وليس هناك تحديد دقيق للتاريخ الذي استوطن فيه الغساسنة الشام ، لأن ما ذكره الأخباريون عن هذا الجيل من العرب فيه كثير من الاختلاف وشيء من التناقض مع الإجماع على حقيقة واحدة لا مجال للاختلاف فيها ، وهي أن الغساسنة استوطنوا الشام بعد الميلاد ، وقبل الإسلام طوال عدة مئات من السنين.

وقد عرف الغساسنة بآل جفنة ، وبأولاد جفنة لانتسابهم إلى جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر بن الأزد جدهم الأعلى ، وأول ملوكهم [٢] .

ولعلهم عندما نزلوا الشام ، كان بها قوم من العرب يعرفون بالضجاعمة من بني سليح بن حلوان من قضاعة ، وقد كانوا عمالاً للروم ، فعاش الغساسنة لجوارهم ، ودفعوا الأتاوة مدة من الزمن ، ولما شعروا بقوتهم رفضوا دفع الأتاوة وقامت الحرب بين الطرفين فانتصر الغساسنة واندحرت سليح ، وهجرت المنطقة، وصار الملك إلى غسان [٣] ، دونما أي تدخل من السلطة الرومانية التي كانت الشام في واقعها مرتبطة بتاج الأمبراطورية البيزنطية لأن الرومان كانوا وقت الصراع بين الغساسنة والقضاعيين في شغل شاغل بسبب المعارك الدائرة بينهم وبين أباطرة الفرس [٤] ، ثم بينهم وبين آل أذينة من قوم الزباء في تدمر ، يفسر ذلك مسارعة الرومان إلى التودد إلى الغساسنة ، والاعتراف بملكهم على الشام ، وعقدهم معهم معاهدة تضمنت حلفاً عسكرياً بين الرومان والغساسنة [٥] . ومنذ

---

[١] المسعودي : المصدر المتقدم ٨٣/٢ .

[٢] الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ٨٩-٩٠ .

[٣] المسعودي : المصدر المتقدم ٨٢/٢-٨٣ . الأصفهاني : (حمزة) المصدر نفسه ص (٨٩-٩٠) .

[٤] ابن خلدون : المصدر المتقدم ٢٧٩/٢ .

[٥] ابن خلدون : المصدر نفسه ٢٧٩/٢ .

نحـو عـام ٢٩٢ م [١] صـار الغساسنة حكاماً على مناطق محددة ، ومتناثرة من الشام، تتم توليتهم من قبل أباطرة الروم .

وقـد عـرفت المنطقة التي سكنوها بتربتها الخصبة الغنية ومياهها الوفيرة ، واسـتغل الغساسنة ذلك واستفادوا من خبرتهم الزراعية القديمة فازدهرت الزراعة لديهم وقوي اقتصادهم فتطورت القوى المنتجة وظهرت الملكية الخاصة ، ونشأت مملكة الغساسنة .

ملـوك الغسـاسنـة :

اختـلفت آراء المؤرخين في أول ملك للغساسنة ، وكذلك اختلفوا في عدد ملوك أسرتهم المالكة [٢] ، ولا غرابة في ذلك ، فتاريخ ما قبل الإسلام لم يكن من السهل ضبطه ، ولا سيما لدى الأخباريين الذين لم يبلغوا الذروة في ضبط أحداث التاريخ إلا بعد أن نبغ منهم بعد الإسلام نوابغ ، وضعوا قواعد وضوابط وأصول ضبطوا فيها الأحاديث النبوية والشؤون الأخبارية التاريخية الأخرى .

وقـد دفع هذا الاختلاف نولدكه [٣] إلى دراسة معظم القوائم التي أوردها الأخـباريون ، ونقدهـا وغربلها ، وقارن الحاصل بما وجده في المصادر السريانية والبيزنطية ، واستخلص من تلك الدراسة القائمة التالية :

- أبو شمر جبلة حكم في نحو ٥٠٠ م .
- الحارث بن جبلة حكم من سنة ٥٢٩-٥٦٩ م .

---

(١) De-perceval (a. P. caussin), Essaiisurl'. Histoire des Arabes, Paris, 1947, vol 2, 204 .

(٢) الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ٩٠ وما بعد . ابن قتيبة : المعارف ص ٢٨٠ .

(٣) نولدكـه : (ثيـودور) أمراء غسان . ترجمة بندلي جوزي . وقسطنطين زريق ـــ المطبعة الكاثوليكية ـــ بيروت ١٩٣٣ م ص ٥٧ .

- أبو كرب المنذر بن الحارث حكم من سنة ٥٦٩-٥٨٢ م .
- النعمان بن المنذر حكم من سنة ٥٨٢-٥٨٣ م .
- الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر .
- الحارث الأعرج بن الحارث الأصغر .
- أبو حجر النعمان (ابن الحارث الأصغر) .
- حجر بن النعمان .

(حكم من سنة ٥٨٣-٦١٤ م .)

+ + +

- جبلة بن الأيهم نحو سنة ٦٣٥ م .

بدأ ملكهم كما عرفنا بتولي أول ملك منهم هو جفنة بن عمرو ، وكان ذلك نحو ٢٤٨ م ، فإذا قبلنا قول نولدكه نقبله على أساس التاريخ الحربي والسياسي للغساسنة مقروناً بأخبار قياصرة القسطنطينية ، أو ولاة الشام ، كون تواريخهم ثابتة مقرونة بتواريخ الكنيسة أو الدولة البيزنطية ، لا على أساس وجود الغساسنة في بلاد الشام ، وتعليل ذلك في اعتقادنا أن الغسانيين قضوا زمناً طويلاً في ضواحي الشام يتوارثون الإمارة ، والروم لا يعرفون عنهم شيئاً ، لأنهم لم يحتاجوا إلى نصرهم ، ولم يستخدموهم في جندهم ، والغسانيون في أثناء ذلك يحكمهم أمراؤهم ، وهم يحصون سني حكمهم ، وما زالوا على ذلك حتى احتاج الروم إليهم في محاربة الفرس ، فلما استخدموا بعضهم ومنحوهم لقب ملك ، أرخوا لذلك .

تاريخ ملوك الغساسنة السياسي والعسكري :

١- الحارث بن جبلة (٥٢٩-٥٦٩ م) :

يُعدُّ الحارث بن جبلة الملك ذو الشأن في تاريخ المنطقة ، وصاحب الصلات

مع البيزنطيين من جهة ، والمناذرة والفرس من جهة أخرى .

وقد كان له مقام رفيع عند الروم ، وكانوا يهابون سطوته ، ويعجبون بشجاعته وقد بالغوا في تقريبه وترقيته ، والخلع عليه ، وبلغ من شهرته في الشجاعة والبأس أن كانت النساء يخوفن أولادهن باسمه ، فإذا بكى الطفل أو تمرد قالت له أمه : " اسكت وإلا أتيتك بالحارث بن جبلة " [١] .

عاصر الحارث بن المنذر بن ماء السماء اللخمي ، واشتبك معه في حروب طويلة وقتل مقتلة عظيمة ، وغنم أموالاً من أمواله [٢] ، حيث أوكل الروم إليه أمر الوقوف في وجه المنذر بعد أن عجز عمالهم في الشام عن اتقاء هجمات المناذرة الذين كانوا ينشرون الهلع والدمار في ربوع الشام بإيحاء من أسيادهم الفرس ، وبقيادة ملكهم المنذر بن ماء السماء ، لذا منح الأمبراطور البيزنطي جستنيان الحارث لقب ملك ليقف في وجه المنذر [٣] ، كريماً له واعترافاً منه بمركزه الحساس ، ويشك نولدكه في رواية بروكوبيوس بشأن منح الحارث لقب ملك ذلك لأن هذا اللقب خاص بأباطرة الروم ، فلا يمنح لغيرهم [٤] ، ويعتقد أن لقب الحارث ، وغيره من آل جفنة كما هو مدون في الوثائق الرسمية هو لقب بطريق ، وعامل ، أو سيد قبيلة (فيلارخوس) [٥] وهي من ألقاب الشرف التي لا تمنح إلا لعدد قليل من رجالات الدولة الكبار ، ولصاحب هذا اللقب ، أو ذاك امتيازات خاصة ومنْزلة عليا .

---

[١] زيدان : المرجع المتقدم ص ٢٥٦ .

[٢] ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥٤٣/١ . نولدكه : المرجع المتقدم ص ١٠ .

[٣] علي : المرجع المتقدم ٤٠٥/٣ .

[٤] نولدكه : المرجع المتقدم ص ١١ .

[٥] نولدكه : المرجع نفسه ص ١٢ .

وقد اشترك الحارث بن جبلة في المعركة التي دارت رحاها بين الفرس والروم البيزنطيين عام ٥٣١ م ، والتي انتهت بهزيمة الروم .

ويبدو أن النِّزاع بين الغساسنة والمناذرة ، كان انعكاساً للصراع الذي كان قائماً بين البيزنطيين والفرس بسبب الأراضي الواقعة على جانبي الطريق من دمشق إلى ما بعد تدمر حتى مدينة الرصافة (سرجيوس) وهي مرعى مهم ، فقد ادعى كل منهما أن قبائل العرب الضاربة في هذه الأراضي تخضع لسلطانه وتدفع له الجزية ، وبسبب هذا الخلاف قامت الحرب بينهما عام ٥٤٠ م [١] .

وفي العام ٥٤١ م خرق كسرى أنو شروان بنود السلم الدائم بينه وبين الأمبراطور جستنيان وهاجم سورية ، ومعه حليفه المنذر مطمئناً إلى نصره المؤكد، مستغلاً انشغال بيزنطة بتوسيع نفوذها في أوربة وأفريقية ، واسترداد مكانتها السالفة ، وصدق ما توقعت فلم يكد الحارث يعبر نهر دجلة مع القائد البيزنطي بليزاريوس حتى ولى الأدبار ، وانسحب من الحملة ، وعاد إلى بلاده بعد أن سلك طريقاً آخر غير الطريق الذي اتبعه معظم الجيش دون أن يقوم بعمل يذكر في هذه الحرب [٢] مما أثار الشك في إخلاصه للروم .

لكن الحارث انسحب لأنه رأى سلفاً أن المعركة مع الفرس خاسرة لا محالة في ظروف الإمبراطورية البيزنطية آنذاك ، فآثر السلامة قبل أن يزج بجيشه في معركة تؤدي إلى الهلاك ، وعاد لينقذ عناصر جيشه من فاجعة قد تحل بهم ، وفعلاً أثبتت الحوادث التالية صحة رأيه ، إذ أسرع الأمبراطور جستنيان حين تأزمت الأمور بينه وبين الفرس إلى عقد اتفاق جديد تزيد بموجبه بيزنطة الجزية التي

---

[١] نولدكه : المرجع نفسه ص ١٨ . عاقل : (نبيه) دراسات في تاريخ الأمبراطورية البيزنطية . جامعة دمشق ١٩٦٧ م ، ج١ ص ٦٩ .

[٢] نولدكه : المرجع المتقدم ص ١٨ .

تدفعها للفرس ، ولمدة خمس سنوات [١] . ولم تذكر المصادر اتخاذ الرومان أي إجراء ضد هذا الملك ، لأنه من أكبر أعوانها لرد هجمات الفرس والعرب والمناذرة عن مملكة الروم ، ولأنه أبلى بلاء حسناً في حمايته ممتلكاتها الأمبراطورية فيما وراء البحار ، ولأنه أيضاً ذو قوة وسطوة ونفوذ تجعلانه قادراً على فصل الشام عن القسطنطينية وجعلها مملكة عربية مستقلة كما فعل آل أذينة في تدمر ، فيما لو تحرش الرومان به وأثاروا غضبه ، ولهذا ظلوا يلاطفونه ويتوددون إليه ويمنحونه أعلى الرتب حتى وفاته .

استمر التوتر بين الغساسنة والمناذرة وجرت بينهما معركة عام ٥٥٤ م انتهت بسقوط ملك الحيرة قتيلاً في موقعة يدعوها العرب يوم حليمة ، أو ذات الخيار [٢] ، إذن ذات الخيار ، ويوم حليمة موقعة واحدة هي المعركة نفسها التي قتل فيها المنذر ، ويؤكد نولدكه أن حليمة اسم مكان [٣] لا اسم امرأة كما يزعم الأخباريون [٤] .

وذكر نولدكه أن المناذرة انتقموا لمقتل ملكهم المنذر بقتل أحد أقرباء الحارث بن جبلة [٥] .

وبالإضافة لكون الحارث ملكاً ، فقد كان عالماً بالنصرانية على مذهب اليعاقبة ، أي مسيحياً من أنصار القائلين بوجود طبيعة واحدة في المسيح وهو مذهب يعارض مذهب الكنيسة الرسمي لامبراطورية الروم ، لذا زار القسطنطينية ،

---

(١) عاقل : دراسات ٦٩/١ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ١٨٠ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥٤٣/١-٥٤٦ .

(٣) نولدكه : المرجع المتقدم ص ٢٠ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٨٠ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥٤٦/١ .

(٥) نولدكه : المرجع المتقدم ص ٢٠ .

وأقنع الأمبراطور بإسناد أسقفيات المناطق السورية إلى زعماء هذا المذهب ، وبالفعل كان يعقوب البرادعي أحد الذين عينوا نتيجة لمسعى الحارث ، فتوطد مذهبهم في سورية ، ونسبة إلى يعقوب أصبح السريان الغربيون أصحاب المذهب المينوفيزي ـــ الطبيعة الواحدة ـــ يدعون اليعاقبة ، وصارت الكنيسة المونوفيزيقية تعرف بكنيسة اليعاقبة [١] .

إن توطيد هذا المذهب ، وسعي الحارث في ذلك ، إنما هو شكل من أشكال الاحتجاج على محاولة البيزنطيين لإخضاع العرب وفرض إرادتهم ، وهيمنتهم على سورية ونزعة من نزعات الاستقلال .

وقد استغل وجوده في القسطنطينية فأخذ الموافقة التامة من القيصر على أن يكون خليفته بالملك في الشام ابنه المنذر .

والحارث هذا هو الذي توسط لامرئ القيس الشاعر في الذهاب إلى قيصر القسطنطينية بعد أن أودع السموءل دروعه في القصة المشهورة [٢] .

كما أن الحارث هو الذي بعث لأبرهة الحبشي الذي كان حاكماً على اليمن في القرن السادس برسالة يهنئه فيها بقيامه بترميم سد مأرب ، وإصلاح ما تهدم منه. وقد أمر أبرهة الحبشي بكتابة رسالة التهنئة هذه ، ونقشها على أحد أعمدة البناء في مأرب، وكانت رسالة الملك الحارث إلى أبرهة قد وصلت في عام ٥٤٢ م [٣] .

توفي الحارث بن جبلة ٥٦٩ م ، بعد أن حكم أربعين عاماً ، قام فيها بالكثير من الأعمال الكبيرة ، وقد لقب بالأعرج ، أو الحارث بن أبي شمر الغساني [٤] .

---

(١) نولدكه : المرجع نفسه ص (١٤-١٥) .

(٢) الأصبهاني : المصدر المتقدم ١١٩/٢٢ .

(٣) باشميل : المرجع المتقدم ص ٢١٥ .

(٤) Deperceval, Ibid. vol, 2. P. 233-241.

٢- المنذر بن الحارث (٥٦٩-٥٨٢ م) :

خلف أباه وسار على سيرته ، لكنه غالى كثيراً في مناصرة مذهب المونوفيزية مما أثار حفيظة الإمبراطور البيزنطي فأوقف الإمدادات العسكرية عنه فهرب إلى الصحراء خوفاً من غدر بيزنطة ، لأنه شعر بأن البيزنطيين يسعون إلى التخلص منه فانتهز المناذرة تلك الظروف وعاثوا فساداً في سورية كعادتهم وأغاروا على الحدود فشعر البيزنطيون بخسارتهم ولم يرو بداً من مصالحة المنذر واسترضائه (٥٧٨ م) فعاد إلى أرضه ليقوم بالدفاع عنها وحمايتها [١] .

وزار القسطنطينية بعد ذلك (٥٨٠ م) وأنعم الأمبراطور عليه بلقب ريكس وكلله بالتاج ، وقد نسبت إليه بعض الأعمال العمرانية في سورية منها بناء صهاريج لإيصال الماء إلى الرصافة وبناء بعض الكنائس وتجديدها [٢] .

وفي العام نفسه أي خلال حكم الأمبراطور تيبريوس قسطنطين حدث خلاف جديد بين بيزنطة والمنذر ، سببه وشاية القائد البيزنطي موريس الذي غزا في هذا العام فارس فوجد الجسر المنصوب على نهر الفرات مهدماً مما اضطره إلى التراجع وترك الغزو .

وحتى يسوغ إخفاقه أمام الأمبراطور ادعى أن المنذر كان على اتفاق سري مع الفرس وأنه هو الذي أوعز بهدم الجسر حتى لا تستطيع الجيوش البيزنطية العبور إلى عدوها . وقد أدت هذه الدسيسة إلى غضب الأمبراطور من المنذر فأوعز سراً إلى ماغنوس الحاكم في بلاد الشام بقتل المنذر ، ولكي يبرئ المنذر نفسه من الاتهامات له بالخيانة غزا الحيرة وأضرم فيها النيران ، وقد دعي بالمحرق نتيجة لفعلته

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٤١٣/٣ .

[٢] علي : المرجع نفسه ٤١٤/٣ .

هـذه [1] . ولكـن هذا لم يجد نفعاً ، بل عدَّ البيزنطيون تصرفه هذا تحدياً لهم ، ورغـبة في الخروج عن طاعتهم، فدبر له عاملهم في الشام مؤامرة للقبض عليه ، فدعـاه لتدشين إحدى الكنائس وتمكن منه هناك . فأرسل إلى القسطنطينية مقيداً ومن هناك إلى جزيرة صقلية ومنعت الأتاوة السنوية عن العائلة [2] .

وقـام أبـناء المـنذر بتهديد بيزنطة وأعلنوا العصيان فالتجؤوا إلى الصحراء وراحوا يشنون الغارة تلو الأخرى على المدن السورية وحواضر البيزنطيين ، وعاد البيزنطيون يستميلون الغساسنة حتى تمكنوا بالحيلة والمكر من إقناع أكبرهم ، وهو النعمان بن المنذر بالذهاب إلى القسطنطينية للتفاوض ولكنهم قبضوا عليه وأخذوه أسيراً عام ٥٨٣ م [3] ، بعد سنة واحدة من وفاة المنذر حيث انتهى نهاية غامضة.

بعـد ذلـك تصدع أمر الغساسنة وتشتتوا ، وعادت الفوضى إلى البلاد ، وانقسـم الأمـراء على أنفسهم ، وأخذت كل قبيلة تغزو وحدها ، وساد النهب والسـلب ، واحتدم التنافس للحصول على الرئاسة والسيادة ، وزاد غزو الفرس لـبلاد الشام مستغلين الأوضاع المضطربة لمهاجمة سورية ، فاحتلوا دمشق والقدس عام ٦١٣-٦١٤ م .

٣- جبلـة بـن الأيهـم نحو (٦٣٥ م) :

فطـن الـبيزنطيون إلى أهميـة كسـب مودة الغساسنة ، وأغلب الظن أن أمـبراطورهم هـرقل لما رأى أحد أمراء الغساسنة ، وقد نجح في طرد الفرس من

---

[1] الأصـفهاني : (حمـزة) المصـدر المتقدم ص ٩٢ ذكر أن جفنة الأصغر بن المنذر بن الحارث هو الذي أحرق الحيرة .

[2] تولدكه : المرجع المتقدم ٣٠-٣١ .

[3] نولدكه : المرجع نفسه ٣٠-٣١ .

De. Perceval, Ebid Vol. 2 . 241 .

البلاد عام ٦٢٩ م ، أسند أمر سورية إليه ، وظل كذلك حتى جاء المسلمون ، واخترقوا حدود الشام غازين فحاربهم لحساب الرومان ، بدليل أنه حارب العرب المسلمين مراراً ، وتولى مقاتلة خالد بن الوليد ، فأوقع خالد به في سنة ٦٣٤ م في مرج الصفر جنوبي دمشق ، كما أنه اشترك مع كلب وبهراء والضجاعم بقتال خالد بن الوليد في دومة الجندل عام ١٢ هـ [١] .

أما جبلة بن الأيهم الذي يزعم الأخباريون أنه آخر ملوك غسان وأنه أسلم وارتد ولجأ إلى الروم [٢] . فقد ورد اسمه نحو ٦٣٥ م ولمدة ثلاث سنوات في أخبار فتح العرب المسلمين لبلاد الشام كما اشترك إلى جانب الرومان في معركة اليرموك .

فقد ذكر البلاذري أن هرقل لما سمع بتجمع المسلمين ومقدمهم (يوم اليرموك) بعث جيشاً من لخم وجذام وعلى مقدمته جبلة بن الأيهم الغساني لمقاتلة المسلمين غير أن جبلة انحاز في القتال إلى الأنصار قائلاً : " أنتم أخوتنا وبنو أبينا وأظهر الإسلام " [٣] ، وذكر أن خالداً لما صار إلى مرج الصفر لقي قوم غسان وعليهم الحارث بن الأيهم [٤] ولم يشر إلى جبلة .

وهكذا كان جبلة آخر ملوك الغساسنة في الشام ، وكان زوال ملكه وملك الرومان في الشام في ان واحد وذلك على أيدي الجيوش الإسلامية التي سيطرت على الشام والعراق وآسية الصغرى ، في مطلع القرن الهجري الأول وأوائل

---

[١] الطبري ؛ المصدر المتقدم ٣/٣٧٨ .

[٢] المسعودي : المصدر المتقدم ٢/٨٤ . البلاذري : المصدر المتقدم ١٤١-١٤٢ . علي : المرجع المتقدم ٣/ ٤٤١ .

[٣] البلاذري : المصدر نفسه ١٤١-١٤٢ .

[٤] الطبري : المصدر المتقدم ٣/٤١٠ .

القرن السابع الميلادي .

حضارة الغساسنة :

لم تكن حدود مملكة الغساسنة ثابتة على وجه العموم ، بل كانت تتغير حسب أوضاع المملكة الداخلية ، وأحوال الدولتين العظيمتين البيزنطية والساسانية ولهذا نجد ملك الغساسنة يتوسع فيصل إلى مقربة من دمشق وإلى فلسطين [١] ، ولبنان وتدمر ، إلى ولايات سورية الشمالية في بعض الأحيان [٢] ، ونجده يتقلص أحياناً أخرى ويقل عن ذلك بكثير .

وتعد منطقة الجولان من أهم مناطق الغساسنة وأشهرها ، وقد اشتهرت الجابية بجوار بلدة نوى في حوران بأنها كانت مقر ملوكهم ، ولذلك عرفت بجابية الملوك أو بجابية الجولان [٣] .

وقد شاد الغساسنة القصور والقناطر والأبراج والكنائس ، تدل عليها بعض الآثار الباقية في بصرى الشام ، ومنطقة حوران وجهات الأردن [٤] ، وقد وصلنا الشيء الكثير عن حياة الأمراء الغساسنة المتأخرين وقصورهم مع شعر كل من النابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت [٥] .

اهتم الغساسنة بالزراعة لصلاح موقع بلادهم لهذا النوع من العمل فاستغلوا مياه حوران وعمروا القرى والضياع والسدود لجمع المياه والأقنية لتنظيم تصريف

---

(١) بيغوليفسكيا : (ن. ف) العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع حتى السادس الميلادي . ترجمة صلاح الدين عثمان ــ الكويت المجلس الوطني للثقافة ١٩٨٥م ص ٢٣٣ .

(٢) نولدكه : المرجع المتقدم ص ٥١ . دلو : المرجع المتقدم ٣٣٤/٢ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ــ وليد عرفات ــ دار صادر بيروت ١٩٧٤ م ص ٢٢٩ . الحموي : المصدر المتقدم مادة جابية . علي : المرجع المتقدم ٤٤٠/٣ .

(٤) علي : المرجع المتقدم ٤٤١/٣ .

(٥) الأصبهاني : المصدر المتقدم ١٥٧/١٥ وما بعد .

المياه المخزونة في الحاجات المختلفة .

كما اهتموا بالتجارة ، وغدت بصرى قصبة حوران [1] مركزاً تجارياً ومحطة مهمة للقوافل وسوقاً نشطة للبيع والشراء ، وكان النشاط التجاري في جنوب سورية قد أخذ ينتقل إلى هذه المدينة عقب سقوط مملكة الأنباط على أيدي الرومانيين ١٠٥-١٠٦ م فورثت البتراء اقتصادياً وسياسياً ، وقد أسهمت هذه المتغيرات الموضوعية والخارجية في نشوء مملكة الغساسنة ، فمع استقرارهم ونشوء مملكتهم أصبح لديهم جيش نظامي قوي يختلف في قوامه وطرق قتاله عما كان مألوفاً في ظل حياتهم القبلية ، وقد تمرس جيش الغساسنة في الحروب التي خاضها إلى جانب البيزنطيين ضد الفرس وحلفائهم أو أتباعهم حكام الحيرة ، أو في المعارك العديدة التي التحم بها مع المناذرة أربعين ألفاً [2] . فيهم الفرسان وراكبوا الإبل والمحاربون بالسيوف والطاعنون بالرماح والرماة بالسهام والنبال وبالحراب والحجارة [3] .

ولعلهم تأثروا بفنون الحرب لدى الروم لأنهم شاركوا في تكوين جيش الروم وفي حروبها مما ساعدهم على تنظيم جيوشهم واستيعاب أساليب القتال الجديدة ، وعلى استعمال الأسلحة المتقدمة .

وقد عدُّ إنشاء الجيش النظامي آنذاك خطوة متقدمة بالنسبة إلى جماعة البدو غير المنظمة ، فقد ساعد ذلك على تعزيز السلطة الملكية ، وعلى الدفاع عن البلاد

---

[1] يرى بعض الباحثين أن بصرى لم تكن تابعة للغساسنة ، وإنما كانت تحت إدارة البيزنطيين ، وقد تضررت مثل أذرعات أثناء غزو الفرس لبلاد الشام عام ٦١٤م ضرراً بالغاً . الحموي : المصدر المتقدم ، مادة بصرى . علي : المرجع المتقدم ٤٤١/٣ . دلو : المرجع المتقدم ٣٣٥/٢ .

[2] الحوفي : (أحمد محمد) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ـــ دار القلم ـــ بيروت ١٩٦٢ م ط٤ ص ٢٣٣ .

[3] الحوفي : المرجع نفسه ص ٢٣٣ .

والمحافظة على أمنها .

والجدير بالذكر أن الغساسنة احتضنوا الشعراء والأدباء ، وكانوا يغدقون الهبات والعطايا عليهم ، وقد وصلنا الشيء الكثير عن حياة الأمراء الغساسنة المتأخرين وحضورهم في أشعار العرب في الحقبة السابقة لظهور الإسلام مباشرة كالنابغة الذبياني وحسان بن ثابت ، كما كان لبيد ممن أكرم الغساسنة وفادته وبالغوا في إكرامه ، وقد قاتل إلى جانبهم في المعركة المسماة بيوم حليمة [1] .

ولقد ترك لنا الشعراء وصفاً حياً لحياة الأمراء الغساسنة وقصورهم ، وفي ذلك قال حسان بن ثابت واصفاً مجلساً للشراب في قصر جبلة بن الأيهم قبل أن يسلم " لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية .. وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة . وكان يفد إليه من يغنيه من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ..." [2] .

فإذا دل هذا على شيء فإنه يدل على النمو الاقتصادي والازدهار التجاري والرخاء الذي وصلت إليه المملكة .

---

[1] ابن قتيبة الدينوري : (أبو محمد عبد الله بن مسلم) الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ــ نشر دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م ص ١٦٧ . علي : المرجع المتقدم ٢٣٢/٣ .

[2] الأصبهاني : المصدر المتقدم ١٦٥/١٥ .

الفصل الثامن

المنـــــاذرة

- مقدمة .
- نشوء المملكة وملوكها .
- حضارة المناذرة .



المنـــاذرة

مقـدمـة :

كانت مناطق جنوب العراق المسكونة بحضر العرب مألوفة عند بدو العرب منذ قديم الزمان يرتادونها بقطعانهم ومواشيهم فيدخلونها سلماً ، ويعقدون الاتفاقيات مع السكان المقيمين هناك أو مع حكامهم ، وكانوا يدخلونها أحياناً عنوة إذا لم يسمح لهم بذلك . وكانوا ينتقلون حسب عاداتهم بينها وبين بادية الشام وبوادي الجزيرة العربية وسيناء ، فالبادية هي وطنهم ولا فرق إذا كانت داخل شبه الجزيرة العربية أم في شمالها .

وقد حلت في مطلع القرن الثالث للميلاد طائفة من القبائل سكنت غربي مجرى الفرات الأدنى في الأراضي الخصبة بين الأنبار والحيرة مستغلة ضعف الحكومات الأجنبية المهيمنة على تلك المنطقة .

روى أهل الأخبار أن القبائل التي استوطنت تلك المنطقة هي تنوخ ، والعباد ، والأحلاف [١] .

أما تنوخ أو (عرب الضاحية) فهم قبائل (طيء وتميم وأسد وصعاليك القبائل الأخرى) نزلت في بيوت الشعر والمظال والأخبية والوبر غربي الفرات بين الحيرة والأنبار فيما فوقها ، ولم يسكنوا بيوت المدر وكانوا يسمون عرب الضاحية [٢] .

---

[١] الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ص ٧٧ .

[٢] الأصفهاني : (حمزة) المصدر نفسه ص ٨٦ . دلو : المرجع المتقدم ٣٢٦/٢ .

أي أنهم عملوا في الرعي وتربية الحيوان ، وعاشوا من موارده .

والعباد قبائل شتى سكنوا الحيرة ، فابتنوا بها ، فهم حضر مستقرون ، اشتغلوا في الزراعة والتجارة والحرفة ، وكانوا فئة قليلة ، ثم ازداد عددهم ، فلما انتشرت النصرانية في الحيرة اعتنقوا النصرانية على مذهب النساطرة [١] ، ولازمت هذه التسمية جميع نصارى الحيرة ، وصارت علماً لهم لم تميزهم من الوثنيين في الحيرة وحسب ، وإنما ميزتهم أيضاً عن بقية النصارى العرب من غير أهل الحيرة [٢] . ويعتقد جواد علي أن العباد كانوا يتألفون من ثلاث قبائل هي تميم ولخم والأزد [٣] .

أما الأحلاف فهم قبائل عربية نزلت الحيرة ، ولم تكن في الأصل لا من تنوخ الوبر ولا من الحضر الذين دانوا لأردشير [٤] ، وقد حالفوا المناذرة واعترفوا بسيادتهم ، ويرجح أنه في أواخر أيام المناذرة كانت أهم قبائل الأحلاف (تغلب) التي هاجرت بعد حرب البسوس واستقرت على ضفاف الفرات شمال الحيرة ، وكذلك (بكر) ولا سيما بني عجل وشيبان [٥] .

وإلى جانب هذه المجموعات الثلاث من القبائل العربية كان يقيم في الحيرة جماعة من النبط ، وهم بقايا قدماء العراقيين من الكلدانيين والبابليين والسريان (الآراميين) . يعملون بالزراعة [٦] . كما كان بين سكان الحيرة جماعات من

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٣/١٧١-١٧٢ .

[٢] علي : المرجع نفسه ٣/١٧١ .

[٣] علي : المرجع نفسه ٣/١٧٠ .

[٤] الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ص ٧٧ . علي : المرجع نفسه ٣/١٧١ .

[٥] كحالة : المرجع المتقدم ١/٩٥-٩٦ . العلي : محاضرات ١/٧٤-٧٥ . دلو : المرجع المتقدم ٢/٣٢٧ .

[٦] الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ص ٧٦ . غنيمة : (يوسف رزق الله) الحيرة المدينة والمملكة العربية ، بغداد ١٩٣٦ م ص ١٨ .

الفرس واليهود [1] .

نشـوء المملكـة وملوكـها :

قـامت هـذه المملكة في وقت كانت فيه الدولة البارثية على أشدها من الضعف ، فلم تكترث بها مع أنها كانت المسيطرة الفعلية على العراق آنذاك فأقامت تنوخ ومن تحالف معها من القبائل الأخرى غربي الفرات في واديه الأسفل ما بين الأنبار والحيرة ، وبدأت بتنظيم أمورها ، ومن ثم أخذت بالتحضر والانتقال إلى الحياة المدنية ، واستطاعت أن تسيطر على الطريق التجارية المهمة التي تمر في أراضيها ، وأن تقيم علاقات وثيقة مع تدمر .

ولما قامت الإمبراطورية الساسانية استمرت أوضاع تنوخ على حالها بل واعترف بها الساسانيون إمارة عربية مستقلة .

أشهر ملوك تنوخ جذيمة الأبرش (الأبرص) التنوخي القصاعي الأزدي على أساس أن قبيلة تنوخ كانت مزيجاً من قضاعة والأزد [2] حيث التقت قضاعة وإياد والأزد وغيرهم في هجره واتخذوا اسم تنوخ بمعنى المحطة أو المنْزل ، فكأنها كلمة مناخ [3] ، ولكن الطبري يرى أنها بمعنى التوازر والتناصر [4] ، وقيل له الوضاح [5] وإليه ينسب إدخال صنمين سماهما الضيزنين [6] إلى الحيرة كان يستقي بهما

---

[1] علي : المرجع المتقدم ١٧٢/٣ . العلي : محاضرات ٧٥/١ .

[2] Deperceval, Ibid. vol. 2. P. 5. 8.

[3] الموضع الذي تناخ فيه الإبل ـ لسان العرب مادة نوخ .

[4] الطبري : المصدر المتقدم ٦١٠/١ .

[5] كان لقبه الحقيقي جذيمة الأبرص ، ولكن العرب هابت أن تدعوه بالأبرص ، فقالوا جذيمة الأبرش ، أو جذيمة الوضاح ، وورد ذكره في نقش أم الجمال الأول ، ويميل الباحثون إلى أن حكمه كان نحو ٢٧٠ م هبو : المرجع المتقدم ص ١١٨ حاشية (١) .

[6] الضيزنين بمعنى الشريك ، قيل صنمان للمنذر الأكبر اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحاناً للطاعة . ابن منظور : المصدر المتقدم مادة ضزن .

ويستنصر على العدو وهما المعروفان بالفرقدين وقد حاول الزواج من الزباء (غير زينب التي أسرها الرومان) [1] كما سلف قوله ، فقتلته ثأراً لأبيها وتسمى (مارية بنت الزباء الغسانية) [2] .

انتقل الحكم من بعده إلى ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي الذي اتخذ من الحيرة عاصمة لملكه وانتقم من الزباء [3] ، وتحالف مع الفرس ، لذا يُعدُّ المؤسس الحقيقي لمملكة المناذرة ، وأول حكام الحيرة من الأسرة اللخمية ، فهو أول ملوكها من بني لخم ، وإليه يعود الفضل في تمصيرها بعد أن كادت تكون مقفرة من سكانها خربة .

خلفه ابنه امرؤ القيس صاحب نقش النمارة ، كان محارباً عظيماً استطاع أن يبسط سلطانه على قبائل العرب المجاورة مثل أسد ونزار ومذحج ومعد [4] . عاصر جملة من ملوك الفرس ، وتحالف معهم ، وكان عاملاً لهم على " فرج [5] العرب من ربيعة ومضر ، وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة يومئذ " [6] . ولكنه ما لبث أن انقلب عليهم وحارب سابور الملقب بذي الأكتاف ودخل بحلف مع الرومان انتقاماً من سابور لكثرة ما قتل في مطلع حكمه من العرب ، فلما نشبت الحرب بين الفرس والروم البيزنطيين زحفوا إلى سابور فقاتلوه حتى

---

(1) ابن الأثير : المصدر المتقدم ٣٤٢/١. الشامي : (فاطمة قدورة) . تطور تاريخ العرب السياسي والحضاري من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي . دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٩٧ ط١ ص ٣٧ .

(2) ابن الأثير : المصدر المتقدم ٣٤٥/١-٣٤٦ . علي : المرجع المتقدم ١٩٠/٣ .

(3) ابن الأثير : المصدر المتقدم ٣٤٦/١ . الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ٦٥ . أبو حنيفة الدينوري : المصدر المتقدم ص ٤٦ ، علي : المرجع المتقدم ١٨٦/٣-١٨٧ . شامي : المرجع المتقدم ٣٧ .

(4) ديسو : المرجع المتقدم ٣٣-٣٤-٣٦ . علي : المرجع المتقدم ١٩٠/٣ .

(5) فرج : هنا موضع المخافة من العدو . عاقل : تاريخ العرب ١٦٨ .

(6) الطبري : المصدر المتقدم ٦١/٢ . عاقل : المصدر نفسه ١٦٨ .

فضـــوا جمعه وقتلوا من رجاله خلقاً كثيراً ، وأجبروه على الفرار . ولكن ما لبث ســـابور أن جمع شتات جيشه وعاد لمهاجمة خصومه ، واستعاد سيادته فانتقم من العـــرب وقـــتل خـــلقاً كثيراً منهم ، ونزع أكتاف رؤسائهم فكان ذلك بسبب تسميتهم إياه بذي الأكتاف [١] .

ذكـــر الأخـــباريون أن أمرئ القيس بن عمرو هذا كان أول من تنصر من ملوك الحيرة [٢] . إلا أن هذا يحتاج إلى أدلة ما تزال غير متوافرة حتى الآن .

كـــان من ذرية امرئ القيس النعمان الأول الملقب بالأعور أو السائح [٣] ، نحو (٤٠٠-٤١٨م) وقد ورد ذكره كثيراً في الشعر العربي وإليه ينسب بناء قصر الخورنـــق [٤] بظاهـــر الحيرة لبهرام بن الملك يزدجرد الأول ، ويُقال إن المهندس الـــرومي سنمار الذي بنى القصر مات ميتة شنعاء بعد أن انتهى من بناء القصر ، وذلـــك لأن القصـــر يعد من معجزات الفن وبدائعه ، وحتى لا يبني لغيره مثله أو أحسن منه قتله ، وقد ذهبت قصته مثلاً ، إذ يُقال : جزاه جزاء سنمار [٥] .

ونسب إليه بناء قصر السدير أيضاً الذي يقترن اسمه بقصر الخورنق في الشعر العـــربي، ويتبين من روايات أهل الأخبار عن الخورنق والسدير أن القصر الأول لم يكن بعيداً عن الحيرة ، وإنما كان على مقربة منها ، وربما كان على مسافة ميل من الحـــيرة . أما السدير فكان على مسافة بعيدة ، وقد ورد أنه كان في وسط البرية

---

[١] الطبري : المصدر نفسه ٦٠/٢ .

[٢] ابن خلدون : المصدر المتقدم ١٧٢/٢ . علي : المرجع المتقدم ١٨٩/٣ .

[٣] الأصـــفهاني : (حمـــزة) المصدر المتقدم ص ٧٩ . الطبري : المصدر المتقدم ٦٥/٢ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٤٠٠/١ .

[٤] اليعقـــوبي : المصدر المتقدم ٢٠٩/١ . قارن الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ٧٩ . الطبري : المصدر المتقدم ٦٥/٢ . دلو : المرجع المتقدم ٣٢٧/٢ .

[٥] الميداني : (أبو الفضل أحمد بن إبراهيم) مجمع الأمثال ـــ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١٧٧/١.

التي بينها وبين الشام [1] .

ويظهر في وصف أهل الأخبار للسدير أنه كان قبة في ثلاث قباب متداخلة [2] ، ومن وصفهم للخورنق يبدو أن السدير لم يكن بضخامة الخورنق ، وإن الخورنق كان قصراً كبيراً أعد للسكن وليكون حصناً يهيمن على مشارف البادية ، وفي ذلك دلالة على أن هذه القصور كانت مراكز حربية وسط البادية .

ويرى بعض الباحثين أن قصر الخورنق لم يكن من بناء النعمان ، وإنه إنما بني قبل ذلك ، ويرى أن النعمان قد أسكن بهرام فيه [3] .

وقد كان للنعمان كتائب هي :

الرهان : وهم خمسمئة رجل رهائن من قبائل العرب ، يقيمون على باب الملك سنة ثم يجيء بدلهم خمسمئة آخرون في فصل الربيع وينصرف أولئك إلى أحيائهم ، فكان الملك يغزو بهم ويوجههم في أمورهم [4] .

الصنائع : وهو بنو قيس ، وبنو تيم اللات ابني ثعلبة ، وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه ولا بد أن هؤلاء قد نشأوا في وقت متأخر ، أي بعد هجرة بكر إلى أطراف العراق .

الوضائع : وكانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك فارس في الحيرة نجدة لملوك العرب وكانوا يقيمون سنة ثم يأتي ألف جدد وينصرف هؤلاء [5] .

الدوسر : ويبدو أن كتيبة دوسر قد نظمت وفق أسس تنظيم الجيش

---

(1) علي : المرجع المتقدم ٣/٢٠١ .

(2) ابن منظور : المصدر المتقدم مادة سدر .

(3) كريستنشن : المرجع المتقدم ص ٢٦٠ .

(4) الميداني : المصدر المتقدم ١/١٧٧ . علي : المرجع المتقدم ٣/١٩٩ .

(5) الميداني : المصدر نفسه ١/١١٨ . ابن منظور : المصدر المتقدم مادة دوسر . غنيمة : المرجع المتقدم ٩٨ .

الفارسـي ، حيـث كان لها قائدان كما يستدل من اسمها واشتهرت بقوة بأسها وشدة بطشها ، فقالوا في المثل : " أبطش من دوسر "[1] .

الشـهباء : أو الأشـاهب (بيض الوجوه) وأهلها من الفرس ، يرى أحد الباحثين المعاصرين أنها مشتقة من شاه باي ؛ أي موطأ الملك ، فكأنها نظمت وفق عقيـدة المذهب العسكري الفارسي في تنظيم الجيش ، كانت كالحرس الملكي ، وكـانت هـذه الكتيـبة في عهـد أبي قـابوس مكونـة من أخوته وبني عمه وأتباعهم وأعوانهم[2] .

كـان الهـدف من إنشاء الجيش وبشكل رئيس تعزيز سلطات ملوك الحيرة والحفاظ على مصالحهم الطبقية ، وتنميتها والدفاع عن البلاد ، والقيام بالتوسع في بادية الشام والجزيرة العربية .

خاف المنذر الأول (٤١٨ ـــ ٤٦٢ م) أباه النعمان على العرش ، وبسبب مـا قدم والده للفرس فقد كان له منـزلة رفيعة عند كسرى الفارسي يزدجرد ، حتى إنه " شرفه وأكرمه وملّكه على العرب وحباه بمرتبتين سنيتين تدعى إحداهما رام أبـزوذ يزدجرد ، وتأويلها (زاد سرور يزدجرد) ، والأخرى تدعى بمهشنت وتأويلها (أعظم الخول) وأمر له بصلة وكسوة بقدر استحقاقه لذلك في منْزلته وقد فوض يزدجر المنذر بحكم أرض العرب جميعها "[3] .

لـذا ازدهرت الحيرة في أيامه ونالت مكانة رفيعة ، وقد شغل دوراً مهماً في الحـروب التي وقعت بين الروم والفرس بعد حقبة قصيرة من تولي بهرام جور بن يزدجـرد العـرش وكانت مشاركته بطلب من بهرام جور الذي أراد أن يستعين

---

[1] الميداني : المصدر المتقدم ١١٨/١ .

[2] العلي : محاضرات ٧٦/١ .

[3] الطبري : المصدر المتقدم ٦٩/٢ .

بالمـنذر ليخفف ضغط الروم عليه [1] ، ويبدو أن السبب الذي أدى إلى قيام هذه الحروب بين الفرس والروم البيزنطيين هو اضطهاد بهرام جور للعناصر المسيحية في فـارس ، وقد استطاع البيزنطيون بنتيجتها أن يمدوا نفوذهم حتى بلدة نصيبين ، وأن يحاصروا هذه المدينة ، ولكن بهرام استطاع أخيراً أن يفك الحصار عنها ، وأن يضـغط بقوات المنذر على القوات البيزنطية المهاجمة من ناحية الفرات ، ولكن ما لبثت الفوضى التي دبت في صفوف جيش المنذر أن أغرقت عدداً كبيراً من الرجال في النهر قدر عددهم بمئة ألف رجل [2] مما اضطر المنذر للتراجع والعودة إلى بلاده وقـد تحول النصر إلى هزيمة . وانتهت هذه المعارك بعقد صلح بين فارس وبيزنطة سنة ٤٢٢ م استمر أمداً طويلاً [3].

وتـولى الحكم بعد المنذر الأول عدد من الملوك لا نعلم عن حكمهم الشيء الكـثير ، والأمر المهم الذي يستحق التفصيل إلى أن كانت حقبة حكم المنذر بن امـرئ القيس المعروف بابن ماء السماء الذي حكم من (٥١٢-٥٥٤ م) . وقد لقـب بـذي القرنين لضفيرتين في رأسه ، وهو صاحب الغريين [4]، أو صاحب اليومين ، يوم بؤس ويوم نعيم . وقد ورد في الأغاني قصة ممتعة جاء فيها أن المنذر بن ماء السماء نادمه رجلان فأغضباه في بعض المنطق ، فأمر بأن يحفر لكل واحد حفـرة بظاهر الحيرة ثم يجعلان في تابوتين ويدفنان في الحفرتين ، فلما أصبح سأل عـنهما فأخبر بهلاكهما ، فندم على ما فعل ، وأمر ببناء الغريين عليهما ، وجعل لنفسـه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيمه والآخر

---

[1] علي : المرجع المتقدم ٢٠٨/٣ .

[2] علي : المرجع نفسه ٢٠٨/٣ . وهو عدد مبالغ فيه ولاشك .

[3] عاقل : تاريخ العرب ص ١٧٤ .

[4] ابن منظور : المصدر المتقدم مادة غرا .

يــوم بؤسه ، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مئة من الإبل ، وأول من يطلع عــليه يوم بؤسه يأمر به فيذبح ويرشّ بدمه الغريان ، ثم إن عبيد بن الأبرص كان أول من أشرف عليه في يوم بؤسه ، وهو من الشعراء المجيدين فلم ينج من الموت ، وطــال الأمر بالمنذر وهو في هذا العهد حتى مرّ به رجل من طيء اسمه حنظلة بن عفــراء في يــوم بؤسه ، فأطلقه المنذر بكفالة شريك بن عمرو على أن يعود بعد ســنة. ولما آن الأوان جلس المنذر ينتظر حنظلة فأبطأ عليه ، فأمر بشريك ليقتله ، فــلم يشــعر إلا بــراكب قد طلع عليهما فتأملوه فإذا هو حنظلة قد أقبل متكفناً متحنطاً معه نادبته ، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك السنة [1] .

ولقــد كــان عهده من أكثر العهود في حياة المناذرة شهرة وذكراً وأكثرها حوادث وتقلبات . وقد شهدت أيام حكمه حروباً طويلة بين المناذرة والغساسنة وبــين الإمــبراطورية الفارسية ، والإمبراطورية البيزنطية ، ففي عام ٥١٨ م قام الكســرى الفارســي قباذ يطالب الأمبراطور البيزنطي جوستين بدفع الأتاوة التي قبــلت بيزنطة بدفعها لفارس في صلح عام ٥٠٦ م وما بعده ، ولما تباطأ جوستين بدفــع الأتــاوة قام المنذر بتحريض من قباذ بالهجوم على الممتلكات البيزنطية في سورية سنة ٥١٩ م ، واستطاع المنذر في بعض حروبه الأولى هذه أن يأسر قائدين بيزنطيين كبيرين ، فأراد الأمبراطور البيزنطي أن يفك أسر القائدين الأسيرين ، أما مــا كان يأمله جوستين الأول من عقد حلف بينه وبين المنذر ، فيبدو أن ذلك لم يتحقق بدليل أنه لما تجددت الحروب بين فارس وبيزنطة سنة ٥٢٨ م خاضها المنذر

---

[1] الأصــبهاني : المصــدر المتقدم ٨٦/٢٢-٨٧-٨٨ . قارن ابن قتيبة : المعارف ص ٢٨٤ . الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ص ٨٥ . ترى أن النعمان بن المنذر أبا قابوس هو بطل القصة .

إلى جـــانب حـــلفائه الفرس ، واستطاع التوغل في بلاد الشام ، وأن يحصل على بعـــض الغنائم ، وحدد هجماته على سورية سنة ٥٢٩ م ، وتوغل فيها حتى بلغ مديـــنة أنطاكية ، وانسرب إلى داخل الأرض البيزنطية في آسية الصغرى وأحرق هناك عدداً من المدن والقرى من بينها خلقدونية [١] .

وقـــد شهدت أيام حكمه حروباً طويلة بين المناذرة والغساسنة فقد عاصره كمـــا ذكر في الفصل المتقدم الحارث بن جبلة (الحارث الثاني أو الأعرج) وكان خصـــماً كفؤاً له ، حيث قام المنذر بالغارة بعد الغارة على المدن السورية الواقعة تحـــت سـيطرة الروم ، واشتبك مع الروم وهزمهم في أكثر من موقعة حتى تمكن الحارث منه أخيراً فقتل في المعركة التي سميت بيوم حليمة (٥٥٤ م) [٢] .

والجدير بالذكر أنه في أيام المنذر أراد الملك الفارسي قباذ الذي فرض مذهب مـــزدك الـــذي اعتنقه على رعاياه وعماله ومنهم المنذر الذي رفض ، فسلط عليه مـــلك كنده ، ولكن بعد وفاة قباذ وجلوس كسرى خسرو أنو شروان [٣] على العـــرش الفارسي عاد المنذر بن السماء إلى الحيرة وخلع الحارث الكندي ٥٣١ م (وسبب ذلك العداء والقتل بين المناذرة وكندة فيما بعد) [٤] .

وفي أيام المنذر وقع الاحتلال الحبشي على النحو الذي تحدثنا عنه من قبل ، فاتســـع بذلـــك نفوذ الروم في بلاد العرب وذلك لما بين الأحباش والبيزنطيين من روابط ود أساسها تدينهما بدين واحد .

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٣/٢٢٠-٢٢١ . عاقل : تاريخ العرب ١٧٥-١٧٦ .

[٢] ينظر الفصل المتقدم .

[٣] أنو شروان الروح الطيبة . يُقال إن كسرى لما قتل مزدك وصلبه وتتبع كبار أصحابه حتى قيل أنه قتل في يوم واحد مئة ألف لقب من ذلك اليوم بلقب أنو شروان .

Deperceval, Ibid, vol 2. P. 79-85.

[٤] ينظر الفصل التالي .

حكـــم بعده عمرو بن هند (٥٥٤-٥٧٤ م) وهو ابن المنذر بن ماء السماء وقـــد لقـــب بعمـــرو بن هند نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار الكـــندي ، فهـــو كندي من جهة أمه ، كانت تدين بالنصرانية وبنت ديراً عرف باسمهـــا [١] وكـــان عمرو شديد الزهو والكبرياء ، محباً للشعر والأدباء فأم مجلسه أعظم الشعراء (طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، وهم من أصـــحاب المعلقات السبع) ، فلم يأل جهداً في إكرامهم وتقريبهم منه طمعاً في اجتذاب العرب إليه .

ولقـــد أدرك عمرو كما أدرك ملوك لخم وجفنة أن الشعراء من معاصريهم هـــم زعمـــاء الرأي العام بين العرب يديرون دفة الدعاية كيف شاؤوا ، فلم يأل جهـــداً في إكرامهم ، وغمرهم بفضله كما فعل سواه من الملوك طمعاً في اجتذاب العرب إليه .

قضـــى حياته يحارب العرب والروم ، فقد غزا قبيلة تميم ، وألقى بقتلاها في النار في معركة أوارة الثانية [٢] . ولهذا عرف بلقب محرق كما غزا تغلباً وطيئاً [٣]. وأغـــار عـــلى بلاد الشام والغساسنة ، وعهد إلى أخيه قابوس بمواصلة غزو ديار الغساســـنة في عـــامي ٥٦٦-٥٦٧ م لـــتأديب الروم الذين أساؤوا إلى رسوله في القسطنطينية [٤] ، واستغل ضعف دولة كندة فوسع نفوذه في الجزيرة العربية .

أما موته فكان قتلاً على يد عمرو بن كلثوم أحد أمراء الشعر ، كما تروي كتب الأدب ، إثر إهانة لحقت بوالدته من جانب أم الملك [٥] .

---

(١) غنيمة : المرجع المتقدم ص ٤٧ . عاقل : تاريخ العرب ص ١٨١ .

(٢) ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥٥٣/١ وما بعد . علي : المرجع المتقدم ٢٥٠/٣ .

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه ٥٥٣/١ وما بعد .

(٤) علي : المرجع المتقدم ٢٤٠/٣ وما بعد .

(٥) ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥٤٨/١ . ابن حبيب : المحبر ٢٠٢-٢٠٣ . علي : المرجع المتقدم ٢٣١/٣ .

خلفه أخوه قابوس بن المنذر (٥٧٤-٥٧٨ م) ، وقام بعدة غارات على بلاد الشام مستغلاً فرصة وفاة الحارث بن جبلة ، فأراد أن يفاجئ ابنه المنذر بن الحارث قبل أن يأخذ استعداداته ، لكن ظنه خاب حيث جمع المنذر جموعه ورد عليه بهجوم معاكس لم يتمكن قابوس من الثبات له وفر من ساحة المعركة باتجاه الفرات تاركاً وراءه عدداً كبيراً من القتلى من أمراء المناذرة ، هذا فضلاً عن الأسرى ، ولم يقنع المنذر بالهزيمة بل تعقبه ، واستطاع أن يصل إلى مسافة قريبة من الحيرة ، وهذه المعركة تدعى (بعين أباغ) [١] .

وظلت نفس قابوس تواقة للانتقام ، فاستغل فرصة الخلاف بين المنذر بن الحارث والأمبراطور البيزنطي ، وقام بالغارة على حدود بلاد الشام وتوغل حتى استطاع أن يصل إلى حدود أنطاكية ، ولما تصالح البيزنطيون مع المنذر عادت جيوش غسان إلى مهاجمة الحيرة وإنزال الخسائر الضخمة بها .

ولعل قابوساً حين استلم العرش كان رجلاً كبيراً متقدماً في السن لا يملك حيوية خصمه المنذر بن الحارث ، بالإضافة إلى حدوث خلافات بين أفراد البيت اللخمي بدأت في حياته واستفحلت بعد مماته ، ولكي تحل فارس المشكلة عينت رجلاً فارسياً على عرش الحيرة مدة سنة ، ثم حكم المنذر بن المنذر (٥٧٩-٥٨٣ م) وجاء بعده النعمان بن المنذر (٥٨٣-٦٠٥ م) ، وأمه سلمى بنت وائل من أهل فدك [٢] . وقد لقب بأبي قابوس [٣] ولقب أيضاً بملك العرب [٤] . وهو الذي كان يبعث إلى سوق عكاظ في كل عام لطيمة فتباع له هناك ويشتري بثمنها

---

[١] ابن الأثير : المصدر نفسه ٥٤٠/١ . علي : المرجع نفسه ٢٢٩/٣-٢٥٨-٢٥٩ .

[٢] الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ص ٨٦ . علي : المرجع نفسه ٢٦١/٣ .

[٣] الأصفهاني : (حمزة) المصدر نفسه ٨٥ . شامي : المرجع المتقدم ٣٨ .

[٤] شامي : المرجع نفسه ٣٨ .

العصب والبرود والأدم وغير ذلك من طرائف اليمن [1] . وقد امتد سلطانه جنوباً إلى منطقة البحرين [2] . وقد اعتنق النصرانية على المذهب النسطوري [3] المخالف لبيزنطة ونشأ في أسرة مسيحية ينتسب إليها الشاعر عدي بن زيد العبادي فكان والد عدي هو الذي تعهد بتربية النعمان وتنشئته ، وقد تزوج عدي أخت الأمير ، وعندما ارتفع مقام الشاعر في بلاط كسرى ، وأصبح ترجمانه وكاتبه بالعربية أشار عليه بتولية النعمان عرش الحيرة دون أخوته الثلاثة عشر [4] ، ولكن العلاقة بين النعمان والساسانيين لم تستمر على ما يرام فقبض كسرى عليه وسجنه ثم قتله زيد بن عدي [5] . وبذلك انتهى حكم المناذرة في الحيرة ، وعين الفرس مكانهم رجلاً من طيء اسمه إياس بن قبيصة (٦٠٥-٦١٤م) لم يستطع أن يسد الثغرة التي خلفها المناذرة في الحيرة ، ولم يحبه الناس وقاموا بحركات كثيرة ضده [6] .

وقد تعددت الآراء في سبب مقتل النعمان وعندنا أن الفرس تنبهوا إلى خطر الإمارة العربية ، وتعاظم قوتها ، فأرادوا الإجهاز عليها ، لا سيما أن وجودها لم يعد يلبي الغاية المرجوة ، وهي الوقوف في وجه الغساسنة ، فقد قل خطر هؤلاء ، واضمحلت قوتهم آنذاك ، ويفسر ذلك أن الفرس بعد التخلص من اللخميين عينوا من يثقون به وهو إياس بن قبيصة الذي ساعد الفرس في بعض حروبهم مع الروم ،

---

[1] دلو : المرجع المتقدم ٣٢٧/٢ .

[2] الطبري : المصدر المتقدم ١٩٨/٢ .

[3] علي : المرجع المتقدم ٢٨٥/٣ .

[4] علي : المرجع نفسه ٢٦٦/٣ .

[5] الطبري : المصدر المتقدم ١٩٤/٢-٢٠١ وما بعد . الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ٨٦ .

[6] الأصفهاني : (حمزة) المصدر نفسه ٨٦ . ابن قتيبة : المعارف ٢٨٤ . علي : المرجع المتقدم ٢٩١/٣ .

ولكـــن انهـــزم في معركة ذي قار التي تعد من مفاخر العرب القومية والتوجه نحو الوحـــدة ، فعلى أرض المعركة حطم العرب بفضل تلاحمهم واستبسالهم الوهم من الخـــوف بعدم قدرتهم على مواجهة جيش الساسانيين ، وتجرأ العرب لأول مرة في تاريخ ما قبل الإسلام على لقاء الفرس في معركة مكشوفة ، لا في غارة ، وإحراز النصـــر عـــليهم رغم تفوق أعدائهم في العدد والعدة والسلاح المتقدم بالنسبة إلى ذلـــك العهـــد ، ولعل خير من عبر عن هذا الرسول ﷺ الذي قال لما بلغه انتصار العرب في ذي قار : " هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ..." [١] . ولعل هذا النصر كان السبب في عزل إياس بن قبيصة لأنهم عدّوه المسؤول عن خسارتهم وحكموا الحيرة حكماً مباشراً [٢] .

وقـــد استمرت الحيرة قائمة إلى الإسلام فلما فتح المسلمون العراق سقطت وزالت من الوجود .

إن السبب في زوال أسرة المناذرة هو وهن الأمبراطورية الساسانية ، وتدهور أوضاعها الاقتصادية ، وتفاقم حدة التناقضات الاجتماعية والسياسية بين رعاياها ممـــا شـــجع العرب على التصدي والمقاومة التي تجلت واضحة في انتصار العرب الشهير على الفرس في يوم ذي قار والذي اتحدت فيه القبائل العربية ، فكانت أول معـــركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسي ، فأعطاهم هذا النصر ثقة كـــبيرة بأنفســـهم ، وتجـــرأت القـــبائل الأخرى على الهجوم المباشر على بلاد الساســـانيين الغنية ، وكانت هذه المعركة بمنْزلة حركة استطلاعية ومقدمة للفتوح التي لا تلبث أن تكتسح امبراطورية الساسانيين وتقضي عليها .

---

[١] الطـــبري : المصـــدر المتقدم ٢٠٦/٢-٢٠٧ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٤٨٢/١ وما بعد . الحموي : المصدر المتقدم مادة قار . علي : المرجع المتقدم ٢٩٢/٢ .

[٢] حتي : تاريخ العرب ص ١٢٥ .

حضـــارة المنـــاذرة :

اتخـــذ المـــناذرة عاصـــمة ثابتة لهم هي الحيرة ، فقد كان لموقعها بين العراق والشام أثر كبير في احتكاك أهلها بغيرهم من الشعوب ، فتأثروا بالدين والثقافات العالمية آنذاك كالفارسية والإغريقية والسريانية .

وقد كان ملوك الحيرة وثنيين على دين أجدادهم وأشقائهم عرب الجزيرة ، وأول من اعتنق النصرانية منهم بشكل لا يدع مجالاً للشك كان النعمان بن المنذر المـــلقب بـــأبي قـــابوس ، وهو آخر ملك منهم في الحيرة . أما الشعب فكان فيه الوثـــنيون الذيـــن يعبدون الأصنام ، والصابئة الذين يعبدون الكواكب ، والمجوس الذيـــن يعـــبدون الزرادشـــت بالإضافة إلى المسيحيين الذين كانوا يؤلفون قسماً كـــبيراً مـــن ســـكان الحـــيرة ، حتى إن بعض نساء الملوك كن مسيحيات على المذهب النسطوري [1] .

ولا شـــك أن اخـــتلاطهم بعرب الشمال جعلهم يتكلمون لهجتهم ، ولكن كـــتاباتهم كـــانت آراميـــة ، وقد عدّ بعضهم الخط الحيري أساساً للخط العربي المـــتقدم، وفي الأخبار أن قريشاً إنما أخذت الكتابة من الحيرة وأخذت الزندقة من الحيرة أيضاً [2] .

كـــان للمناذرة دور في نقل الكلمات الفارسية والآرامية إلى العربية بالإضافة إلى بعـــض الكلمات اللاتينية ، وقد أسهم العلماء الذين ينتمون إلى الحيرة في نقل العلوم إلى العربية [3] .

تجلى هذا بشكل واضح عندما نشطت حركة الترجمة لأمهات الكتب الأدبية

---

[1] عاقل : تاريخ العرب ص ١٨٩ .

[2] ابن قتيبة : المعارف ٢٦٦ . حتي : تاريخ العرب ١٢٥ .

[3] هبو : المرجع المتقدم ١٣٠ .

والعلمية السريانية واليونانية والفارسية في العصر العباسي الأول والتي كانت ترجمة كتابات مختلفة للغة عربية واحدة بلهجات وكتابات متنوعة .

وقد كان الطب متقدماً في الحيرة ، وظلت شهرة الحيرة على أنها مركز طبي عربي وعالمي وبعد ظهور الإسلام ، وقيام الدولة العربية الإسلامية .

واشتهر أهل الحيرة بالزراعة والرعي ، وهما حرفتان أملتهما الطبيعة طبيعة موقع هذه المدينة ، واشتغل الحيريون بالتجارة لقربها من نهر الفرات مما أدى إلى تدفق الثروات وارتفاع مستوى حياتهم ، ومما يدل على رقي البلاط الحيري في القرن الخامس للميلاد ومدى الثقة به ، أن يزدجرد دفع ابنه بهرام إلى النعمان بن المنذر ليتولى تربيته على الطريقة العربية ، فتعلم لديه الكتابة والرمي والقانون والحكمة والفروسية .

وتقدمت الصناعة أيضاً ، وبلغت درجة كبيرة من الحذق والإتقان حتى نسب للحيرة عدد كبير من الصناعات [1] ، واشتهرت الحيرة أيضاً بصناعة السيوف والسهام ونصال الرماح ، والتحف المعدنية والحلي وأدوات الزينة الذهبية والفضية المرصعة بالجوهر .

ولا بد أن يرافق هذا الازدهار الاقتصادي ازدهار عمراني ، فقد كان ميدان العمارة من أهم الميادين التي تجلت فيها عبقرية الحيريين وفنهم ، وتجلى ذلك في ميدان القصور كالخورنق والسدير [2] ، والزوراء والأبيض ، ومقاتل والعدسين وغيرهم ، والأديرة والكنائس كدير هند الكبرى ودير هند الصغرى .

دير هند الكبرى ذكره غير واحد من وصاف الديارات كالبكري ، وياقوت

---

[1] غنيمة : المرجع المتقدم ٨٢-٨٣ . عاقل : تاريخ العرب ص ١٩٠ .

[2] Deperceval, Ibid, vol 2. P. 55.

بنـــته أم عمـــرو بـــن هند في صدر هيكله مكتوب : " بنت هذه البيعة هند بنت الحـــارث ابن عمرو بن حجر ، الملكة بن الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر أمة المســـيح ، وأم عبده وابنة عبده ، وفي زمن ملك الأملاك خسرو أنو شروان ، وفي زمن أفريم الأسقف فالإله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ، ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بهما ويقومهما إلى إقامة الحق ، ويكون الإله معها ومع ولدها الدهر الداهر " [1] .

ودير هند الصغرى من أشهر ديارات الحيرة ، وأبعدها صيتاً . ذكر أنه " لما حـــبس كسرى النعمان الأصغر أباها ، ومات في حبسه ترهبت ولبست المسوح ، وأقامت في ديرها مترهبة حتى ماتت فدفنت فيه " [2] .

رافق هذا التقدم العمراني تقدم سياسي وعسكري ، فأصبح للحيرة حكومتها وأجهزتها الإدارية ، وعلى رأسها ملك يلبس التاج ويتخذ الوزراء ــ (الروادف) . وقـــد نشـــأت هذه الوظيفة في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي في بلاط الحـــيرة ، وهـــي تعكس حالة ضعف ملوك الحيرة ، وحاجتهم إلى تأييد القبائل ، فمنحوا أحد شيوخ القبائل القوية ، والقريبة منهم هذا الامتياز ليكونوا عوناً لهم في تأييد سلطانهم ، ثم أصبحت الردافة مجالاً للفخر [3] . وربما نشأت الردافة في عهد الـــنعمان بن المنذر ، واتخذوا الحجاب والموظفين صورة متقدمة عن النظام القبلي وأسســـوا الجيش النظامي آنذاك الذي عُدَّ خطوة متقدمة بالنسبة إلى جماعة الغزو

---

[1] البكري : المصدر المتقدم ٢/٦٠٦-٦٠٧ . ياقوت : المصدر المتقدم مادة دير هند الكبرى .

[2] الشابســـتي : (أبي الحســـن علي بن محمد) . الديارات . تحقيق كوركيس عواد ــ دار الرائد العربي ــ بيروت ١٩٨٦ م ط٣ ص ٣٨٨ .

[3] دراســـات تاريخيـــة ــ العـــدد (١١) السنة الرابعة ك٢ ١٩٨٣ م مقالة بعنوان الردافة . د. صالح موسى دراركه ص ٢٥ .

غـــير المنظمة ، فقد ساعد على تعزيز السلطة الملكية ، وعلى الدفاع عن البلاد ، والمحافظة على أمنها .

و لم تقتصـــر حضـــارة المـــناذرة عـــلى الحيرة ، فقد وجد بجانبها عدد من المدائـــن الـــتابعة لهـــا ، مثل هيت ، والأبلة ، والأنبار ، وبقي معظمها إلى العهد الإسلامي [1] .



---

[1] رفاعي : (أنور) الإسلام في حضارته ونظمه ١٩٧٣ م ص ٢٠ .

الفصل التاسع

ممالك كندة

- مقدمة .
- ملوك كندة .
- حضارة كندة .



ممـــالك كنـــدة

مقـــدمــة :

كـــندة قبيـــلة عربية يرجعها النسابون العرب إلى ثور بن عفير بن عدي بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان من سبأ ، وثور هو كندة [1] .

ونحـــن إذا رجعـــنا إلى المصـــادر التاريخية للبحث في تاريخ كندة فإننا نجد الـــروايات التي خلفها لنا الأخباريون ، وقد عرفت عندهم بكندة الملوك [2] ، لأن المـــلك كـــان لهـــم عـــلى بادية الحجاز من بني عدنان ، ولأنهم ملكوا أولادهم على القبائل .

أضـــف إلى ذلـــك الاكتشـــافات الـــتي تمت وسط الجزيرة وجنوبها ، فقد أظهـــرت الكـــتابات والنقوش هناك المكانة الخاصة لعاصمة كندة القديمة لوقوعها عـــلى طـــريق التجارة بين جنوب الجزيرة والشمال ، وشمالها الشرقي ، وقد رأى العـــلماء الذين درسوا هذه الكتابات أنها تعود إلى ما بين القرنين الأول والخامس بعد الميلاد [3] .

---

(1) الأصبهاني : المصدر المتقدم ٣٥٤/١٦ . ابن خلدون : المصدر المتقدم ٢٧٦ . ابن حزم : المصدر المتقدم ٣٩٩ .

(2) المسعودي : المصدر المتقدم ٣٢٥/٢ . أبو الفدا : (عماد الدين إسماعيل) المختصر في أخبار البشر . مكتبة المتنبي. القاهرة ج١ ص ٧٤ . قيل سأل عمر بن الخطاب عن كندة فقيل لهل : " ساسوا العباد ، وتمكنوا من البلاد " .

(3) الأنصاري : (عبد الرحمن الطيب) " قرية " الفاو . صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية ، جامعة الرياض ١٣٧٧-١٤٠٢ هـــ ص ٣١ .

وألقت النقوش السبئية [١] الأضواء على تاريخ هذه الممالك وأيدت ما ورد في المصادر العربية والتي تقول إن كندة مجموعة من القبائل التي تعود في أصلها إلى الجنوب العربي حسب رأي الهمداني [٢] وياقوت [٣]، وابن خلدون [٤] انساح قسم منها نحو الشمال باتجاه نجد ، وكان هذا الانسياح جزءاً من عملية انتقال القبائل العربية آنذاك نحو وسط الجزيرة وشمالها نتيجة الاضطرابات التي دارت في الجنوب العربي والتي امتدت لعدة قرون [٥] ، وقد أشارت النقوش الجنوبية إلى أن كندة تعرضت للغزو من ممالك الجنوب أكثر من مرة [٦] ، ثم توضع أفراد القبيلة في غمر ذي كندة الذي يقع في الطرف الجنوبي الغربي من نجد على مسافة يومين من مكة [٧] ، وانتشروا في أرجاء مختلفة في تلك المنطقة من الحجاز ، وكذلك انتشروا في دومة الجندل ، وفي البحرين ، وفي المشقر ، وفي الحيرة [٨] . ولا نعرف متى هاجروا ، ولماذا ، وما هو السبب الذي كان وراء هذه الهجرة ، وقد يكون السبب في ذلك هو ضيق الرقعة الجغرافية ، والكثافة السكانية ، بالإضافة إلى وقوع المنطقة العربية الجنوبية ضمن المناطق التي تتصارع عليها القوى الدولية

---

(١) Jamme A. Sabaean Inscriptions From Mahram Bilgis, Baltimore , 1962, P. 136-137.

(٢) الهمداني : المصدر المتقدم ص (١٦٩-١٧١) .

(٣) ياقوت : المصدر المتقدم مادة كندة .

(٤) ابن خلدون : المصدر المتقدم ٢٥٧/٢ .

(٥) جانار : (أولندر) ملوك كندة من بني آكل المرار. ترجمة عبد الجبار المطلبي . المكتبة الوطنية ــ بغداد ١٩٧٣ م ص٦٥ .

(٦) Jamme A. Sabaean Inscriptions From Mahram Bilgis, (Marib) Baltimore , 1962, P. 136.

(٧) جانار : المرجع المتقدم ص ٦٦ .

(٨) الأكوع الحوالي : (محمد بن علي) . الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٣٢ ، بغداد ــ دار الحرية للطباعة ١٩٧٦ م ط١ ص ٧٥ . علي : المرجع المتقدم ٣٢١/٣ .

العظمى آنذاك .

ومـــنه نستنتج أن رحيل كندة من موطنها الأصلي كان نحو منتصف القرن الثالث الميلادي [1] ، وإلى هذه الحقبة تعود أهم أحداث كندة التاريخية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والأدبية والحضارية .

ويـــبدو أنه لم يكن لكندة أي وزن سياسي كبير قبل أن تهاجر إلى غمر ذي كندة فالمصادر لا تشير إلى أي اتصال بين كندة والدول المجاورة قبل هجرتها سوى ما ذكره اليعقوبي عن الحرب الطاحنة بين كندة وحضرموت [2] .

وذكـــرت المصادر العربية العلاقة بين حمير وكندة [3] ، فقد ارتبطت كندة بحمير بعلاقة تحالف كما ارتبط الغساسنة بالروم ، والمناذرة بالفرس ، فقد نافست كندة بدرجات مختلفة من النجاح هاتين المملكتين طوال مئة عام تقريباً ، كان لها خلالهـــا اليد العليا على البلاد العربية الشمالية الخاضعة لهم ، ونستنتج من هذا أن جماعة صغيرة من قبيلة كندة الكبيرة شاركت في مغامرات ملوك آل (آكل المرار) عـــلى رأس قـــبائل ربيعة ومضر ، بينما بقيت كثرتها الكاثرة في غمر ذي كندة ، ولعـــلها كانت في موطن من مواطنها السالفة ، أو ربما اتجهت إلى مواطن أخرى ، كالمشـــقر مـــثلاً ، والـــبحرين حيث تدفقت منها متوجهة شطر الجنوب باتجاه حضـــرموت ، فقـــد يدل أمر هذه الهجرة المفاجئة التي ترتبط بانهيار كندة الذي حدث قبل ذلك بزمن قصير ـــ على أن القبيلة شاركت في مشكلات أمراء كندة في نجـــد . والعربية الشمالية ومتاعبهم فحجر آكل المرار ، هو أبو البيت المالك في كـــندة ، وعـــرفت أسرته بلقبه آكل المرار ، ويفترض بتروفسكي أنه في زمن أبي

---

[1] عاقل : تاريخ العرب ١٩٦ .

[2] اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢١٦/١ .

[3] الطبري : المصدر المتقدم ٨٩/٢ .

كـــرب أسعد كانت البداية لتأسيس كندة الجديدة [1] ، التي أصبحت قوة وسط الجزيـــرة العـــربية يحسب حسابها بعد أن فرضت سيطرتها على قبائل معد وربيعة ونـــزار ، ويبدو أن نفوذ الحيرة وسط الجزيرة العربية وشمالها قد تقلص مع ظهور كـــندة مـــن الجنوب العربي وحمير في وسط الجزيرة ، ووصلت إلى أوج سلطتها وتوسعها في ظل الحارث بن عمرو .

ملـــوك كنـــدة :

١- حجـــر بـــن عمـــرو (آكل المرار) :

ذكـــر الأخباريون أن حسان بن تبع الحميري هو الذي عين حجراً حاكماً على القبائل العدنانية التي قهرها ٤٨٠م ، وكان حجر الملقب بآكل المرار [2] أول زعـــيم من زعماء كندة تمكن من توحيد صفوفها ، وفرض سيطرتها على القبائل الأخـــرى ، وكـــانت توليته بناء على طلب من زعماء قبيلة بكر نفسها التي طغى سفهاؤها على عقلائها [3] .

وقـــد تقدم على حجر أربعة من ملوك كندة ذكرهم اليعقوبي في تاريخه [4] ولكـــن لا يوجد بين أيدينا دليل واضح يمكن الاستناد إليه يشير إلى ملكهم وإلى طريقة تملك حجر ، وتغلبه على زمام الأمور .

---

(١) بتروفسكي : (م.) اليمن قبل الإسلام . تعريب محمد الشعبي ، بيروت ١٩٨٧ م ص ٧٣ .

(٢) المـــرار عشـــب مر إذا أكلته الإبل قلصت عنه مشافرها فبدت أسنانها ، وقيل أن حجراً سمي بآكل المرار لكشر كان به ، كما قيل أنه كان في نفر من أصحابه في سفر فأصابهم الجوع ، فأما هو فأكل المرار حتى شبع فعرف = = بآكل المرار ، وهناك أقوال أخرى . ولقب آكل المرار لكون امرأته قالت عنه كأنه جمل قد أكل المرار لبغضها له فغلب ذلك لقباً عليه تشبهاً بالجمل الذي يريد فيه بعد أن أكل نبات المرار.
Deperceval. Ibid. vol. 2. P. 267 .

(٣) الهمـــداني : المصـــدر المتقدم ص ١٧٠ . أبو الفدا : المصدر المتقدم ٧٤/١ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥٠٩/١ .

(٤) اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢١٦/١ .

هناك روايات كثيرة متباينة رواها أهل الأخبار تتصل بالطريقة التي بسط بها حجـــر سلطانه على القبائل العربية في نجد ، فقد جاء في المفضليات أن حجراً أول من اشتد ملكه من كندة بأرض معد [1] ، بينما نجد رواية أخرى في كتاب الأغاني تقـــول أن تـــبعاً وهو في طريقه إلى أرض العراق نزل بأرض معد فجعل حجر بن عمرو ملكاً هناك [2].

والمهـــم أن حجـــراً نهـــض ببكـــر فحارب المناذرة واستخلص أرض بكر مـــنهم ، وغـــزا عُمـــان ، فاستغل أحد الأمراء الغساسنة فرصة غيابه عن بلاده فأغـــار عـــلى أرضـــه وأخـــذ أمـــوالاً كثيرة وسبى بعض نسائه ومن بينهن قينة كـــانت مـــن أحـــب قيانه إليه ، ولما عاد حجر من غزوته هذه وعرف ما كان مـــن غـــدر الغساســـنة بـــه ســـار مسرعاً ، فلحق بأرض غسان واسترد أمواله ونســـاءه [3] .

كمـــا قام بحملات ضد القبائل الساكنة في الحجاز ، وشمال الجزيرة العربية والـــبحرين ، وفي حقبة من الحقب توسع حتى حدود دولة المناذرة ، وانتزع منهم بعض أراضيهم ، كما مد سلطانه على بعض أجزاء اليمامة [4] .

وبعـــد حكـــم طويـــل ساده الرخاء والقوة والتوسع التي تجمع عليها كل الـــروايات العربية المدونة في المصادر القديمة بموت حجر حتف أنفه دون أن تحدد هـــذه الروايات مكاناً معيناً لقبره ، سوى ما ذكره ابن الأثير الذي يحدد أنه ببطن

---

[1] الضـــبي : (المفضـــل بن محمد يعلى) المفضليات . مكتبة المثنى بغداد . مطبعة الآباء اليسوعيين ـــ بيروت ١٩٢٠ م ص ٤٢٩ .

[2] الأصبهاني : المصدر المتقدم ١٦/٣٥٤ . قارن الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ص ١١١ .

[3] الهمـــداني : المصـــدر المـــتقدم ١٧٠-١٧١ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ١/٥٠٩ . علي : المرجع المتقدم ٣/٣٢٢ .

[4] ابن الأثير : المصدر المتقدم ١/٥٠٩-٥١٠ . جانار : المرجع المتقدم ٧٧-٧٨ .

عاقل [1] . ولم يقف الأمر عند مكان الدفن بل يضاف إلى ذلك تاريخ الوفاة التي يقدرهـــا جواد علي استناداً إلى تقدير سنة وفاة الحارث حفيد حجر أنه (٥٢٨ م) ومـــنه يمكـــن تعيـــين زمن حجر قبل ذلك بجيلين أي نحو الربع الثالث من القرن الخامس الميلادي [2] .

٣- عمــرو المقصــور :

خـــلف عمرو أباه حجراً على عرش كندة ، وحكم أخوه معاوية اليمامة . وبالقيـــاس إلى ما كان للوالد لم يبق لعمرو سوى نجد بالإضافة إلى أنه حسب ما تـــنقل الـــروايات العربية لم يكن كأبيه في القوة والذكاء والشجاعة والدهاء ، بل كـــان رجلاً ضعيفاً قليل الطموح تنقصه الشجاعة والحكمة في الملك والقوة ، لذا رضـــي بمـــا آل إليه من ملك أبيه ، ولم يعمل على توسيع رقعة سلطانه أو فرض حكمه على مناطق أو قبائل جديدة لذا لقب بالمقصور [3] .

وقـــد خـــرجت في عهده قبائل ربيعة عن طاعة كندة ، وكانت صلاته مع الغساســـنة تختلف عن صلاته بالمناذرة ، وقد قاد غزوة ضد بلاد الشام ، وكانت نهايته على يد الحارث بن أبي شمر الذي قتله في أثناء معركة جرت بينهما [4] .

٣- الحـــارث بـــن عمـــرو :

انتقل ملك كندة بعد وفاة الملك الكندي عمرو بن حجر (المقصور) إلى ابنه الحـــارث بن عمرو أقوى ملوك كندة ، وأشهر رجل في أسرة آكل المرار ، حيث

---

[1] ابن الأثير : المصدر نفسه ٥١٢/١ .

[2] جانار : المرجع المتقدم ٨٤ . علي : المرجع المتقدم ٣٢٥/٣ .

[3] أبـــو الفـــدا : المصدر المتقدم ٧٤/١ . ابن حبيب : المحبر ٣٦٩ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥١٢/١ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٧٩/٩ . جانار : المرجع المتقدم ٨٥ .

[4] اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢١٦/١ . جانار : المرجع المتقدم ٨٦-٨٧-٩١ .

بلغت الأسرة المالكة الكندية باعتلاء الحارث هذا عرش كندة أوج سلطانها ، وبرزت على مسرح التاريخ وتسلطت الأضواء عليها .

فقد وسع ملكه في أرجاء مختلفة من بلاد العرب ، ومد نفوذه عليها ، فصار ملكاً على كندة وربيعة وبكر ، وقبائل أخرى ، حكم أربعين عاماً بدءاً من (٤٩٠م أو ٤٩٧م) على خلاف في تاريخ الحكم [1] ، ولعل الخلاف الحاصل في التاريخ ، ومدة الحكم يعود إلى خلاف بين سلطان الحارث على قبيلة كندة ، وعلى القبائل الأخرى بعد عدة أعوام من بدء حكمه والتي جمعها بقوته ، ووحدها بشخصيته ، فلم تعترف به ملكاً عليها إلا بعد أن تأكدت من قوة شكيمته وشدة بأسه وصلابة شخصيته ، واستعماله القوة والعنف مع عدد منها ، فرضيت به ملكاً ما دام قوياً ، والأمر بيده ، وهذا يتوقف مع منطق السياسة في الصحراء لأنه عماد حياتها السياسية .

ولعله بعد أن وحد هذه القبائل في منطقة نجد بمملكة قوية صلبة في العقد الأخير من القرن الخامس الميلادي ، شغلها ليمتص حبها للحرب ، ومنافسة بعضها بعضاً بغارات على المقاطعات الرومانية والفارسية .

وتذكر الرواية العربية أنباء الحروب مع الحيرة والفرس بشكل كبير مهم مفادها أن الحارث بن عمرو ملك كندة استطاع في حقبة من حقب تاريخه أن يجمع إلى حاضرة ملكه عرش مملكة الحيرة ، أما عن الكيفية التي وصل بنتيجتها الحارث بن عمرو إلى عرش الحيرة وطرد ملكها المنذر بن ماء السماء عنها ، مما أغاظ قباذ ، وكان نتيجته طرد الملك الحيري المنذر من عرش الحيرة وتوليتها الحارث كما ذكرنا في فصل المناذرة.

---

[1] جانار : المرجع المتقدم ص ٩٢-٩٣-٩٦ .

بينما نجد رواية أخرى تخبرنا بأن الحارث طمع في ملك آل لخم فاستغل ضعف قباذ وعجزه عن تقديم المساعدة لحلفائه من ملوك الحيرة في حال مهاجمتهم من قبله ، لذلك جمع قوة كندة مع من حالفها ، وكان معها من القبائل الأخرى مثل بكر بن وائل ، وباغتها بهجوم عسكري لم يستطع المنذر بن ماء السماء صده والوقوف في وجهه ، فلاذ بالفرار من دار مملكته بالحيرة ، ومضى حتى نزل الجرساء الكلبي ، وأقام عنده إلى أن تغير الحال بعد وفاة الأمبراطور الفارسي قباذ ، وتبدلت سياسة الحكومة الفارسية بقدوم ملكها الجديد كسرى أنو شروان فعاد المنذر إلى ملكه .

وطرد الحارث من حاضرة ملكه كما تقدم وأعاد ما اغتصب منه (1) ولا تذكر المصادر العربية مكاناً ثابتاً للحارث بعد اغتصابه ملك اللخميين غير الحيرة ، فاليعقوبي (2) وابن الأثير (3) والأصفهاني رأوا أنه أقام بالحيرة (4) .

ويظهر أن الظروف الدولية قد ساعدت على قيام التحالف بين كندة وفارس في هذه الفترة التي يحددها أوليندر (٥٢٥-٥٢٨) (5) لأن فارس كانت ترى في تحالفها مع كندة تحقيقاً لمصالحها الاقتصادية ، وطرق تجارها المارة في الجزيرة العربية ، بالإضافة إلى تأمين حدودها الجنوبية من هجمات القبائل العربية ، لأن

---

(1) الطبري : المصدر المتقدم ٢/٩٥-٩٦ . أبو الفدا : المصدر المتقدم ٧٤/١ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥١١/١. ابن خلدون : المصدر المتقدم ٢٧٤/٢ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٧٩/٩ . حتي : تاريخ العرب ١٢٦ . كريستنتش : المرجع المتقدم ٣٤٤ . علي : المرجع المتقدم ٣٣٥/٣ وما بعد .
Depercerval, Ibid, vol. 2 . P . 286 .

(2) اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢١٦/١ .

(3) ابن الأثير : المصدر المتقدم ٤١١/١ .

(4) الأصفهاني : (حمزة) المصدر المتقدم ص ١١١ .

(5) جانار : المرجع المتقدم ص ١١٤ .

كـندة من بني الجون القبيلة المسيطرة على شرقي الجزيرة ، ويمكن أن يكون هذا الـتقارب موجهـاً ضد بيزنطة التي كانت تحث حليفتها الحبشة على غزو اليمن لحرمان الفرس من مد نفوذهم هناك [١] .

ويفسـر ذلـك أنه عندما طرد الملك الكندي الحارث بن عمرو من الحيرة تقـرب مـن خصوم الفرس البيزنطيين [٢] ، مع أنه كان فيما سلف خصماً لهم ، انـتزع كل ما في أيدي ملوك الشام الغسانيين ، وردهم إلى أقاصي أعمالهم [٣] . ويقـال أنـه هاجم فلسطين مرتين عام ٤٩٧م فانتصر في ثانيتهما على حاكمها البيزنطي رومانوس مما اضطر الأمبراطور انستازيوس إلى عقد صلح معه لكي يأمن هجماتـه على المدن السورية وذلك عام ٥٠٢ م ، ولا شك أن هذا الصلح كان موجهاً ضد الفرس وحلفائهم المناذرة أيضاً [٤] .

وقد كان للحارث أولاد ملّكهم على القبائل العربية ، واستعان بهم في فرض قوتـه عليها ، فجعل حجراً ملكاً على أسد وغطفان وكنانة ، ولربما كان له بعد موت أبيه شيء من السيادة على كندة كلها [٥] .

وكـان حكمـه شديد الوطأة فتذمر بنو أسد وثاروا عليه وقتلوه في نهاية الأمر بظروف غامضة . بعد مقتله انضمت كنانة وقيس إلى بني أسد في نهب معسكره [٦] .

---

[١] ينظر فصل اليمن .

[٢] جانار : المرجع المتقدم ص ١١٥ .

[٣] ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) العقد الفريد ، تحقيق مفيد محمد قميحة . دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ج٦ ص ٧٨ .

[٤] هبو : المرجع المتقدم ص ١٣٦ .

[٥] أبـو الفـدا : المصدر المتقدم ٧٤/١ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥١٣/١ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٨١/٩-٨٢ . جانار : المرجع المتقدم ٢٣ . علي : المرجع المتقدم ٣٤٧/٣-٣٥٠ .

[٦] ابـن الأثير : المصدر المتقدم ٥١٢/١-٥١٣ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٨٢/٩-٨٤ . ابن خلدون : المصدر المتقدم ٢٧٤/٢ .

أما أخوه شرحبيل بن الحارث فقد تولى الملك على بكر بن وائل ، وحنظلة بن مالك ، وبني أسيد والرباب من مضر ، أي على عدد من قبائل ربيعة ومضر ، وتـــولى سلمة حكم قيس عيلان وقبائل من بني تميم أي أن شرحبيل وسلمة بسطا سلطانهما على النصف الشرقي من مملكة كندة ما عدا البحرين [١] .

ولمـــا مات أبوهما الحارث شب النِّزاع بينهما فتقاتلا ، وكان المنذر هو من أشـــعل أوار الفتنة في يوم الكلاب الأول [٢] وخطته التفريق بينهما بالدسائس ثأراً لمـــا كان بينه وبين أبيهما الحارث بن عمرو [٣] فقتل شرحبيل ، وهذا اليوم كان بدايـــة النهاية لحكم آل آكل المرار على كندة في أعالي شبه الجزيرة العربية ، وقد حدد ذلك بعام ٦١٢ م [٤] .

أمـــا ما يتعلق بأخبار أمراء كندة الآخرين فلا يوجد بين أيدينا غير النذر اليسير وذلـــك أنه بعد مقتل شرحبيل أخرجت تغلب سلمة عنها ، فالتجأ إلى بكر بن وائل فدانـــت له بالطاعـــة ، ولكـــن المنذر ملك الحيرة طلب إليهم أن يخلعوا طاعة سلمة فرفضـــوا فـــزحف عليهم بجموعه وهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً على جبل أوراة ، ويعرف هذا اليوم بيوم أوراة الأول [٥] . ولحقت تغلب بالمنذر ملك الحيرة [٦] .

---

[١] ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥١٣/١-٥١٤ . جانار : المرجع المتقدم ١٢٥-١٢٦ .

[٢] اليعقـــوبي : المصدر المتقدم ٢١٧/١ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥٤٩/١ وما بعد . الأصبهاني : المصدر المـــتقدم ٨١/٩-٨٢ . البـــكري : المصدر المتقدم ١١٣٢/٤ . جانار : المرجع المتقدم ١٢٦-١٢٧ . علي : المرجع المتقدم ٣٥٣/٣-٣٥٤ .

[٣] اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢١٧/١ . حتي : تاريخ العرب ص ١٢٦ . علي : المرجع المتقدم ٣٥٥/٣ .

[٤] علي : المرجع نفسه ٣٥٥/٣ .

[٥] ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥٥٢/١-٥٥٣ . وما بعد . جاد المولى : (محمد أحمد) أيام العرب في الجاهلية. مطبعة السعادة بمصر ط١ ص ٩٩ .

[٦] المفضل الضبي : المصدر المتقدم ص ٤٤١ . أبو الفدا : المصدر المتقدم ٧٤/١ . جاد المولى : المرجع نفسه ص ٩٩ .

أما معد يكرب بن الحارث ، فكان أبوه قد ولاه على قيس عيلان وطوائف أخرى ، وقد قضى الشطر الأخير من حياته بعد موت أخويه شرحبيل وسلمة حزيناً حتى اعتراه وسواس هلك به [١] .

وهكذا انهارت كندة بانتهاء الحارث بن عمرو وأبنائه من بعده بفعل الصراعات والنِّزاعات بينهما ولم نعد نسمع شيئاً عن أمير كندي باستثناء ما روي عن امرئ القيس بن حجر الذي أوقف بقية حياته بعد موت أبيه على الطواف بين القبائل العربية وغيرها من الممالك والدول الكبرى المجاورة له في محاولة للانتقام من بني أسد .

وامرؤ القيس هذا هو أحد شعراء المعلقات ، وأصغر أبناء حجر بن الحارث الكندي [٢] . طرده والده أنفة من قوله الشعر [٣] ، أو بالأصح لقوله شعراً فاحشاً [٤] ، فاضطر إلى الفرار والعيش مع صعاليك العرب [٥] يتصيد ويأكل ويشرب الخمر وتغنيه القيان ، فلما أتاه خبر مقتل أبيه انزعج كثيراً وقال عبارته المشهورة : " ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر . ثم شرب سبعاً ، فلما صحا آلى ألاّ يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه في جنابة حتى يدرك بثأره من قتلة أبيه قبيلة بني أسد " [٦] ، وارتحل ونزل بقبيلتي بكر بن وائل وتغلب

---

[١] ابن خلدون : المصدر المتقدم ٢٧٤/٢ . جانار : المرجع المتقدم ١٥٠ .

[٢] ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥١٥/١ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٨٦/٩-٨٧ .

[٣] ابن الأثير : المصدر نفسه ٥١٥/١ . الأصبهاني : المصدر نفسه ٨٧/٩ .

[٤] ديوان امرئ القيس . دار صادر ــ بيروت ص ٩ .

[٥] ديوان امرئ القيس ص (١٣-١٩) . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٨٧/٩ .

[٦] ديوان امرئ القيس ص ١٤ . ابن خلدون : المصدر المتقدم ٢٧٤/٢ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٨٧/٩-٨٨. ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٥٠-٥١ .

وسألهم أن ينصروه على بني أسد فأجابوه لذلك [1] وتقاتل مع بني أسد وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفرق جمعهم ، ولما أراد ملاحقتهم انفضت بكر وتغلب بحجة أنه أصاب ثأره منهم ، ولا مسوغ لملاحقتهم ، فلما يئس من نصرهم انتقل بين قبائل اليمن طالباً النصر منها على خصومه لكن دون جدوى [2] .

أثناء ذلك طلب بنو أسد الحماية من المنذر بن ماء السماء فمنحهم إياها ، وسرح الجيوش في طلب امرؤ القيس فانفض عنه من كان معه من رجال واضطر للانتقال بين قبائل العرب طالباً الحماية لشخصه ولأصحابه ، وكان آخر من نزل به وطلب حمايته السموءل بن عادياء صاحب تيماء ، فاستجاب لمطلبه وكتب أيضاً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ليكون وسيلته إلى الأمبراطور البيزنطي جستنيان لكي يساعده على الفوز بثأره [3] ، وبعد أن انتهت المراسلات قرر امرؤ القيس السفر وأودع دروعه وسار قاصداً القسطنطينية ، وهناك تعلق بحب ابنة الأمبراطور ، فعلم بنو أسد بالخبر ، فأضمروها ، وانتظروا نتيجة مساعيه مع الأمبراطور ، فلما تكللت بالنجاح أرسلوا من يبلغ الأمبراطور بالعلاقة بين امرئ القيس وابنته ، وأنه يقول الشعر الغزلي بها فيفضحها ، فامتلأت نفس الأمبراطور غيظاً ، وعزم على الانتقام من امرئ القيس فبعث إليه بحلة وشيء منسوجة بالذهب ، ولكنها مسمومة ، فلما لبسها أسرع السم في جسمه وسقط جلده ،

---

[1] ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥١٦/١ وما بعد . ابن خلدون : المصدر المتقدم ٢٧٤/٢ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٩٠/٩ . لكن أبا الفدا ينفي خبر إيقاع امرئ القيس ببني أسد . أبو الفدا : المصدر المتقدم ٧٥/١ .

[2] ديوان امرئ القيس ص ١٩ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٩١/٩ .

[3] ديوان امرئ القيس ص ٢٤ . اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢٢٠/١ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٥١٨/١ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٩١/٩-٩٢ وما بعد . جانار : المرجع المتقدم ص ١٦٠ وما بعد .

ولذلــك سمي بذي القروح ، ولما وصل إلى أنقرة من بلاد الروم ، وهو في طريق عودته إلى بلاده مات متأثراً بقروحه ودفن هناك [1] .

والجديــر بالذكــر ونحن بصدد الحديث عن امرئ القيس أن بعض المصادر ذكرت أن امرأ القيس [2] تمكن من بسط سلطانه ونفوذه على القبائل حتى ساحل الــبحر الأحمر، وقد عينه الأمبراطور على ولاية فلسطين دون أن تحدد هوية هذا الشــخص ، ونحن لا نستطيع الجزم بهذا ، ولكن بحسب المعطيات التاريخية يمكننا القــول إن كــندة كانت قد بلغت من القوة حداً مكنها من السيطرة على هذه المنطقة ، فوجه أحد أمرائها الأقوياء أنظاره إلى جزيرة يوتابة التي جعل منها موقعها الجغــرافي ملــتقى للطرق البحرية والبرية ، فاحتلت موقعاً استراتيجياً من المكانة الأولى ، وكــانت مركز مكوس الأمبراطورية حيث تتم مبادلة السلع التي كانت تُحمــل مــن البحر إلى إيلة [3] ، وقد انتزع امرؤ القيس هذه الجزيرة وطرد منها جــامعي المكوس البيزنطيين ، وأخذ يجني الضرائب بنفسه ، وأضاف مركزاً مهماً لأراضيه استطاع من خلاله أن يسيطر على تجارة الشرق من جانبها الأكبر .

ولم تعد هذه الجزيرة إلى أيدي البيزنطيين إلا في عام ٤٩٠ م ، وفي أثر نزاع وقع بين أولاده وورثته ، أضعف مركز الإمارة ، فانتهز البيزنطيون هذه الفرصة ، وانتزعوا ما تمكنوا من انتزاعه من أملاك هذا الرئيس [4] .

---

[1] ديــوان امرئ القيس ص ٢٤ . اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢٢٠/١ . أبو الفدا : المصدر المتقدم ٧٥/١ . ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٥٢ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ١٠٠/٩ . حتي : تاريخ العرب ص ٢٧ . جانار : المرجع المتقدم ص ١٧٣ .

[2] وربما قصد بامرئ القيس الحارث بن عمرو أقوى رجل من أسرة آكل المرار وأشهرهم .

[3] علي : المرجع المتقدم ٣٧٨/٣ . بيغوليفسكيا : المرجع المتقدم ص ٧٠ .

[4] علي : المرجع المتقدم ٣٨٣/٣-٣٨٥ . بيغوليفسكيا : المرجع المتقدم ص ١٦٨ .

مــن كل ما تقدم يمكن القول إن حقبة ابتدأت بعد موت الحارث شهد فيها الكــنديون الحــرب بعضهم على بعض ، وكانت العلاقة بين ملوك كندة من بني آكــل المــرار وبيزنطة ، ودولة الفرس وعمالهم اللخميين ، علاقة غزو ونزاع ثم تحــالف وصــراع انهــارت بعدها مملكة كندة ، وانسحب من بقي منهم باتجاه حضــرموت [1] ، بينما احتفظ حكام كندة من بني الجون باليمامة وما حولها إلى فــترة مــتأخرة نسبياً [2] . انتهت بتعرض كندة إلى يومين من أشهر أيام العرب قــبل الإســلام ، قــاتل فيها الكنديون في اليمامة بكل ما لديهم من قوة هما يوم جبــلة [3] ويوم ذي نجب [4] ، وفي هاتين الوقعتين كانت الضربة القاضية لكندة ، ومــا لها من أثر سياسي في شرقي الجزيرة العربية ووسطها ، وغادر أرض اليمامة والــبحرين من أثرها قسم كبير من الكنديين إلى حضرموت [5] فهل ترتبط هذه العــودة بالتطلعات الفارسية نحو جنوبي الجزيرة العربية ، ورغبة كندة في أن تكون حليفة للفرس ؟ .

لم تذكــر المصــادر أي شيء في هذا الشأن لأن الفرس في زمن أنوشروان اعــتمدوا على اللخميين في فرض سيطرتهم وسياستهم على القبائل العربية ، وقد ذكــر الطبري أن أنو شروان " مَلّك المنذر بن النعمان على العرب وأكرمه " [6] والمــنذر هو الذي ألقى الرعب والفزع في نفوس البيزنطيين ، وكان مجرباً متمرساً

---

[1] ابن حبيب : المحبر ص ٣٧٠ . حتي : تاريخ العرب ص ٢٦ . علي : المرجع المتقدم ٣/٣٥٧ .

[2] العســلي : (خالد) ، العلاقات السياسية بين المناذرة والجزيرة العربية ، المجلة التاريخية العدد الثاني . بغداد ١٩٧٢ م ص ١٨٨ .

[3] الهمداني : المصدر المتقدم ص ١٦٨ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ١/٥٨٣ .

[4] ابن الأثير : المصدر المتقدم ١/٥٩٥ .

[5] الهمداني : المصدر المتقدم ١٦٨ وما بعد .

[6] الطبري : المصدر المتقدم ٢/١٠٤ .

في فنون القتال ، وشديد الولاء للفرس [1] ، وفي عهده بلغت دولة اللخميين أقصى درجات الازدهار والقوة ، حتى إن الإمبراطور جستنيان حاول استمالته ، والتأثير فيــه بالأموال والهدايا لكي يكف عن مهاجمة الحدود البيزنطية ، وقد أدى توسيع الـــلخميين وسط الجزيرة بعد القضاء على كندة إلى الاصطدام بمصالح حمير لذلك حـــاول أبـــرهة الحبشي حاكم اليمن وحليف بيزنطة إعادة مد نفوذ حمير وسط الجزيـــرة العـــربية لإرهاب أهلها المتحالفين مع الفرس ، ولإيقاف تحرك اللخميين نحو الجنوب [2] .

حضـــارة كنـــدة :

وصـــف عـــدد مـــن المؤرخين المحدثين الحضارة الكندية القديمة بأنها كانت حضـــارة مـــتأخرة قياساً على ما كان عليه المناذرة في العراق والغساسنة في بلاد الشام ، ووصفوا بأنهم قبائل بدوية ، ابتعدت عن الأخذ بالمظاهر الحضرية المستقرة ولم يقـــيموا في حاضـــرة ثابتة بل كانوا يتنقلون في أرجاء شبه الجزيرة العربية ولا سيما بين الجنوب والشمال ، واستعملوا الخيام مساكن لهم ، ولم يعرف عنهم بناء القصور والمدن ، وكان ملوكهم يقضون أوقاتهم في الحرب والصيد [3] .

إلا أن هـــذا الكلام فيه شيء من الإجحاف ، ولا يخضع لمعايير صحيحة ، فالمكتشـــفات الأثرية أثبتت عكس ذلك ، فقد كان مجتمعاً متحضراً بكل ما تحمله هـــذه الكلمة من معنى ، إذ سكنوا المنازل المبنية بالحجر ، وشيدوا المدن والقرى ، وبـــرزت النواحي المعمارية عندهم في السوق والقصر والمعبد ، وكانت المقابر التي شـــيدت حسب الوضع الاجتماعي ، وتقسم إلى ثلاث فئات ، فئة الملوك ، وفئة

---

[1] بيغوليفسكيا : المرجع المتقدم ص ١٣٢ .

[2] بتروفسكي : المرجع المتقدم ص ٧٩ .

[3] عاقل : تاريخ العرب ٢٠٨ . الجميلي : المرجع المتقدم ١٦٤ .

النبلاء ، وفئة عامة الناس ، ولعل المنطقة السكنية دلت دلالة واضحة على الطراز العربي مع مراعاتهم لظروف البيئة واحتياجاتهم المختلفة ، والذي شوهدت منه تأثيرات عربية معاصرة للطراز المعماري الذي ساد في القرون الأولى للميلاد مما شوهد في اليمن والبتراء والحضر [١] .

وقد اتخذوا " قرية " الفاو عاصمة لهم ، ويدل موقعها على أنها كانت ممراً حضارياً مزدهراً ، حيث كان للتجارة أهمية كبيرة في حياة السكان ، لأنها كانت عاملاً مهماً في اتصالهم بالأمم المجاورة . ومع التجارة نهضت مرافق الحياة المختلفة [٢] ، فأثروا بذلك ثراء انعكست آثاره على ما بنوه من قصور وأسواق ومقابر ومعابد .

ولم يتوقف الأمر على التجارة فقد اهتموا بالزراعة اهتماماً واضحاً ، فحفروا الآبار الواسعة ، وشقوا القنوات الجوفية مستغلين بذلك الأودية التي تمر بها القنوات السطحية التي تجلب المياه إلى داخل المدينة ، وبذلك كانت كمية المياه فيها حينئذٍ كافية لإقامة حياة نشطة ومستقرة ، كما حرصوا على جمع الأسمدة الحيوانية ليستغلوها في زراعتهم ، واهتموا بالثروة الحيوانية المدجنة والمصيدة [٣] .

ولم ينقص اهتمامهم بالصناعة عن الاهتمامات الأخرى ، فقد كشفت الحفريات عن العديد من الصناعات المعدنية والحلي ، والزجاج ، والفخار ، والأدوات الحجرية ، وبعض القطع النسيجية من الكتان وصوف الأغنام ووبر الجمال [٤] .

---

[١] الأنصاري : المرجع المتقدم ص ٣١ .

[٢] الأنصاري : المرجع نفسه ١٧ .

[٣] الأنصاري : المرجع نفسه ١٧ .

[٤] الأنصاري : المرجع نفسه ٢٨ .

وكـــان لسكان " قرية " الفاو اهتمام خاص بالخشب فاستخدموه في المنازل والأســـواق وفي المقابر ، وعثر على أدوات مصنوعة من العظام والعاج كالأساور والخـــواتم والأقراط والأعلاق والخرز ، وأدوات الزينة والحلي ، ومقابض الخناجر والأسلحة والسيوف [1] .

بالإضـــافة إلى المسكوكات ، وكان معظم ما عثر عليه من الفضة والبرونز ، وكمـــا حفلت " قرية " بكل هذه المظاهر الحضارية المختلفة ، فإنها حفلت أيضاً بمجموعـــة مهمة من الفنون من تماثيل مصنوعة من مواد مختلفة من المعدن والحجر الرمـــلي والجـــيري والمرمـــر والطـــين والخزف ، تمثل أشخاصاً بهيئات متعددة ، وحيوانات ودمى .

أمـــا اللوحات الجدارية (فريسكات) فقد جاءت آية في الإبداع الفني ، وقد مر الفن في " قرية الفاو " بأربع مراحل :

١- نحت مظاهر الطبيعة في سفوح الجبال .

٢- الرسم داخل المنازل .

٣- أصـــبح الفنان يمثل كياناً له دوره في المجتمع ، ولعله كان يقوم بتكليف من السكان برسم مناظر يقترحونها ، أو يطلبونها منه باللونين الأسود والأحمر

٤- رسم الفنان الفريسكات داخل القصر ولونها بعد أن مزج بين الألوان ، ونوعها [2] .

ولا ننس الكتابات ، فالكتابة تُعدّ من أكثر ما كان يهتم به مواطنو " قرية " الفـــاو وكـــانت بالنســـبة لهم حاجة ملحة نظراً لدور " قرية " الفاو التجاري

---

[1] الأنصاري : المرجع نفسه ٢٧ .

[2] الأنصاري : المرجع نفسه ٢٤ وما بعد .

وأهميتها السياسية لكونها عاصمة لدولة كندة مما جعلها مرتكزاً قيادياً يحتم عليها الاهتمام بهذا الجانب الحيوي في علاقاتها مع الآخرين ، وللديانة أهمية في جعل الكتابة وسيلة من وسائل التقديس والعبادة [1] .

إن القلم المسند كان القلم الرسمي الذي عبر به مواطنو " قرية" الفاو عن أفكارهم وخواطرهم ومشكلاتهم ، ولا عجب في ذلك ، فكندة ومن والاها من قبائل يمنية ، والقلم المسند هو القلم الذي استعملته ممالك الجنوب ، وهو الذي انتشر في الشمال .

ومن خلال الكتابة أمكن التعرف على بعض المعبودات مثل كهل معبودهم الأعظم وإل ، واللات و (عثر ـــ أشرق) والعزى ، ومناة ، وود ، وشمس ، وغير هؤلاء من المعبودات ، ويفسر ذلك كون مجتمع " قرية " الفاو مجتمعاً تفرض عليه كثرة عناصره تنوع معبوداته . وقد تسربت اليهودية إلى كندة ، واعتنقها قسم من بطونها ، ولا سيما قبيلة السكون [2] ، وتسربت إليهم من مجاورتهم لبطون متهودة من بني كنانة في يثرب وخيبر ، وبسبب اتصال الكنديين بالتبابعة الحميريين في عهودهم الأخيرة ، وتبعيتهم لهم.

وكانت المسيحية أكثر انتشاراً من اليهودية ، اعتنقها بنو تغلب ، وبنو أسد ، وانتقلت إليهم بوساطة الغساسنة وعباد الحيرة ، وأحباش اليمن [3] .

وبما أنهم كانوا زعماء اتحاد قبلي ضم قبائل مختلفة اعترفت بزعامتهم ، ودانت لهم فقد ساعد وجود هذا الاتحاد القبلي تحت إطار كندة وزعمائها على

---

[1] الأنصاري : المرجع نفسه ٢٣ .

[2] السبري : (عبد الله خورشيد) القبائل العربية في مصر خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة . مصر . دار الكتاب ١٩٦٧ م ص ١٤٢ .

[3] عاقل : تاريخ العرب ص ٢٠٨ .

اســتقرار شــؤون القبائل في الجزيرة ونشر الأمن والنظام فيها ، وهذه أول محاولة قــام بهــا عــرب الجزيرة الوسطى لجمع شمل القبائل تحت زعامة واحدة مركزية تــتولاها مؤسســة واحــدة ، فكــانت من هذه الناحية سابقة أفاد منها سكان الحجاز والنبي ﷺ .

ومن كل ذلك نظن أن مجتمع كندة وعلى الرغم من بعده الجغرافي عن منابع الحضــارات وروافدها ، إلا أن التجارة ، والثقل السياسي الذي كانت تمثله مملكة كندة استطاعا أن يجذبا إلى " قرية " الفاو أجمل ميزات الحضارات ، وأن تتفاعل معها ، وتنتج حضارة خاصة بها متميزة بشكل واضح عما جاورها .



الفصل العاشر

الحجـــاز

- مقدمة .
- الوضع الجغرافي والمناخي والاقتصادي .
- الوضع السياسي .
- الوضع الديني .
- الوضع الاجتماعي .
- الوضع الثقافي .



الحجـــاز

مقـــدمـــة :

اكتســـبت الحجاز أهمية دينية واقتصادية خاصة بين أقاليم الجزيرة العربية ، فالأهميـــة الدينية لوجود الكعبة فيه ، والاقتصادية لأنه مثّل مرحلة مهمة اقتصادياً بسبب مرور التجارة العالمية في أراضيه ، مما كان له أثر فعال في الحياة الاجتماعية والسياســية ، فازدادت القبائل العربية في الحجاز تقارباً وتآلفاً ، وارتبط الكثيرون مـــن ســـكان الحواضر والبادية بالعملية التجارية ، وانقسمت قبائل الحجاز آنذاك حسب نوع العمل إلى :

١- قبائل بدوية متجولة في المناطق السهبية والصحراوية .

٢- قبائل فلاحية مستقرة مارست الزراعة ،

٣- قبائل اعتمدت التجارة أساساً لحياتها المعيشية .

وكان **الوضع الجغرافي** والمناخي والاقتصادي وراء هذا التقسيم فعلى الرغم مـــن ارتفـــاع الحاجز الجبلي في بعض المواقع إلا أنه لم يحدث تغيير مهم في مناخ الإقلـــيم الـــذي كان أكثر تأثراً بالحرارة والرطوبة المرتفعتين في تهامة ، فضلاً عن ضـــغط الصحراء وجفافها في الشرق ، مما انعكس على طبيعته الإنتاجية ، حيث انحســـرت الأراضـــي الصالحة للزراعة في بعض الأماكن ، بينما انعدمت تماماً في أمـــاكن أخرى ، فالسهول الواقعة بين جبال السراة ، والبحر الأحمر ضيقة غالباً ، وهـــي تضيق من الجنوب إلى الشمال حتى تبلغ أقصى ضيق لها عند العقبة ، وهي

حارة رطبة في الغالب غير صحية في بعض الأماكن [1] .

وانعكس هذا الوضع التضاريسي للحجاز على حياة السكان ، حيث سمحت بقيام مجتمع زراعي في الطائف [2] . ذات المناخ المعتدل والهواء الشمالي الطيب [3] الذي أثر في تلطيف الجو وجعلها مصيفاً لأهل مكة [4] معوضة عن قساوة مناخ مكة ، فهي في واد غير ذي زرع كما ذكر القرآن الكريم [5] وحولتها إلى حاضرة تجارية ، بينما اعتمدت يثرب على عدة مصادر في طليعتها الزراعة وبعض الحرف الصناعية .

فالإنتاج الاقتصادي في الحجاز كما في غيره من الأقاليم رهين البيئة بكل تفاصيلها ، وبسبب الجفاف وشح المياه والسيول تداخلت البداوة مع التحضر وتشابكت المصالح عند نهاية خط موحد ليؤلفا معاً ظاهرة حضارية متميزة . بالإضافة إلى تغير طرق التجارة واحتلال الحبشة لليمن وانهيار سد مأرب ، ونشوب اضطرابات سياسية وتدهور الأوضاع الاقتصادية لعرب الجنوب ، مما هيأ الظروف لنمو حركة التجارة في الحجاز عامة ، ومكة خاصة ، فقد كان يشقها شريان رئيس من شرايين التجارة العالمية تتفرع منه شرايين تتجه باتجاه الشرق والشمال الشرقي ، وفي موازاته شريان رئيس آخر كان له دوره في عالم تجارة ذلك الزمن [6] .

---

(1) شريف : المرجع المتقدم ص ١٤ .

(2) ياقوت : المصدر المتقدم مادة طائف .

(3) الأصطخري : المصدر المتقدم ص ٢٤ .

(4) ابن خرداذبة : (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) . المسالك والممالك . دار المدينة ، مطبعة بريل ١٨٨٩ م ص ١٣٤ . الحموي : المصدر المتقدم مادة طائف .

(5) سورة إبراهيم : الآية ٣٧ .

(6) سالم : المرجع المتقدم ص ٣٤١ .

فالحجاز جسر ربط بلاد الشام وحوض البحر الأبيض المتوسط باليمن والحبشة والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهندي [١] .

أما يثرب فقد اعتمدت الزراعة مورداً لها في حياتها واشتغل سكانها بدأب لاستثمار الإمكانات الطبيعية التي توافرت في المدينة وأصبحت من أكبر المناطق الزراعية في شبه الجزيرة العربية .

يعد النخيل أهم مزروعات يثرب ، وعليه اعتماد السكان ، ومن مردوده تدفع الأجور وتسدد الديون [٢] ، بالإضافة إلى الشعير والبقول والخضراوات والسلق والبصل والثوم والقثاء ، وحب اللبان ، والليمون والسفرجل ، والخوخ والموز ، والعنب والتين والرمان [٣] .

ولعل أوسع الأراضي الزراعية وأخصبها ، وأكثرها غلة ، كانت بأيدي أثرياء العشائر والأسر العربية المتهودة من يثرب وخيبر ووادي القرى ، ثم تنازع هؤلاء عليها مع الأوس والخزرج بعد استقرار القبائل اليمانية من الأزد في مدن الحجاز .

ويرى ولفنسون أن هؤلاء المتهودين أسهموا في تطوير الزراعة وتنويعها ، بإدخالهم أنواعاً جديدة من الأشجار ، وطرائق جديدة للحراثة والزراعة بالآلات [٤] . بيد أن ذلك لا يؤكد أن هؤلاء كانوا أساتذة عرب الحجاز في هذا

---

(١) سالم : المرجع نفسه ص ٣٤١ . دلو : المرجع المتقدم ص ١٣٠ .

(٢) السمهودي : (نور الدين علي بن أحمد) . وفاء الوفا . دار إحياء التراث العربي ١٩٨٤ م ط٤ ج٢ ص ١٥٥ . شريف : المرجع المتقدم ص ٣٥٧ .

(٣) ابن هشام : المصدر المتقدم ١٤٤/٢ . ياقوت : المصدر المتقدم مادة المدينة . الفيروز آبادي : (مجد الدين أبو الطاهر بن محمد بن يعقوب) . المغانم المطابة في معالم طابة . تحقيق حمد الجاسر ١٩٦٩ ص ١٨٩ .

(٤) ولفنسون : (إسرائيل) تاريخ اليهود في بلاد العرب ـ القاهرة ـ ١٩٢٧ م ص ١٧ .

المجـــال على حد تعبيره ، وليست خبرتهم مستوردة من الخارج حيث أن البيئة في المقام الأول فرضت هذا النمط الإنتاجي الزراعي في يثرب ، دون أن ننسى الخلفية الـــزراعية التي صاحبت عرب يثرب في هجرتهم من اليمن ، ومن ثم اشتغالهم بهذه الحـــرفة في الوقـــت الـــذي دأب فيه هؤلاء المتهودين على تعاطي الحرف المالية والصـــناعية ، ومن ناحية أخرى كان موقع يثرب على طريق القوافل ، قد وضعها بالضـــرورة في نطاق تلك الدائرة الحيوية من تجارة الشام المهمة . وفي ضوء ذلك يفـــترض أنها كانت تسهم بنصيب فيها سواء في المواد المنتجة محلياً ، أم المستوردة عـــبر ميـــناء الجار ، في الوقت الذي احترف فيه العرب الزراعة كانت التجارة في الغـــالب بأيدي المتهودين في يثرب والذين كانوا قبل الهجرة النبوية الأكثر خطورة لتجار قريش [١] .

وقـــد استغل أهل المدينة أراضيهم الزراعية بطريقة بالمؤاجرة ، أو استثمروها عـــلى الثلث ، أو النصف ، أو أقل من ذلك أو أكثر [٢] ، فنتج عن ذلك غبن في توزيـــع الـــناتج ومـــنازعات ، وخصومات بين أصحاب الأراضي والمستأجرين والعاملين فيها ، وكان الملاكون الكبار يستغلون حاجة أصحاب الأراضي الصغيرة أو الفقيرة ضعيفة الإنتاج من المال ، فيضطرونهم إلى التخلي عن أراضيهم في حال عجـــزهم عـــن تســـديد الدين وفوائده العالية ، أو إلى بيع ثمار نخلهم ، وأعنابهم مزابنة [٣] ، ومحاصيل شعيرهم ، وقمحهم محاقلة [٤] .

---

[١] ولفنسون : المرجع نفسه ص ١٩ .

[٢] البخاري : (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) . صحيح البخاري ، مطبعة الهندي ٨٢٠/٢ .وما بعد .

[٣] المزابـــنة : اشتراء التمر بالتمر من رؤوس النخل . البخاري : المصدر المتقدم ٧٦٣/٢ . وينظر الأفغاني : (سعيد) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ـــ دار الفكر ١٩٧٤ م ط٣ ص ٥٠-٥١ .

[٤] المحاقلة : مفاعلة الحقل ، وهو الزرع والمراد بيع الحنطة في سنبلها بحنطة صافية . البخاري : المصدر نفسه ٧٦٣/٢ حاشية . الأفغاني : المرجع نفسه ص ٥٠ .

واعتمد سكان الطائف أيضاً على الزراعة البعلية والمروية ، فالحنطة هي الإنتاج الزراعي الأول فيها ، كانت العير إذا قدمت من السراة والطائف ، وغير ذلك تحمل الحنطة والحبوب والسمن والعسل إلى مكة [1] ، وقد نسب البدو بما عرفوه عن أهل الطائف من دهاء وكياسة إلى اعتيادهم العيش على الحنطة حتى غدا ذلك مضرب الأمثال [2] ، ووجدت الفواكه المتعددة فيها كالعنب والرمان والخوخ والتين والسفرجل والبطيخ والموز [3] . وضرب بزبيبها المثل [4] .

وقد تجاوز إنتاجها الزراعي حاجة الاستهلاك المحلي ، وتكون فائض للتبادل التجاري ، وكانت هذه الزراعة مربحة شجعت كبار تجار قريش في مكة على استثمار بعض أموالهم في ملكية الأرض كما لاحظنا فيما تقدم مما يدل على نشوء الملكية الخاصة وتلاشي الملكية الجماعية وتضامن الحواضر وتآلفها وتعاونها على أساس المصلحة المشتركة لا على أساس العصبية القبلية ، فالطائف كانت مصيفاً لأهل مكة [5] . وكانتا تسميان القريتين وعرفتا بالمكتين .

وتطورت الحرف وعمل بها الأحرار والعبيد ، وظهرت صناعات جديدة إلى جانب ما كان قائماً ، وأدخلت بعض التقانات على وسائلها وطرائقها بهدف زيادة الإنتاج وتحسين نوعه ، وانقسم المجتمع إلى أهل صناعة وأهل زراعة وأهل

---

[1] الأزرقي : المصدر المتقدم ٢٣٩/٢ وينظر :

Lammens, La Cité Arabe de Taif à La Veille del Hegire, Byrouth, 1922. P. 32.
Lammens, Berceaude I'Islam. I, Rome P.83.

[2] دائرة المعارف الإسلامية مادة الطائف .

[3] البلاذري : المصدر المتقدم ص (٦٩-٧٠) . وينظر : ابن بطوطة : (محمد بن عبد الله) رحلة ابن بطوطة . دار صادر بيروت ١٩٦٤ م ص ١٣٢ . حتي : تاريخ العرب ١٥١ .

[4] المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٧٩ . ياقوت : المصدر المتقدم مادة طائف .

Lammens, La Cité Arabe de Taif, P. 33.

[5] ابن خرداذبة : المصدر المتقدم ص ١٣٤ . الحموي : المصدر المتقدم مادة طائف .

تجارة ، وصار الإنتاج اجتماعياً أي للمبادلة ، وليس للحاجة الضرورية ، ونشأت الأسـواق وتزامـنت مع موسم الحج فتعددت فيها الأغراض وانعكس ذلك على الوضع الاقتصادي والاجتماعي للحواضر .

وكـان من بين هذه الصناعات التعدين والصناعات المعدنية ، ففي حديث خباب ابن الأرت " كنت قيناً في الجاهلية أعمل السيوف " [1] . إن هذه الصناعة كانت متوافرة ــ وقد ضربت العرب المثل بجودة صناعته ودقتها ونسبت إليه [2] . وكـان العاص بن هشام أخو أبي جهل والوليد بن المغيرة، وهما من أشراف قريش حدادين [3].

وقـد ارتـبطت الحـدادة بالـزراعة في بعض الحواضر كما هو الحال في يـثرب [4] ، فكـان الحـدادون يصـنعون ما يحتاج إليه الفلاحون والمزارعون مـن محـاريث وفـؤوس لحراثة الأرض ، وعمل بهذه الصناعة أناس من العرب واليهـود والمـوالي والعـبيد ، وإن كـان الموالي والعبيد أكثر احترافاً لها كأبي سيف [5] .

ووجدت صناعة الأسلحة والدروع في يثرب ، وقد احتكرها المتهودون لأنه ذكـر أن الرسـول ﷺ غـنم عـند محاربة بني النضير وبني قريظة سلاح الحلقة

---

(1) ابـن هشام : المصدر المتقدم ٣٨٣/١ . البلاذري : (أحمد بن يحى) أنساب الأشراف . تحقيق محمد حميد الله . دار المعارف بمصر ١٧٦/١ وما بعد . ابن الأثير : (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم) . أسد الغابة في معرفة الصحابة . دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ٩٨/٢ . ابن منظور : المصدر المتقدم مادة قين . علي : المرجع المتقدم ٥٥٥/٧ .

(2) الـزبيدي : (محمـد مرتضـى الحسيني) . تاج العروس . تحقيق عبد الستار أحمد فراج . مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٥ م مادة خبب .

(3) ابن قتيبة : المعارف ص ٥٧٥ . علي : المرجع المتقدم ٢٥/٤-٥٥٥/٧ .

(4) شريف : المرجع المتقدم ٣٧٦ . سالم : المرجع المتقدم ٤٠٥ .

(5) ابن الأثير : أسد الغابة ٣٨/١-٣٩ . لم يذكر من هو أبو سيف .

والدروع [١] ، وكانت كثرة فلو لم يعرفوا هذه الصناعة لما كثر ما لديهم منها .

ولم تخل حواضر الحجاز من صناعة الغزل والنسيج ، فكان مجمع الزاهد حائكاً [٢] والعوام أبو الزبير ، وعثمان بن طلحة ، وقيس بن مخرمة خياطين [٣] .

واشتهرت الطائف بالدباغة ، فقد ذكر أن الطائف بلد الدباغ يدبغ بها الاهب الطائفية المعروكة [٤] .

وعرفوا بعض الصناعات الغذائية ، فبنو سليم كانوا يبيعون السمن في أسواق المدينة [٥] ، وعرفت أيضاً بصناعة الخمور والمكاتل والقفف ، التي قامت على سعف النخل ، وعرف أهل الطائف بعمل الزبيب حتى ضرب بحسنه المثل [٦] .

ولم تخل الحواضر من النجارين ، فكان عتبة بن أبي وقاص أخو سعد نجاراً [٧] ، ولقد عمل أمية بن خلف بصناعة الأواني الفخارية [٨] .

وبما أن المجتمع انقسم إلى فئات غنية وفقيرة بسبب الوضع الاقتصادي الذي كان سائداً فقد أقبل الأثرياء على شراء المصوغات لنسائهم وفتياهم ، فنشطت صناعة الحلي وكانت تعتمد على الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، فاشتهر بها

---

[١] البلاذري : فتوح البلدان ٣١ . ابن سعد : المصدر المتقدم ١١٧/٣ .

[٢] ابن قتيبة : المعارف ٥٧٧ .

[٣] ابن قتيبة : المصدر نفسه ٥٧٧ . ابن رسته : (أبو علي أحمد بن عمر) الأعلاق النفسية ليدن ١٨٩١ م ص ٢١٥ علي : المرجع المتقدم ١٢٥/٤ .

[٤] الهمداني : الصفه ٢٦٠ . ياقوت : المصدر المتقدم مادة طائف .

[٥] ابن شبه : (أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري) تاريخ المدينة المنورة . تحقيق فهيم محمد شلتوت ط٢ ١ /٣٠٦ حاشية . السمهودي : المصدر المتقدم ٧٤٧/٢ وما بعد .

[٦] الأصطخري : المصدر المتقدم ٢٤ . الحموي : المصدر المتقدم مادة طائف .

[٧] ابن قتيبة : المعارف ٥٧٥ . ابن رسته : المصدر المتقدم ٢١٥ .

[٨] ابن قتيبة : المصدر نفسه ٥٧٥ . ابن رسته : المصدر نفسه ٢١٥ .

بطون كبني قينقاع وكانت لهم سوق للصاغة [1] .

من دراسة الوضع الاقتصادي في الحجاز نستطيع أن نبرز الحقائق التالية ، وهي أن الطبيعة هي التي جعلت مكة تتبوأ مركز الصدارة في التجارة لتنافسها زراعياً المدينة والطائف ، ولينتج عن ذلك نشوء العديد من الصناعات ، فقد تطورت القوى المنتجة وتوسعت أعمال الصناعة ، وازداد الإنتاج ، وتكون فائض للتبادل ، وحدث تقسيم للعمل جديد ، وانفصلت الحرفة عن الزراعة ، وارتبط الإنتاج الصناعي بسوق التبادل التجاري ، وازدهرت حواضر عديدة ، ونظمت الأسواق الموسمية ، وعقدت الاتفاقات التجارية ، وارتبطت أعداد كبيرة بالعملية التجارية ، فازداد العرب تقارباً وتآلفاً على أساس المصلحة المشتركة ، إلا أن الملكية الجماعية للأرض والكلأ والماء تلاشت وحل محلها الملكية الخاصة ، فكانت معظم الأراضي ملكاً للكبار والأثرياء ، واستتبع التفاوت في الملكية والثروة تفاوتاً في المعيشة ، وتمايزاً اجتماعياً بين أفراد القبيلة الواحدة ، وانقسم أبناؤها الأحرار إلى أغنياء إقطاعيين وبرجوازيين وفقراء . إضافة إلى الانقسام الذي كان قائماً بين الأحرار والعبيد ، ومن ثم أصبح الفقراء يعملون لحساب الأغنياء وأصبح للمال الدور الأول في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فتفككت روابط المجتمع والضرورات الدفاعية ، فأبو لهب مثلاً مع أنه من قريش وعم النبي ﷺ نصب العداوة [2] له لما رأى أن مصالحه تتهدد ، وقد أنزل الله تعالى فيه وفي امرأته آيات كريمة تدل على ذلك [3] .

الوضع السياسي :

عاش قدماء العرب في الحجاز ، كما في غيره من أقاليم شبه الجزيرة العربية

---

[1] ابن هشام : المصدر المتقدم ٣/٥١ .

[2] ابن هشام : المصدر نفسه ١/٣٨٠-٣٨١ .

[3] سورة المسد : الآية : ١-٢-٣-٤-٥ .

في ظـــل المشاعة العشيرية ، أو في نطاق الترابط الجماعي البدائي على أساس صلة الدم والنسب ، ولم يكن آنذاك وجود للملكية الخاصة ، ولا للحكومة أو أجهزتها ومؤسساتها المختلفة .

وقد حدثت تغيرات على المستوى الاقتصادي أدت إلى ظهور الملكية الخاصة وتلاشي الملكية الجماعية كما شاهدنا في الوضع الاقتصادي ، فانعكس ذلك على المجتمع ، وأدى ظهور أشكال من التفاوت والتمايز بين أعضائه ، وترتيب مواقعهم الاجـــتماعية ضمن المجتمع على أساس الثروة مجتازاً التقاليد والأعراف القبلية التي كانت سائدة فيما مضى .

وقـــد أنـــتج هذا التطور الاقتصادي ــ الاجتماعي مؤسسة سياسية نظمت العلاقـــة بـــين الفئة المالكة لوسائل الإنتاج والفئات الاجتماعية الأخرى الخاضعة لاستغلالها الاقتصادي ، وأضفت على هذه العلاقة شرعيتها .

ولكـــي نفهـــم الواقـــع الذي تمخض عن ظهور هذه المؤسسة لا بد لنا من الرجوع قليلاً إلى الوراء لمعرفة الجذور التاريخية التي أسهمت في تكوينها .

- **الجـــذر الأول** : مثلـــته مكة الحنيفة المتصلة بعهد إبراهيم وابنه إسماعيل والـــبيت الـــذي أقامـــاه على ربوة حمراء [1] . بيد أن هذه الحقبة على أهميـــتها محاطة بالكثير من الغموض لا سيما التحديد الزمني للحقبة التي اتخذت مكة من خلالها موقعها القدسي المميز في شمالي الجزيرة العربية .
- **الجذر الثاني** : مثلته مكة الخزاعية بزعامة عمرو بن لحي الذي عمل على تنشـــيط ، وتسيير شؤون الحج فأقام موائد الطعام للحجيج وجلب الماء مـــن الآبـــار المنبثة حول مكة ، ونصب الأصنام في الكعبة وما حولها .

---

[1] المسعودي : المصدر المتقدم ٢/١٨-١٩ .

حـــتى يُـــرغّب القـــبائل العـــربية في الحج إلى بيت مكة [1] ولا سيما قبائل الشمال .

كـــانت هذه الحقبة أكثر وضوحاً من الحقبة المتقدمة ، ففيها جاء الانقلاب الديني استجابة لضغط القبائل المحيطة بمكة ، أو المتعاملة معها خارج الحجاز والتي تديـــن بـــالعقيدة الوثنية ، وبذلك يكون عمرو بن لحي المؤسس الأول للمجتمع المكي وواضع بواكير تنظيمه .

- **الجـــذر الـــثالث** : مثلته مكة القرشية التي دانت في تكوينها لقصي بن كـــلاب ، فبدت كالقلب النابض وسط تطاحن قبلي دائر على أطراف شبه الجزيرة العربية .

وكـــانت قريش أثناء حكم خزاعة لمكة تحل في الشعاب ، والجبال وأطراف مكة وما حولها [2] ، فكثر مال زعيمها قصي بن كلاب وعظم شرفه [3] ، وبما أنه تـــزوج ابنة سيد خزاعة حليل بن حبشية [4] . رأى أنه أولى بالبيت وأمر مكة ، ولكنه لم يصل إلى ذلك إلا بعد قتال مرير [5] .

شـــكل وصـــول قصـــي لزعامة مكة نقطة تحول في تاريخ مكة السياسي والاقتصادي والاجتماعي قبل الإسلام ، واستند إلى المال بالدرجة الأولى ، وليس إلى عرف قبلي تقليدي مقرر .

---

(1) الأزرقي : المصدر المتقدم ١٠٠/١ .

(2) البلاذري : أنساب الأشراف ٤٩/١.

(3) الطبري : المصدر المتقدم ٢٥٥/٢ . ابن خلدون : المصدر المتقدم ٣٣٤/٢ .

(4) المســعودي : المصدر المتقدم ٣١/٢ . ابن كثير : المصدر المتقدم ١٨٧/٢ . ابن خلدون : المصدر المتقدم ٣٣٤/٢

(5) ابن هشام : المصدر المتقدم ١٣٠/١ وما بعد . الطبري : المصدر المتقدم ٢٥٦/٢ . ابن خلدون : المصدر المتقدم ٣٣٤/٢ .

فبعد أن استقر الأمر له ، قطع مكة أرباعاً بين قومه ، وأنزل كل حي من قريش منازلهم في مكة التي أصبحوا عليها [١] ، فمن كانت حالتهم المادية حسنة أنزلهم في بطاح مكة حول الكعبة وهم قريش البطاح [٢] ، ومن بينهم بنو هاشم وبنو أمية وهم سادة القرشيين ، وكان منهم التجار والأثرياء ، وأسكن من لم تكن حالتهم المادية حسنة في ظواهر مكة وهم قريش الظواهر [٣] . وكانوا أقل منْزلة من قريش البطاح ، ومنهم بنو هُصيص بن كعب بن لؤي وتيم بن مرة ومحارب والحارث ابنا فهر ، وإلى جانب هؤلاء كان يسكن مكة الأحلاف ، أي القبائل التي لم تكن من قريش ولكنها كانت متحالفة معها ، فالأحباش وهم على زعم ابن هشام جماعة من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهُون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا بوادٍ يُقال له الأحبش بأسفل مكة [٤] ، والأصح لأنهم تحبشوا من مختلف القبائل .

بعد ذلك ابتنى دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت ، ففيها كانت قريش تقضي أمورها [٥] ، فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار الندوة ، ولا يتشاورون في أمر ينْزل بهم إلا في داره ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فيها ، وما تدرع جارية [٦] ، إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره ، يشق

---

[١] ابن هشام : المصدر نفسه ١٣٢/١ . الطبري : المصدر نفسه ٢٥٨/٢ . الحموي : المصدر المتقدم مادة مكة . ابن كثير : المصدر المتقدم ٢٠٧/٢ .

[٢] الحموي : المصدر نفسه مادة البطاح .

[٣] الحموي : المصدر نفسه مادة البطاح .

[٤] ابن هشام : المصدر المتقدم ١٢/٢ . قارن : ابن حبيب : المنمق ٢٢٩-٢٣٠ .

[٥] ابن هشام : المصدر نفسه ١٣٢/١ . الطبري : المصدر المتقدم ٢٥٩/٢ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٢١/٢ .

[٦] أدرعت الجارية لبست الدرع . ودرع المرأة قميصها . الطبري : المصدر المتقدم ٢٥٩/٢ حاشية .

عـليها فيهـا درعها ثم تدرعه ، وينطلق بها أهلها ، ولا يعذر [1] غلام إلا في دار الـندوة . ولا يخـرج عير من قريش فيرحلون منها ، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها ، فكان أمره في قومه أثناء حياته ، وبعد مماته كالدين المتبع لا يعمل بغيره تيمناً برأيه وتشـريفاً له ومعـرفة بفضله [2] ، وبذلك يكون قد أسس صيغة الحكم الفردي المؤسسـاتي في مكـة ، وسميـت دار الندوة لأن قريشاً كانوا ينتدون فيها ، أي يجـتمعون لـلخير والشـر [3] . وبالطبع كانت إدارتها بيد الشريحة الاجتماعية العـليا مـن قريش ، لأن الملأ يستمد مضمونه من دلالته اللغوية ، فالملأ أشراف القـوم ووجوههم ورؤساؤهم ، والملأ القوم ذوو الشارة ، أي ذوو المظهر الحسن والـرأي [4] ، وقـد جعـل قصي امتيازاً جديداً لذوي السلطة ، أي اقتصر حق العضوية على أصحاب النفوذ الذين بلغوا في موقعهم الاجتماعي والاقتصادي حداً يمكـنهم من الانتداء إلى المجلس ، فيتشاورون ويتحدثون من دون أن يكون لذلك صفة إلزامية .

وكـانت هذه المؤسسة السياسية تتمتع بسلطات تشريعية تنفيذية ، قضائية إدارية ، فهي تتناول الشؤون العامة والخاصة لسكان مكة .

وبعـد أن كـبر قصي أوصى لولده البكر عبد الدار ، قائلاً لـه : أما والله لألحقـنك بالقوم ، وإذا كانوا قد شرفوا عليك [5] فجعل لـه الوظائف التالية :

---

(1) يختن والأعذار والختان ، وليمة تقدم أثناء الختان . ابن منظور : المصدر المتقدم مادة عذر .

(2) ابن هشام : المصدر المتقدم ١٣٢/١ . الطبري : المصدر المتقدم ٢٥٩/٢ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٢/ ٢١ . الحموي : المصدر المتقدم مادة مكة .

(3) الأزرقـي : المصـدر المتقدم ١١٠/١ . الأصبهاني : المصدر المتقدم ٣٨٤/٤ حاشية . الحموي : المصدر المتقدم مادة مكة . زيدان : المرجع المتقدم ص ٣٣٠ .

(4) ابن منظور : المصدر المتقدم مادة ملأ .

(5) ابن هشام : المصدر المتقدم ١٣٦/١ . الطبري : المصدر المتقدم ٢٥٩/٢ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٢١/٢.

الندوة ، والحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، واللواء [1] ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه [2] ، لأنه كان على ما يبدو أكثر غنى من عبد الدار . ولكي يتوازى الأخوان في الشرف عهد لعبد الدار بالمرافق الحيوية سالفة الذكر .

وهذا يدل على أن السلطة في مكة كانت مراكز نفوذ ، تقررها الأهمية الاقتصادية والثروة من دون أن يكون لأسرة معينة أو زعيم معين السيادة الكاملة على غرار ما كان لقصي زعيم قريش الأول . ولعله أراد استمرار هذه الصيغة وراثية في أبنائه ، فهيأ عبد الدار لذلك كي يكون زعيماً لمكة .

وقد أدى غياب قصي الزعيم المؤسس إلى تفجير أزمة السلطة في مكة ، وانقلاب بني عبد مناف ضد بني عبد الدار لانتزاع السلطة الفعلية منهم ، فهل كانت نتيجة ذلك عودة الحكم الفردي إلى مكة ؟ .

بالطبع لم يتحقق ذلك لأن أحداً من الأخوة الأربعة عبد مناف ، عبد الدار ، عبد العزى ، عبد قصي لم يتح له الاستئثار بالسلطة ، أو الانفراد بها ، ولكنه أسهم في تكريس صيغة حكم الأقلية ، ونتج عن ذلك ولادة زعامات جديدة ، كان لها دورها في تمزيق الوحدة القبلية ، وبعثرة مصالحها ، واضطراب انتماءاتها ، فظهرت التكتلات بخلفيتها التجارية الواضحة معبرة بصورة ما عن طبيعة هذه المرحلة سواء في الصراع بين مراكز النفوذ القديمة والجديدة ، أو في التفاوت الاجتماعي الذي أسفر عنه .

فكان حلف المطيبين باكورة التكتلات ، ونتيجة للصراعات الداخلية في أحد

---

[1] الأزرقي : المصدر المتقدم ١/١٠٧ . الطبري : المصدر المتقدم ٢/٢٦٠ . ابن كثير : المصدر المتقدم ٢/٢٠٩ .

[2] ابن هشام : المصدر المتقدم ١/١٣٦ . الطبري : المصدر المتقدم ٢/٢٥٩ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٢/٢١ . ابن كثير : المصدر المتقدم ٢/٢٠٩ .

أهم مراكز النفوذ ومحاولة لتطويق طموح المراكز الأخرى ، والحد من أخطارها ، عقد في مكة بين بني أسد بن عبد العزى ، وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة وبـني الحـارث بن فهر بن مالك وبين بني عبد مناف [1] ، لإعادة توزيع المرافق الاقتصادية في مكة بين جميع القبائل .

ثم قـام تكـتل آخر منافس هو حلف الأحلاف بين بني مخزوم وبني سهم ، وبـين جمح وبني عدي بن كعب وبين بني عبد الدار [2] ، واتفقوا على ألا يغيروا شـيئاً مما كان قد فعله قصي ، أي أن تبقى جميع المرافق الاقتصادية في مكة بأيدي آل عبد الدار وتحالفوا وتعاقدوا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً [3] .

لقـد كانت المنافسة شديدة بين أطراف التكتلين ، فالأول كان يهدف إلى دعـم مواقعـه السياسية والاقتصادية ، والثاني حرص على حماية مصالحه وإثبات وجـوده " لـتفن كل قبيلة من أسند إليها " [4] ذلك الشعار الذي عبّر عن حدة الصراع وضراوة التنافس بين الحليفين .

لم تتجاوز هذه الحرب المتوقع اندلاعها حدود التعبئة النفسية وتحولت المجابهة إلى مهادنة ، واستبدل قرار التصفية الأولى من هذا الصراع الذي ستصيب سلبياته الأحلاف والطيبين على السواء .

وخـرج حـلف المطيبين معزز الموقع ، محافظاً على السلطة الفعلية المتوارثة فحقـق مـا طمـح إلى تحقيقه ، بينما اقتصرت مكاسب الأحلاف على وظائف

---

[1] ابـن هشـام : المصدر نفسه ١٣٨/١ . المسعودي : المصدر المتقدم ٣٣/٢ . الحموي : المصدر المتقدم مادة مكة . ابن الأثير : المصدر نفسه ٤٥٣/١ . ابن كثير : المصدر نفسه ٢٠٩/٢ .

[2] ابن هشام : المصدر المتقدم ١٣٩/١ . المسعودي : المصدر المتقدم ٣٢/٢ .

[3] ابن هشام : المصدر نفسه ١٣٩/١ . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٤٥٤/١ .

[4] ابن هشام : المصدر نفسه ١٣٩/١ . بيضون : المرجع المتقدم ص ٩١ .

الشرف كالحجاية واللواء والندوة [1] . التي جاءت ترضية معنوية لبني عبد الدار ، ولعل الإنجاز الأكثر أهمية الذي حققه هذا التكتل هو الاعتراف بشراكة للمطيبين في زعامة المدينة على الرغم من التفاوت في الثروة والنفوذ بين التحالفين كليهما .

إذاً كـــانت العلاقة واضحة بين الثراء والنفوذ السياسي للفرد ، فقد ظهرت جيـــوب مســـتقلة أو متعارضة مع مركز النفوذ وذلك في فرع أو أكثر من العائلة القرشـــية الكـــبيرة نتيجة التطور المذهل للتجارة المكية بمصادرها المتنوعة وحرية التكسب فيها .

ولكي يعزز الملأ سلطته استخدم فرقة عسكرية (الأحابيش) قوامها أفراد من قـــبائل عربية سكنوا مكة وارتبطوا بقريش بروابط التحالف ، وكان لتجارة مكة ورحلاتهـــا إلى اليمن والشام أهمية كبرى في ربطها بروابط التحالف مع عدد كبير مـــن القبائل على طول الطرق التجارية التي كانت تسير عليها ، فلقد كان سيرها عـــلى طـــرق القوافـــل الطويل يعرضها لأخطار تحتاج معها إلى عقد معاهدات واستئجار حراس من القبائل المختلفة . كما أن ما تدفعه من أموال لرؤساء القبائل التي تمر قوافلها بأراضيهم جعلها على صلات حسنة مع هذه القبائل ، لأن ازدهار قريش وغناها كان يعني ازدهارهم وغناهم .

وقد أضاف المكيون إلى هذا ارتباطهم بروابط المصاهرة مع العديد من القبائل حـــتى تكون روابطهم مع هذه القبائل أشد وأمتن . ولقد أظهروا في تعاملهم مع القـــبائل الأخرى التي دخلت معهم في أحلاف وإيلافات براعة سياسية وحنكة لا تجارى . وقد عبر العرب عن هذا النوع من البراعة والحنكة في معاملة الناس عامة

---

(1) ابـــن هشام : المصدر نفسه ١٣٩/١ . الحموي : المصدر المتقدم مادة مكة . ابن الأثير : المصدر المتقدم ٤٥٤/١.

بكـــلمة " الحلم " ، وقد ساعد حلم قريش على استمرار زعامتها على ما جاورها من قبائل لأمد طويل [1]

وقــد ظــل الأحابيش قوة عسكرية إلى ما بعد ظهور الإسلام وحاربوا مع قــريش يوم أحد . وقد رأسهم أبو عامر المعروف بالراهب [2] وساهموا أيضاً في الدفاع عن مكة عام الفتح [3]. وفي ذلك مظهر أولي الشكل من أشكال الدولة ، فدار الندوة هي الجنين الذي تكون نتيجة التناقض بين القوى الاجتماعية القابضة على الزمام والقوى الاجتماعية الأخرى المؤهلة موضوعياً ، إنه جنين دولة التجار والمرابين ومستغلي سائر المنتجين من الأحرار والموالي والعبيد [4] .

أمــا في البادية فقد ظهر شكل من التنظيم السياسي يتناسب مع التطورات الاقتصــادية والاجــتماعية التي كانت تحدث ببطء ، وكما أن البيئة تحكمت في أسلوب معيشة الحواضر تحكمت في البادية بشكل أكبر فليس للإنسان من سيطرة عــلى الظــروف المناخية سوى التنقل ، وهو تنقل قسري بحثاً عن الكلأ والماء . فارتكزت القاعدة الاقتصادية على تربية الماشية [5] وسعوا من أجل امتلاك أكبر عدد مــنها ســواء أكان ذلك بالغزو المسلح أم بالسلب والنهب ، وتضامنوا على أساس صــلة الــدم والنســب والأخوة حفاظاً على ممتلكاتهم ، وأنعامهم ، وكان شعارهم انصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً ، وهذا ما سنشرحه في الوضع الاجتماعي .

---

(1) عاقل : تاريخ العرب ص ٢٣٧ .

(2) الواقــدي : (محمد بن عمر) المغازي ، تحقيق مارسدن جونز ــ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات . بيروت لبنان ، ٢٠٧/١ . ابن هشام : المصدر المتقدم ٦٥/٣ .

(3) الواقدي : المصدر نفسه ٧٨٣/١ . الطبري : المصدر المتقدم ٥٦/٣ .

(4) مــروة : (حسين) النّزعات المادية في الفلسفة العربية . دار الفارابي ، بيروت ١٩٧٨ م ــ ١٩٧٩ م ج١ ص (٢٣٦-٢٣٧) .

(5) بلاشير : المرجع المتقدم ٣٨ . حتي : تاريخ العرب ص ٤٩ .

وقـــد أفضـــى تطـــور القوى المنتجة ، وتوسع العلاقات التجارية بين مكة وأعراب البادية إلى تفكك الروابط القبلية الجماعية البدائية وظهور الملكية الخاصة ، أي أن تطـــور الاقتصاد الحضري كان لـــه دور رئيس في تفكك الملكية الجماعية الـــبدائية الـــتي قام عليها الاقتصاد البدوي ، وكانت أبرز مظاهره تملك سادات القـــبائل ووجهائهـــا لقطعان الماشية وموارد المياه والجد في تنمية ثرواتهم بوسائل مختـــلفة ، ففي الغزو حصلوا على حصة الأسد من الغنائم وفي ذلك قول الشاعر عبد الله بن عنمه الضبي [1] :

لـــك المراعـــي والصفايـــا وحكمك والنشيطة والفضول

فنشـــأت داخل القبائل فئات متمايزة من بعضها في الثروة والحقوق ، وأدى ذلـــك إلى التمايز الاجتماعي مما كان له الأثر في تولي الرئاسة ، وولادة شكل من الســـلطة يتناســـب مع الملكية الخاصة ، ومن ثم إيجاد قوانين تحمي أموال المالكين وتجبر الفقراء والمساكين على الخنوع والسكينة .

وظهـــر مجلس القبيلة بصورة اختلف في تركيبه ومهماته وسلطاته عما كان عـــليه فـــيما مضـــى ، فرئيس القبيلة كان مسؤولاً مباشرة عن قبيلته أيام السلم والحرب تنتقيه القبيلة ممن توافرت فيه خصال ، مثل الشجاعة والجود والغيرة وسعة الـــثروة وســـداد الـــرأي وكمال التجربة مع كبر السن [2] حيث سادت الروح

---

[1] الأصـــمعي : (أبـــو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك) . الأصمعيات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شـــاكر وعبد السلام هارون ـــ دار المعارف ص ٢٨ . وينظر : حسن : (حسين الحاج) حضارة العرب في عصر الجاهلية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤٠٥ هـــ ـــ ١٩٨٤ م ط١ ص ٧٣ رفاعي : المرجع المتقدم ص ٢٣ .

[2] بلاشـــير : المـــرجع المتقدم ٣٩-٤٠ . حتي : تاريخ العرب ص ٥٧ . حسن : تاريخ الإسلام السياسي ٦٢/١ .

الديمقـــراطية المجـــتمع القبلي واشترطوا في اختيارهم له أن يكون أشدهم عصبية حـــتى يكـــون له الانتصار بعصبيته ما يمكن لــــه من الرياسة ، ومن إطاعة القبيلة لــــه ، واحترامها لرأيه " قد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت لــــه العصبية ، فإذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم من الغلب على كثير مـــن الـــنواحي والأمـــم وجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم ، والعفو عـــن الـــزلات والاحـــتمال مـــن غير القادر ، والقرى للضيوف ، وحمل الكل وإكســـاب المعـــدوم ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الأموال في صون الأعراض " [1] .

وقـــد اســـتغلوا ظاهرة الكرم لدعم سلطتهم ، لأنهم عدوها إحدى مظاهر الســـيادة ، فأصـــبحت ســـلطة الـــرئيس في ظروف نشوء الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين أبناء القبيلة لا تستمد وجودها من الأعراف المقررة وحدها ، بل صارت تستمدها أيضاً من قوة المال ، فسعوا ما أمكنهم ليصبحوا أغنياء حتى ولو على حساب استغلال الرعاة البدو وعملهم .

فأعضـــاء مجلس القبيلة وإن كانوا من الوجهاء والأثرياء ومن بسطاء الناس الذيـــن لا يمـــلكون شيئاً . إلا أن القوة المهيمنة بقيت لذوي المال والثروة ، أما ما عداهم فلم يكن لهم أي نفوذ ، أو منْزلة ، وإنما عليهم الطاعة والعمل برأي السادة الذين يديرون مناقشات المجلس ، ويتولون مفاوضات مع القبائل الأخرى ويقومون بفـــض المـــنازعات ويحكمـــون في الخلافـــات إذا لجأ إليهم المتخاصمون ، وهم المسؤولون عن استضافة الذين يؤمون مضارب القبيلة ، وهم يقررون أمر الترحل الجماعي للقبيلة ، ويحددون مكانه وزمانه .

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ص ١٤٣ .

غـــير أن هـــذا التنظيم البدائي للسلطة المتمثلة في مجلس القبيلة وأعضائه من وجهـــاء العشائر والبطون إضافة إلى شاعر القبيلة الذي لــه مكانته ، لأن موهبة الشعـــر مـــن صـــفات الكمال [1] ، وخطيبها الذي هو لسان القبيلة في منافراتها ومـــناظراتها وحـــاكم القبيلة وفرسانها [2] ، لم يرق إلى مستوى التنظيم السياسي لمجتمع دار الندوة أو الملأ في مكة.

ويبقى وجه الشبه بين التنظيمين أن القوة المهيمنة صارت لذوي الثروة الجاه. ففـــي مكـــة كانت الزعامة القرشية تشمل أموالاً موظفة في أعمال تجارية ، وفي اســـتثمار الأراضي وبعض الموارد في مناطق أخرى ، ولا سيما الطائف ، أي أن الســـلطة والحكـــم كان بأيدي التجار والمرابين والأشراف ، وكان لهذه السلطة أجهـــزتها ومؤسســـاتها كالســـدانة والسقاية الرفادة والندوة واللواء ، ولما حدث الصـــدام اســـتحدثت مؤسســـات أخرى كالمشورة والأشناق (الديات) ، والقبة والأعـــنة ، والســـفارة ، والحكومـــة والأمـــوال المحجرة [3] . وقد أرضت هذه المؤسسات شعور العشائر ، وأشعرتها بمشاركتها ، وحفظت تماسك القبيلة في حين لم يكن لحكومات القبائل أي مؤسسة مقابلة لذلك .

أمـــا يثرب فقد كانت تؤلف عدة كتل قبلية ، تفتقد إلى التماسك ، وتنفرد عـــن بعضها في أحياء مستقلة ، نتيجة لذلك التنافر الدائم والصراع المستمر على النفوذ في المدينة .

فمجـــتمع يثرب كان يتألف من العرب المتهودين الذين تغلبوا على عماليق

---

[1] اليعقوبي : المصدر المتقدم ٣٠٤/١ . الألوسي : المرجع المتقدم ٨٤/٣ . علي : المرجع المتقدم ٧٠/٩ .

[2] اليعقـــوبي : المصـــدر نفســـه ٣٠٤/١ . الأصبهاني : المرجع المتقدم ٢٥/٣ . الألوسي : المرجع المتقدم ١٥١/٣

[3] زيدان : (جرجي) تاريخ التمدن الإسلامي . مطابع دار الهلال . القاهرة ٣٧/١-٣٩ .

يـثرب [١] ، ومـن اليهـود الجدد الذين اتخذوا من بلاد العرب دار هجرة أمام اضطهاد الرومان لهم [٢] ، وتجمعوا في قرى أعدوا فيها الحصون والأطام يلجؤون إليهـا في أوقات الغارات ، ويتحصن فيها النساء والأطفال والشيوخ عندما يخرج رجالهم إلى القتال ، وكان لهم بيت يعرف باسم بيت المدراس [٣] ، كان يجلس فيه علماؤهم وأحبارهم ، وربانيوهم يتدارسون التوراة ويفصلون فيما شجر بينهم [٤]

وقـد تأثر هؤلاء بجيرانهم العرب ، فانقسموا إلى قبائل وبطون واتخذوا أسماء عربية محلية ، وكانوا يتخاطبون بالعربية العرباء ولكنها كانت عربية تداخلها رطانة الـلهجة الكنعانية [٥] . ولكنهم مع ذلك ظلوا يؤلفون طبقة منفصلة عن العرب ، مـتخوفين عـلى أنفسـهم مـنهم مما يفسر ميلهم إلى الإكثار من بناء الأطام ، والحصـون ، فازدادت الحصون كثرة بعد نزول الأوس والخزرج ، وتطلعهم إلى السيادة والغلبة .

بعـد هجـرة الأوس والخزرج من اليمن إثر انهدام سد مأرب سكن الأوس جـنوبي يـثرب وشرقيها ، وأقام الخزرج في الشمال الغربي من يثرب ويبدو أن متهودي يثرب عقدوا حلفاً معهم لضمان سيادتهم عليها ، وبهدف استخدام هؤلاء في رد أي غزو خارجي ثم أنهم كانوا يسعون إلى الإبقاء على صلات الجوار بينهم وبين بقية قبائل العرب في المدن ، والتجمعات العمرانية المجاورة ليثرب .

---

(١) سـرور : (محمد جمال الدين) قيام الدولة العربية الإسلامية ـ دار الفكر العربي ـ مطبعة الاعتماد بمصر ط١ ، ص ٤٨ . سالم : المرجع المتقدم ٣٩٣ .

(٢) سالم : المرجع نفسه ٣٩٣ .

(٣) ابن هشام : المصدر المتقدم ٢/٢٠١-٢٠٧-٢١٣ .

(٤) سالم : المرجع المتقدم ٣٩٤ .

(٥) ولفنسون : المرجع المتقدم س ٢٠ .

واســـتمر الحلف المنعقد زمناً طويلاً حتى صار للأوس والخزرج مال وعدد ، فظهـــر بيـــنهم شاب قوي طموح هو مالك بن العجلان سوده الحيان عليهما ، وأنف مالك أن يظل قومه تحت رحمة المتهودين ، فعزم أن يضع حداً لسيادتهم على قومـــه فوثب على زعيـــم يقال له الفطيون ، وقتله ، وخرج حتى قدم الشام طالباً نصـــرة مـــلوك غسان [1] ولم يتردد هؤلاء في تسيير حشد من قواتهم إلى يثرب لنصـــرة الأوس والخزرج ، وبذلك تم للأوس والخزرج الغلبة على يثرب ، وأقاموا في عالية المدينة وسافلتها ، وبعضهم نزل مناطق لم تكن مأهولة فعمروها ، ومنهم مـــن لجأ إلى قرية من قرى يثرب ، واتخذوا الأموال والأطام ، فابتنوا مائة وسبعة وعشرين أطماً [2] .

عـــاش الأوس والخزرج بعد غلبيتهم على يثرب متفقين ، متحدي الصفوف حيـــناً من الزمن ، ثم ساءت العلاقات بين الأخوة ، ووقع الخلاف ، وانتهى الأمر بقيام حروب بينهما كثيرة ، ترجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية امتدت حتى قبيل الهجرة النبوية ، وكانت الكتل المتهودة هي من يقوي هذا الصراع .

ثم مـــا لـــبث أن فطن هؤلاء معاً إلى ما كان يسعى إليه هؤلاء المتهودين من ضرب فريق منهم بالآخر حتى تصبح لهم السيادة لا سيما أن الحرب بينهما كانت قـــد سببت للطرفين خسائر كثيرة في الأرواح ، وفي الأملاك ، فعملوا إلى تحقيق السـلام في يثرب ، وفكروا في أن يكون واحد منهم أميراً وسيداً عليهم ، ويبدو أنهـــم توصلوا إلى اتفاق نهائي في هذا الشأن فكان سيد الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول العوفي ، وكان سيد الأوس أبو عامر عبد عمر بن صيفي بن النعمان .

---

[1] السمهودي : المصدر المتقدم ١/١٧٨-١٧٩ .

[2] السمهودي : المصدر نفسه ١/١٨٠-١٨١ . بيضون : المرجع المتقدم ص ٤٠ .

أما الطائف فكانت مجهولة التاريخ ، قبل ارتباطها بثقيف المعاصرة لقريش في مكة على أن هذه المدينة استمدت قوها المعنوية من توحيد الثقفيين لها بعد جهود مستميتة ، قدر لها أن تشغل دوراً غير ثانوي في تاريخ الحجاز ، حيث كانت منذ البدء حليفة لقريش ، واسمها يقترن عادة بمكة ، فيُقال مكة من الطائف ، والطائف من مكة ، وكانتا تسميان بالقريتين ، من قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [1]. كما عُرفتا بالمكتين من قول ورقة ابن نوفل :

ببطن المكتين على رجائي حديثك أن أرى منه خروجا [2]

لكن هذا لم يمنع من طموحها إلى انتزاع الدور المركزي منها ، ويبدو أنها حققت بعض النجاح في هذا الشأن مع تحويل طريق العراق إليها من مكة ، مما أدى إلى نشوب حرب الفجار التي كانت تهديداً للتجار الذين سلكوا هذا الطريق [3] ، ولكن ثقيف لم تلبث أن اعترفت بصدارة منافستها قريش وعدتها حليفة عضوية لها [4] ، حيث شكلت القبيلتان جبهة متماسكة حتى نهاية العصر الأموي .

ثمة دلالات تشير إلى قدم التحالف بين الطرفين ولا سيما بعد نجاح القرشيين في السيطرة على التجارة الداخلية ، وتحول مدينتهم إلى سوق الحجاز المركزي ، ومن ثم حاجة الثقفيين في المقابل إلى تصريف إنتاجهم الزراعي وتسويقه في مكة .

وكان يسكن في الطائف أيضاً من حمير قوم من قريش ، وكان الحميريون من آزد السراة ، والقرشيون من كنانة وعذرة ، كما سكنها جماعة من هوازن

---

[1] سورة الزخرف ، الآية ٣١ .

[2] ابن هشام : المصدر المتقدم ٢٠٣/١ .

[3] علي : المرجع المتقدم ١١٥/٤ .

[4] بيضون : المرجع المتقدم ٣٨ .

والأوس والخــزرج ومزينة وجهينة . وكان يسكن جبل غزوان قبائل هذيل [(١)] ، وهكــذا ارتــبط المكيــون بــأهل الطائف ارتباطاً وثيقاً من الناحية الاجتماعية والاقتصــادية ، وإلى جــانب هــذه الفئة من العرب ، كان يسكن الطائف أيضاً جماعــات مــن اليهود أقاموا فيها للتجارة ، كما سكنها قوم من الروم ، أي من معتــنقي المذهــب الــبيزنطي الرومي ، وذكر البلاذري من هؤلاء الأزرق وهو والد نافع بن الأزرق الخارجي ، وكان عبداً رومياً حداداً ، وكان هناك أيضاً عبد يُقــال لــه عــبيد تزوج سمية أمة الحارث بن كلدة الثقفي ، وكان طبيباً ماهراً من العرب [(٢)] .

وذكــر ابن هشام اسم غلام لعتبة وشيبة ابني ربيعة يقال له عداس ، وكان نصرانياً من نينوى [(٣)] .

الوضــع الــديني :

اختــلفت الآراء حــول تحديد مدلول لفظة دين [(٤)] ، وتقوم الآن دراسات حول تاريخ الأديان وعلم النفس الديني ، وذلك أن الدين نفسه ظاهرة من ظواهر الحيــاة الاجتماعية [(٥)] ، فكل دين ظهر في التاريخ كانت لــه جذوره التاريخية في الموطــن الذي ظهر فيه ، وجذوره المعرفية المتصلة بالواقع البشري ، بحيث ارتبط الديــن بمســتوى تطور العقل البشري الذي ظهرت فيه بذور التفكير النظري ، وإمكانات الفصل بين الفكر والواقع .

---

(١) ياقوت : المصدر المتقدم مادة طائف . وينظر :

Lammens, La Cité de Taif, P. 12 .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ٤٨٩-٤٩٠ . البلاذري : فتوح البلدان ٦٧/١-٦٨ .

(٣) ابن هشام : المصدر المتقدم ٦٢/٢ .

(٤) ابن منظور ، المصدر المتقدم ، مادة دين .

(٥) علي : المرجع المتقدم ٩/٦ .

ومــع تطــور القــوى المنتجة وحدوث التقسيم الاجتماعي للعمل ظهرت أشــكال عديدة من الدين كالطوطمية [1] والتوحيدية [2] والحنيفية [3] ، واليهودية والمســيحية والوثــنية ... الخ . وتأثرت بمؤثرات خارجية عربية وأجنبية ، وذلك بحكم صلات العرب التجارية والحضارية مع بعضهم أولاً ومع بقية العالم ثانياً .

فــإذا حاولــنا أن نبحث عن أديان العرب في الحجاز قبل الإسلام نجد أن القرآن [4] هو مصدرنا في هذا الباب ففيه ذكر لما احتوته الحجاز من عبادات وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل ، ثم يأتي الحديث الشريف والشــعر المنسوب إلى الشعراء قبل الإسلام والذي نجد فيه إشارة إلى بعض عقائد العرب وإلى بعض الأصنام ، ثم كتب التاريخ ، ومؤلفات خاصة بالأصنام ، وكتب الأدب والمعاجم وغيرها .

وقــد كــانت عــبادة الأسلاف معروفة عند عرب الحجاز قبل الإسلام في الحجاز تمجيداً لهم أو خوفاً منهم ، ويتبين من تشدد الرسول ﷺ في تسوية القبور مــع الأرض ، ومن حديثه : " لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم

---

(1) اعتقاد بعض القبائل بوجود صلة لهم بحيوان أو نبات يكون في نظرها مقدسياً ، فإذا كان حيواناً لا تقدم عــلى قــتله ، أو نــباتاً فلا تقطعه ولا تأكله إلا في أوقات المجاعة والشدة . خان : (محمد عبد المعين) الأساطير والخرافات عند العرب . دار الحداثة ، بيروت ١٩٨١ م ط٣ ص ٢٥ . وينظر : جارم : (محمد نعمان) أديان العرب في الجاهلية ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٢٣ م ط١ ص ١٣ .

(2) الإيمان بالله وحده لا شريك له . ابن منظور : المصدر المتقدم مادة وحد .

(3) من كان على دين إبراهيم . ابن منظور : المرجع نفسه مادة حنف .

(4) وردت في القــرآن الكــريم آيات متعددة أشارت إلى الحالة الدينية لعرب الحجاز في الفترة السابقة على ظهور الإسلام . سورة العنكبوت : الآية ٦١-٦٣ . سورة لقمان : الآية ٢٥ . سورة الزمر : الآية ٣٨. ســورة الزخرف : الآية ٨٧ . سورة يونس : الآية ١٨-٢٥ . سورة فاطر : الآية ٤٢ . سورة النحل : الآية ٥٣-٥٤ سورة الأنعام : الآية ١٠٠ . سورة النساء : الآية ٦٠ .

مساجد " [1] . إن المشركين كانوا يقدسون قبور أسلافهم ، ويتعبدون لها على طريقة عبادة الأسلاف ، ولهذا حاربها الرسول ﷺ وأمر بتسوية القبور .

وكان يقدسون الأشياء المادية كالحجارة اعتقاداً منهم بوجود قوى سحرية (الروح) تحل فيها ، وهي أكثر الديانات البدائية شيوعاً في الحجاز ، كان الرجل منهم إذا سافر فنَزل منْزلاً أخذ أربعة أحجار فانتقى أحسنها ، واتخذه رباً . وجعل ثلاثة أثافي لقدره . وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منْزلاً آخر فعل مثل ذلك ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندها ويتقربون إليها [2] .

وكان بعضهم يختار الأحجار الغريبة فيتعبد لها ، فإذا رأى حجراً أحسن ترك الحجارة القديمة وأخذ الحجارة الجديدة ، ويؤيد ذلك قول الطبري في الآية الكريمة: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [3]. إن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر ، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ الآخر يعبده ، فكان إلهه ومعبوده ما يتخذه لنفسه [4].

وهذا يدل على ارتباط العرب بالأرض وتقديس ترابها لدرجة جعلوا منها إلههم . وبما أن الحجر جزء من تلك التربة ، ففيه شيء من روح الإله ، ولهذا كان العربي الحجازي يحتمله معه في أسفاره تيمناً به وتفاؤلاً .

وآمنوا أيضاً بالحيوان والنبات إلا أن ذلك بقي أقل انتشاراً مع أن آثاره

---

(1) البخاري : المصدر المتقدم ١٦٨/١ .

(2) ابن الكلبي : (هشام بن محمد بن السائب) . الأصنام . تحقيق أحمد زكي . دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٤ ص ٣٣ .

(3) سورة الفرقان الآية ٤٣ .

(4) الطبري : (أبو جعفر محمد بن جرير) جامع البيان في تأويل آي القرآن . طبعة بولاق والبابي بمصر ١٣٢٣ هـ ج١٩ ص ١٧ .

بقيت في أسماء بعض القبائل ، وكانوا يمتنعون عن أكل الحيوان المعبود أو النبات ، فإذا فعل أحدهم فإنما ذلك يكون للضرورة ، كما فعل بنو حنيفة عندما عبدوا إلهاً من حيس ، ثم أصابتهم مجاعة دفعتهم إلى مخالفة هذا التحريم فأكلوه فقال بعضهم [(١)] :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة

ويمكن الاستنتاج من روايات أهل الأخبار أن بعض العرب كان يؤمن بعقائد الطوطمية حتى الحقبة التاريخية المتصلة بظهور الإسلام ، ويؤيد ذلك قول الأزرقي في أنه كان " لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يُقال لها ذات أنواط ، يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوماً " [(٢)] .

واعتقد بعض عرب الحجاز ولا سيما البدو بالجن والغول والسعلاة . ولعلنا نجد أن للبادية الموحشة أثراً كبيراً في خلق هذه التصورات التي رسمها القصاص ، فهم شعب فطري عاش في صحراء رحيبة جديبة مليئة بالقيعان والأغوار والوهاد والنجاد والتلال ، يقل سكانها والجائلون فيها ، ويسدل الليل ستاره فيغمر الظلام والسكون والوحشة كل شيء ، مما يجعل الأوهام تتسلط وتتجسم المخاوف والأحلام ، فيدعي كثير من عرب الحجاز البدو ، أنهم رأوا الجن وخالطوها وصادقوها وخاصموها وتناكحوا معها. وفي ذلك يقول الجاحظ : " إن جماعة من العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض وتوسطوا بلاد الحوش خافوا عبث الجنان والسعالي والغيلان والشياطين ، فيقول أحدهم فيرفع أحدهم إنا عائذون

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢٦٦/٢ . ابن قتيبة : المعارف ٢٠٥ .

(٢) الأزرقي : المصدر المتقدم ١٣٠/١ .

بسيد هذا الوادي ، فلا يؤذيهم أحد ، وتصير لهم بذلك خفارة "[1] .

وتصور بعضهم أن الجن تتألف من عشائر وقبائل وتربط بينهما رابطة القربة وصلة الرحم ، فإذا اعتدى معتدٍ على جان انتقمت قبيلته كلها من المعتدي لأن بينهم عصبية كعصبية القبيلة عند العرب قبل الإسلام ، وهي تراعي حرمة الجوار ، وتحفظ الذمم والعقود ، وتعقد الأحلاف . ومن قبائلها بنو غزوان [2] . فإن تقاتلت الجن أثار قتالها عواصف الغبار . أي أنهم فسروا حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن [3] .

وزعم بعضهم أن الجن كثيراً ما تعرضت للرجل المسافر وصرعته كما حدث لعلقمة بن صفوان وحرب بن أمية [4] ، ولسذاجة هؤلاء آمنوا أن الكهان يتلقون علمهم من الجن [5] . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [6] ، فكان من عبد الجن بنو مليح من خزاعة ، وهم رهط طلحة الطلحات [7] .

وأطلقوا اسم الغول على كل شيء من الجن يعرض للسُّفار ويتلون في ضروب من الصور والثياب ، ذكراً كان أم أنثى ، وهو في اعتقادهم أنثى على الغالب ، والسعلاة اسم الواحدة من نساء الجن تتغوّل لتفتن السُّفار ، قالوا : وإنما

---

(1) الجاحظ : (أبو عثمان عمرو بن بحر) الحيوان . دار إحياء التراث العربي ٢١٧/٦ .

(2) ابن منظور : المصدر المتقدم مادة قرر .

(3) علي : المرجع المتقدم ٧١١/٦ .

(4) الجاحظ : المصدر المتقدم ٢٠٦/٦-٢٠٧ . المسعودي : المصدر المتقدم ١٤٠/٢-١٤١ .

(5) المسعودي : المصدر نفسه ١٥٢/٢ . علي : المرجع المتقدم ٧٥٨/٦-٧٥٩ .

(6) سورة الأنعام : الآية ١٠٠ .

(7) ابن الكلبي : المصدر المتقدم ص ٣٤ . الحوت : (سليم) في طريق الميثيولوجيا عند العرب ــ دار النهار للنشر بيروت ١٩٨٣ م ط٣ ص ١١٤ .

هذا منها على العبث أو لرغبتها أن تفزع إنساناً فتغير عقله [1] .

وكـــان لهذه التصورات الوهمية عن الجن وغيرها ، أساسها الواقعي المرتبط بمستوى تطــور الوعي عند البدو من عرب الحجاز ، فإن وعي الجماعة البدوية الوثنية لم يكن في مستوى من التطور يرتفع به لتصور المعاني والأفكار تصوراً مجرداً علاقاتها المادية بالواقع المحسوس [2] ، لهذا أثرت هذه الاعتقادات في مختلف نواحي الحياة اليومية عندهم بالإضافة إلى أنهم آمنوا بالسحر واستخدموه على أنه جزء من الديـــن ، لذلك اقتصر على الكهنة الذين وجهوه لمآربهم الخاصة ولابتزاز الأموال وترويع بسطاء الناس وإرغامهم على الخنوع ، وقد ارتبط الطب عند بدو الحجاز فبقي إنسانهم عاجزاً أمام الطبيعة لأنها حالت دون معرفته للعالم إذ ألهت عن دراسة عـــلل الظواهـــر الكونية الطبيعية والاجتماعية ، وعرقلت بذلك تطوره الصاعد ، وهكذا كانت معتقداتهم بسيطة بساطة حياتهم الاجتماعية .

وكمـــا أثر تطور القوى المنتجة في الوضع الاجتماعي لعرب الحجاز ككل ، وأدت صـــلاتهم المـــتزايدة مـــع العالم الخارجي إلى جعلهم أكثر وعياً وتفتحاً ، وبالنســـبة للوثـــنية غدت أكثر الأشكال انتشاراً وأقواها جذوراً في المجتمع العربي الحجازي قبل الإسلام ، لأنها كانت انعكاساً لأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، وشـــروطها المادية والتاريخية ، وهي على أشكال مختلفة بعضها على صورة إنسان كـــود [3] ، والعـــزى [4] ، وسواع [5] ، وبعضها على صورة حيوان أو طائر ،

---

[1] الجاحظ : المصدر المتقدم ١٥٨/٦-١٥٩-١٦٠ .

[2] مروة : المرجع المتقدم ٢٨٩/١ .

[3] ابن الكلبي : المصدر المتقدم ٥٦ .

[4] ابن الكلبي : المصدر نفسه ص ١٨ .

[5] ابن الكلبي : المصدر نفسه ص ٥٧ .

وكـــان الحمام من بين الطيور التي عبد العرب أصنامها قبل الإسلام ، فأقاموا لها أصـــناماً في الكعبة . ذكر أن الرسول ﷺ لما نزل مكة وقضى طوافه " دعا عثمان بـــن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت لـــه ، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها " [1] .

إذن كان الحمام مقدساً في مكة قبل الإسلام ، وما يزال العرب تضرب المثل في الأمن بحمام الحرم ، وكانت بعض الأصنام جماداً لا صور لها كاللات [2] .

كان لهذه الأصنام معابد وسدنة وحجاب تحج قبائل إليها وتطوف بها وتقدم لها القرابين والنذور ، والعطايا لنيل رضاها ودفع أذاها ، فلكل قبيلة آلهتها الخاصة بها . وقد تشترك في بعض الأحيان طائفة من القبائل في عبادة إله معين أو تعظيمه كاشـــتراك قريش وبنو كنانة ، وخزاعة وجميع مضر في تعظيم العزى ، التي كان سدنتها بنو شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم [3] .

واشـــتركت الأوس والخـــزرج وقـــريش وهذيل وخزاعة في عبادة مناة ، واشتركت ثقيف وقريش وجميع العرب في تعظيم اللات [4] .

وحضـــت هذه العبادات المشتركة قريش على جمع أصنام العرب وضمها إلى الكعـــبة فعظمت جميع القبائل هذا الجمع من الأصنام ، وحجت إليه سنوياً ، وفي ذلـــك دليل على توجه العرب نحو التضامن والوحدة ، لأن تعدد الآلهة تعبير عن العلاقات القبلية التعددية الانقسامية .

---

[1] ابن هشام : المصدر المتقدم ٤/٥٤ .

[2] ابن الكلبي : المصدر المتقدم ١٦-١٠٢ . ابن حبيب : المحبر ٣١٥ . الحموي : المصدر المتقدم مادة لات .

[3] ابن الكلبي : المصدر نفسه ١٦-١٠٢ . الآلوسي : المرجع المتقدم ٢/٢٠٥ .

[4] ابن الكلبي : المصدر نفسه ١٦-١٠٢ . ابن حبيب : المحبر ٣١٠ . الحموي : المصدر المتقدم مادة لات . ابن كثير : المصدر المتقدم ٢/١٩٢ .

أما أول من أدخل عبادة الأوثان إلى مكة حسب أغلب الروايات فهو عمرو بن لحي ، عندما مرض وخرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنماً يُقال له هُبل ، فأتى به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته [١] ثم شاعت عبادة الأصنام بين الناس ، لكن بعض الأساطير تشير إلى الوثنية منذ عهد عاد [٢] .

وزعم ابن الكلبي أن خمسة أصنام من أصنام العرب كانت من زمن نوح وهي : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً [٣] . وقد ذُكرت في القرآن الكريم : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ۞ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۞ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴾ [٤] فلما صنع عمرو بن لحي ما صنع دان بعض عرب الحجاز لهذه الأصنام وعبدوها واتخذوها من جملة ما عبدوا واتخذوا .

ومن ثم كان لجرهم صنمان من حجر أساف ونائلة [٥] ، وكان لها أيضاً غزالين من ذهب [٦] ، وهذا دلالة كافية على أن عرب الحجاز كانوا يدينون

---

[١] ابن هشام : المصدر المتقدم ٧٩/١ . اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢٩٥/١ . المسعودي : المصدر المتقدم ٢٩/٢ .

[٢] المسعودي : المصدر نفسه ١٢٤/٢ . زيدان : العرب قبل الإسلام ٨٥ .

[٣] ابن الكلبي : المصدر المتقدم ص ١٣ .

[٤] سورة نوح : الآية ٢١-٢٢-٢٣-٢٤ .

[٥] ابن الكلبي : المصدر المتقدم ص ٢٩ .

[٦] ابن هشام : المصدر المتقدم ١٥٤/١ .

بالوثنية منذ عهد طويل قبل ظهور عمرو بن لحي سيد خزاعة على مسرح الأحداث في تاريخ مكة والحجاز .

ولربما نسبت عبادة الأوثان إلى عمرو بن لحي لأنه ركزها في الكعبة ، وجعل لها أشكالاً متقنة ليستثمرها فيما بعد الملأ لتعزيز نفوذه .

وكان لهذه الآلهة دور مهم في جميع أمور الحياة آنذاك ، فقد أشركتها القبائل معها في الحرب [1] ، وفي الاستفتاء بمشكلات خاصة وشخصية كالزواج والولادة والختان والسفر ، والعمل والخصومات وما شابه ذلك ، وكأننا بهم مسيرون بأوامر الآلهة وقراراتها . فنفوا عن أنفسهم كل مسؤولية ووضعوها على عاتق الآلهة بالإضافة إلى ظهور فئات لها تقاليد وأساليب في العبادة تختلف عن الشائع والمألوف عند غيرهم كالحمس والحلة والطلس .

فالحمس والأحمس المتشدد على نفسه في الدين [2] . والحماسة والشجاعة [3] ، والحمس قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش بخاصة من العرب ، وبنو ربيعة بن عامر ، وهم ربيعة وكلاب وعامر ولدهم مجد بن تيم بنت مرة ، وكانوا حمساً ، وفي رواية أخرى الحمس قريش وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ومدلج وعدوان والحارث بن عبد مناة ، وعضل أتباع قريش وسائر العرب الحلة [4] .

---

(1) حملت قريش في معركة أحد اللات والعزى لحمايتها وبعث الحماس في نفوس محاربيها . الطبري : المصدر المتقدم ٢/١٩٣ .

(2) الأزرقي : المصدر المتقدم ١/١٨١ . ابن دريد : المصدر المتقدم ١/٢٥٠ .

(3) ابن منظور : المصدر المتقدم مادة حمس .

(4) الأزرقي : المصدر المتقدم ١/١٧٩-١٨٠ . ابن حبيب : المحبر ١٧٨ . الفاسي : (أبو الطيب تقي الدين بن أحمد ابن علي) شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام ـ تحقيق عمر عبد السلام تدمري ـ دار الكتاب العربي ١٩٨٥م ط١ ص ٤٢ .

والسؤال هنا من أين أتتهم التسمية ؟ هل لتشددهم في الدين ، أم لأنهم كانوا يخرجون من الحرم إذا حجوا ، وكانوا لا يسلؤون السمن ، ولا ينسجون مظال الشعر وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم ، وشرعوا لمن قدم من الحج أن يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا إلى عرفة ، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة ، أو في ثوب أحمسي ، وإن طافوا في الثياب لم يحل لهم أن يلبسوها ، وكانوا لا يستظلون أيام منى زيادة في تحمل المشاق ، وإمعاناً في تعذيب النفس ، وهم يؤدون طقوساً من طقوس الحج . كما أنهم لا يدخلون البيت من أبوابها وهم في حالة الإحرام ، وكانوا أيام الموسم لا يخرجون إلى عرفات بل كانوا يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل الله ولا نخرج من الحرم [1] .

أم أن التسمية أتتهم من الشجاعة والمنع والمحاربة ؟ ولكننا نستبعد ذلك فقريش كما نعلم قوم تجار والتاجر يهمه الأمن والسلام والهدوء ، لأن توفير هذه الأشياء من شأنها أن تشيع في نفوسهم مشاعر الاطمئنان ، فيزداد عدد الوافدين للحج مما يجلب المنافع المادية لأهل مكة ولكبار تجارها وسدنة معابدها بخاصة . أم أنها أتتهم من الأمرين معاً ؟ .

ولعل التفسير الأقرب للصحة أن التسمية أتتهم من التشدد في الدين ولا سيما أنهم عدوا أنفسهم أرفع مكانة ممن سواهم . على كل الأحوال الحمس ظاهرة دينية تتعلق بالناحية الاقتصادية قصد منها بيع الثوب الأحمسي ، فكل حاج قدم لمكة إما أن يطوف عرياناً ، أو يشتري ثوباً أحمسياً ، فكأنهم خلطوا بين الدين والناحية المعيشية .

---

[1] ابن هشام : المصدر المتقدم ٢١١/١ وما بعد . الأزرقي : المصدر المتقدم ١٧٩/١-١٨٠ .

الفئة **الثانية** الحلة : كانوا إذا دخلوا مكة تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استأجروا من ثياب الحمس تنْزيهاً للكعبة عن أن يطوفوا حولها إلا بثياب قديمة ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم . فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عــراة ، وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه فمن لم يجد ثياباً طاف عرياناً فكانت الحلة تستأجر الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت ، لأنهم كــانوا إذا خــرجوا حجاجــاً لم يستحلوا شراء شيء ، ولا بيع شيء حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم [١] .

وقبائل الحلة هي تميم وضبة ومزينة والرباب وعقل وثور وقيس عيلان كلها عــدا عــدوان وثقيــف وعامــر بــن صعصعة وربيعة بن نزار كلها ، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد [٢] .

أما الخلاف الرئيس بين الحلة والحمس هو في الوقوف بعرفة عند بداية الحج وهــو مــا لم تكــن تفعله الحمس لأن عرفة تقع خارج الحرم ــ حرم مكة ــ والخلاف الثاني هو في لباس الإحرام .

ووجــدت فئة **ثالثة** هم الطلس بين الحلة والحمس يصنعون في إحرامهم ما يصــنع الحــلة ويصنعون قي ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس . وكانوا لا يــتعرون حول الكعبة ، ولا يستعيرون ثياباً ويدخلون البيوت من أبوابها ، وكانوا مــن الأكــثرية العــربية الساحقة التي لا تئد بناتها ويقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون [٣] .

---

[١] ابــن هشــام : المصــدر نفسه ٢١١/١ وما بعد . ابن حبيب : المحبر ١٨١ . الفاسي : المصدر المتقدم ٤٢/٢-٤٣ .

[٢] ابن حبيب : المصدر نفسه ١٧٩ . اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢٩٨/١ .

[٣] ابن حبيب : المصدر نفسه ١٨١ .

وعلى الرغم من انتشار عبادة الأوثان وشيوعها ، ووجود الفئات آنفة الذكر ، كان بعض عرب الحجاز زنادقة [١] حيث انتقلت الزندقة إليهم بوساطة الفرس [٢] ، وقد أشار ابن حبيب إلى وجود الزندقة في قريش [٣] . وفي الزندقة قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [٤] .

وتسربت اليهودية إلى الحجاز بهجرة اليهود والتجارة ، ولكنها انحصرت في الواحات كيثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء [٥] والمراكز الواقعة على طريق المواصلات والتجارة البرية والبحرية ، وكان من عشائر اليهود بنو النضير ، وبنو قريظة وبنو قينقاع ، وبنو بهدل وغيرهم [٦] ، واختلطوا بالعرب وتعايشوا معهم ، وكانوا في حياتهم الاجتماعية والسياسية متشابهين ، حتى إن أسماءهم تحمل الطابع العربي ، وحافظ بعضهم على العروبة ، كالشاعر السموءل بن عادياء [٧] ، ثم أنهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين بقية العرب إلا بشكل محدود ، وقد قال اليعقوبي " تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير " [٨] ، ويرجح ذلك إلى أسباب منها عدم اهتمامهم بالتبشير بدينهم .

---

(١) الزندقة نوعان ثنوية وهي القول بالنور والظلمة ودهرية لقول من يؤمن بها بالدهر . سالم : المرجع المتقدم ص ٤٨٠ .

(٢) سالم : المرجع المتقدم ٤٨٠ .

(٣) ابن حبيب : المحبر ص ١٦١ . قارن : اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢٩٨/١ .

(٤) سورة الجاثية : الآية ٢٤ .

(٥) حسن : تاريخ الإسلام السياسي ٨٧/١ . سالم : المرجع المتقدم ٤٨٥ . دلو : المرجع المتقدم ٢١٩/٢ .

(٦) السمهودي : المصدر المتقدم ١٦٣/١ . رفاعي : المرجع المتقدم ص ٥٦ . حسن : تاريخ الإسلام السياسي ٨٧/١ .

(٧) علي : المرجع المتقدم ٧٧١/٩ .

(٨) اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢٩٨/١ .

كـــانت هذه الديانة جامدة خادمة لا يهم أتباعها نشر الدين بقدر ما يهمهم المحافظـــة عـــلى حياقم ، وأملاكهم وتجارقم التي تعود على ملاكهم وأحبارهم وتجارهم ومرابيهم بنفع كبير ومال وفير .

ودخـــلت النصرانية إلى الحجاز بمساعدة التجار والرقيق ، ولا سيما الرقيق الأبيـــض فقد وجد في يثرب نفر من النصارى وكان في مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة كثيرة العدد من الأحابيش كما سلف توضيحه ، بينهم عدد كبير من النصارى ، استورد للخدمة وللقيام بالأعمال والخدمات اللازمة لأثرياء مكة ، وقد أثـــر هؤلاء ببعضهم فتنصر قوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى وورقة بن نوفل بن أسد [١] .

ولم يقتصـــر أمـــر النصرانية على مكة ، فقد كان في الطائف نفر من الموالي عـــلى ديـــن النصرانية [٢] ، منهم عداس مولى عتبة بن ربيعة [٣] علماً أن وجود النصـــارى في شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها اليمن وفي الحبشة سابق لأي وجـــود مســـيحي آخر ، فقد كانت النصرانية مزدهرة في مكة واليمن منذ القرن الـــثالث الميلادي ، وقام الصراع على أشده بين اليهودية والنصرانية في اليمن منذ القرن الثالث الميلادي [٤] .

وقـــد ســـاعد وجود اليهودية والنصرانية في الحجاز على تغيير الوعي الديني باتجاه النظر التجريدي نحو مشكلة الوجود ، متجاوزاً النظرة الوثنية الحسية وأعيد إحياء ظاهرة الحنفاء .

---

[١] اليعقوبي : المصدر المتقدم ٢٩٨/١ .

[٢] ابن الأثير : أسد الغابة ٢٨٩/٣ .

[٣] المسعودي : المصدر المتقدم ٨٨/١ .

[٤] داوود : المرجع المتقدم ٥٥٦-٥٥٧ .

ومن الرجال الذين كانوا أحنافاً قس بن ساعدة الإيادي وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهما [1] .

فقد تشككوا في عبادة الأصنام وساحوا في الأرض بحثاً عن الدين الصحيح ، دين إبراهيم وزهدوا في المجتمعات الوثنية ، واعتزلوا الناس في كهوف للتأمل والعبادة والصلاة ، واعتقدوا بوحدانية الله ، مما كان لهذا عظيم الأثر في تقويض الوثنية ، فأخذت تتداعى أمام هذه الأفكار ، وكثر اخفار الآلهة ، لأن المتحنفين آمنوا بالله وبيوم الحساب [2] ، فواكبت الحنيفة بذلك تطور المجتمع المكي وحاجاته وتطورت معه إلى أن دخلت في مرحلة جديدة يمكن عدها المرحلة التي مهدت لظهور الإسلام .

وأعطتنا هذه الألوان والأنماط من التفكير والسلوك الديني فكرة عن الحياة التي ذخرت بها حياة المجتمع العربي في الحجاز قبل الإسلام ، حيث كان الناس على أقسام هي :

١- أناس جعلوا لأنفسهم مكانة أعلى وأرقى من البقية الذين دانوا بالحمس، حيث عدوا أنفسهم فوق مستوى البشر لذلك اتبعوا سلوكاً خاصاً متشدداً متحمساً في التعبد .

٢- باحثون ابتلعهم التفكير ، ففكروا بالبحث والتنقيب وقالوا إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه اليوم .

٣- حكماء عقلاء ما فتئوا يعظون الناس ويتنبئون للبشرية بالخلاص من حيرة الفراغ من الوحي المعصوم ، والخروج إلى دائرة اليقين .

---

(1) ابن قتيبة : المعارف ٢٧-٢٨ .

(2) عوض الله : المرجع المتقدم ص (٩٦-٩٧-٩٨) .

وترقب الناس بهذه الإرهاصات يوم الخلاص ، وانتظرت البيئات الاجتماعية لحظة النور ، ليدركوا أن فجر الحقيقة قد آذن بالشروق .

الوضــع الاجتمــاعــي :

قــام التنظــيم الاجــتماعي في الحجاز قبل الإسلام على نظام القبيلة ، وقد اســتعملت كــلمة قبيــلة بالمعنى العام الاصطلاحي لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع قبل الإسلام غلب على الأقسام الأخرى ، فهناك ما هو أصغر ، وهناك ما هو أكبر وهي بالترتيب :

الجــذم ــ الجمــاهير ــ الشــعوب ــ القــبائل ــ العمائر ــ البطون ــ الأفخاذ ــ العشائر ــ الفصائل ــ الرهط [1] وهو رهط الرجل وأسرته .

وهــناك ترتيــبات أخــرى ففي كتب علم الأنساب ، وفي كتب التاريخ المختــلفة [2] وكــلها ترتيــبات قــد تكون اجتهادية أُخذت من أفواه العلماء والــرواة ومــن الأوضــاع القبــلية الــتي كــانت ســائدة في أيامهم ، ومن اجــتهادهم أنفســهم وكــلها تصل في النهاية إلى الأسرة أي البيت ، الذي هو نــواة القبيــلة ، ومــن نموهــا ظهرت شجرة القبيلة التي يرتبط أبناؤها بعضهم بــبعض بــرابطة النسب ، فهو بمنْزلة الروح التي تهب الحياة والدعامة القوية التي

---

(1) الــنويري : (شــهاب الديــن أحمــد بن عبد الوهاب) . نهاية الأرب في فنون الأدب . وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ٢٧٧/٢ وما بعد . وينظر جمعة : (محمــد محمود) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٩ م ص ٩ .

(2) ابن الكلبي : (أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب) جمهرة النسب دار اليقظة العربية ج١ ص ٤٣ . ابن عــبد ربه : المصدر المتقدم ٢٨٩/٣ . البغدادي السويدي : (محمد أمين) سبائك الذهب في معرفة قبائل العــرب . دار الكــتب العلمية بيروت لبنان ١٩٨٦ م ط١ ص (١٣-١٤) . الألوسي : المرجع المتقدم ١٨٨/٣ .

قام عليها نظام القبيلة ، فيها جميع الأقارب من ناحية الذكور (العَصبة) [١] وهم أبناء القبيلة الصرحاء ، أي الفئة الممتازة التي لها الصدارة في القبيلة ، والمركز المرموق ، وهم بنية القبيلة الذين يجمعهم نسب واحد ودم مشترك لم تلحقه هجنة [٢] .

وقد تمتعت هذه الفئة بحقوق كثيرة يقابلها في كثير من الأحيان كثير من الواجبات ، نظمها القانون العرفي على أساس التضامن التام بين الفرد والجماعة .

فمن حق الفرد على القبيلة حمايته حياً وميتاً ، فإذا قتل لم تترك دمه يذهب هدراً [٣] ، وهي مسؤولة عن أي جريمة يرتكبها وعليها واجب الانتصار له إن كان مظلوماً ، والوقوف إلى جانبه ظالماً " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " [٤] ، وكان يكفي أن يستغيث حتى يرى السيوف مصلتة والرماح مشرعة ، والدماء تتصب لأتفه الأسباب .

إذاً تقوم الرابطة القبلية على أساس من صلة القرابة الدموية التي تربط الفرد بالجد الأعلى للقبيلة التي تحدر منه أفراد القبيلة عموماً ، لكن هناك روابط قبلية أخرى تقوم على أساس التحالف بحيث يعد (المولى والحليف والجار) كابن القبيلة ويعامل معاملة ابن القبيلة نفسها ، ويكون التحالف عادة بين الأنداد ، وتستطيع قبيلة أضعف أن تنضم في حلف إلى قبيلة أقوى لتضمن سلامتها [٥] .

---

(١) وافي : (علي عبد الواحد) . الأسرة والمجتمع . دار إحياء الكتب العربية ط٢ ١٩٤٨ . ص٩ . الجمالي : (حافظ) علم الاجتماع . مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٤ م ص ١٧ .

(٢) الهجين : ابن الأمة . ابن منظور : المصدر المتقدم مادة هجن..

(٣) شريف : المرجع المتقدم ص ٣٢ .

(٤) الميداني : المصدر المتقدم ٢/٣٣٤ .

(٥) عاقل : تاريخ العرب ٢٤٤ .

وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو إلى انفصال بعض الأفراد أو الجماعات ، والخروج عن قيم القبيلة مفضلين مصالحهم الشخصية والخاصة على مصالح القبيلة ، فيتصرفون بتصرفات توقع القبيلة بمشكلات وورطات . وهنا تفضل القبيلة أن تضحي بفرد بدل أن تضحي بالجماعة فتطرد الشخص الجاني من بين صفوفها ، وشخص هذا حاله كان يطلق عليه اسم خليع دليل على سحب الجنسية القبلية عنه " حسب التعبير الحديث للكلمة " ــ إن كان بالإمكان استخدام هذه الكلمة هنا ــ فلم تعد مسؤولة عنه ولا سائلة أيضاً ، ولذلك كان إعلان الخلع أمراً خطيراً بالنسبة للأفراد ، فالخليع يخرج من حمى قبيلته ليجد نفسه في موقف ضيق ، ووضع شاذ ، لأنه أصبح فرداً منفصلاً عن قبيلته ، في الوقت الذي هو بحاجة لحماية قبيلته ، والعيش مع الجماعة [(١)] ، ويجب أن نعلم أنه لا كارثة في حياة البدوي أشد من خسرانه نسبه القبلي ، إذ كيف يحيا من لا قبيلة تحميه ، وتدافع عنه ؟ وماذا يفعل من لا قبيلة له في بلاد يحسب بها الغريب عدواً ؟ فعندما تخلع القبيلة شخصاً لا يرى أمامه إلا أحد طريقين ، إما أن يلجأ إلى قبيلة أخرى يعيش في حماها جاراً لها أو مولى من مواليها ، وقد اشتهر بعض أشراف القبائل بإجارة الضعفاء وحمايتهم ، ومع ذلك يعيش متاعباً وآلاماً ، لأن الجار أقل منزلة من ابن القبيلة الصريح ، يكفيه ضيقا أن ديته نصف دية ابن القبيلة الصريح ، والعادة أن يكون الخلع في الأسواق ، والمحافل ، بالمناداة ، والكتابة بأن القبيلة قد خلعت فلاناً ، ويتخذ ذلك إشهاداً لهم عليه ، فقد خلعت خزاعة قيس ابن الحدادية بسوق عكاظ ، وأشهدت على نفسها بخلعها إياه [(٢)] ، ولعله من المفيد

---

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ١/١٠٠-١٠١ .

(٢) الأصبهاني : المصدر المتقدم ١٤/١٤٥ . خليف : (يوسف) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . مصر دار المعارف ط٢ ص ٩٥ .

ذكر أن العرب كانت تنفي خلعائها إلى أماكن معينة مثل حضوضى [1] .

وإن لم يجد من يَجِرْه فإنه يلجأ إلى الصحراء ليتخذ من الغزو والسلب وقطع الطرق وسيلة للحياة ، وأسباب الرزق معتمداً على قوته الشخصية في فرض نفسه وإثبات وجوده في مجتمع قطع معه كل صلة . وليجمع حوله عصابة ممن هم مثله من الشذاذ ، والفتاك ، ليشهروا السلاح في وجه الأغنياء ، وأصحاب الإبل ، لينتزعوا منهم مقومات حياة كريمة وإنسانية .

يدل ذلك على أن هناك تمايزاً اقتصادياً ـــ اجتماعياً بين فئات المجتمع ، وما نشوء هذه المجموعة من الناس التي يمكن أن نسميها الصعاليك إلا نتيجة مباشرة لهذا التمايز .

على هذا أمدت ظاهرة الخلعاء حركة الصعاليك بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب ، وانضم إليها طائفة دعيت طائفة الأغربة السود ليشتركوا جميعاً في العمل ضد هذا المجتمع الذي فقدوا توافقهم الاجتماعي معه ، بالإضافة إلى طائفة احترفت الصعلكة احترافاً ، وانضمت إلى الصعاليك هي طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية ـــ الاجتماعية المختلفة التي كانت تسود المجتمع قبل الإسلام ، ويمثلهم عروة بن الورد [2] ومن كان يلتفت حوله من فقراء العرب ، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من قبيلتي هُذيل وفهم [3] .

فالصعلكة في اللغة هي الفقر ، والصعلوك الفقير الذي لا مال عنده ولا

---

[1] ياقوت : المصدر المتقدم مادة حضوضى .

[2] ديوان عروة بن الورد . دار صادر بيروت ص ٧ .

[3] خليف : المرجع المتقدم ص ٥٧ . دلو : المرجع المتقدم ١٦٣/١ .

اعـــتماد لـــه على شيء أو أحد يعينه على شق طريقه في الحياة [1] . فالمسألة هنا ليست فقراً فحسب إنما فقر يغلق أبواب الحياة في وجه صاحبه ، ويسد مسالكها أمامـــه ، وقـــد جردته الحياة من وسائل العيش فيها ، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها .

والصعاليك طوائف وفئات اجتماعية من بيئات تتفاوت في مستوى تحضرها وتطـــور قواهـــا المنتجة ، ولكنها تتشابه من حيث الخلل والفساد الذي ظهر في نظامهـــا الاجتماعي ، ونرى أن القبيلة آمنت بوحدتها ، وعدت هذا الشيء أمراً مقدســاً ، وتـــرتب على ذلك طائفة من التقاليد الاجتماعية ، كان دستوراً ينظم سياستها ، ويحدد ما على أفرادها من واجبات وما لهم من حقوق [2] .

وقد ظهر في مكة نوع جديد من التضامن إلى جانب التضامن القبلي ، وهو التضامن المبني على أساس المصلحة الاقتصادية التجارية البرجوازية .

وعـــلى أســـاس هذه المصلحة التجارية البرجوازية قامت الأحلاف المختلفة كالمطيـــبين ولعقـــة الـــدم ، والفضول وغيرها ، كما أنه على أساس هذا الشعور الـــتجاري ، وحدت قريش صفوفها بعد بدر ، وجمعت شتاتها لتقف وقفة موحدة ضد المسلمين الذين يهددون تفوقها التجاري ، وسيؤدي هذا التطور بالضرورة إلى ضعف الروابط المتينة على أساس قرابة الدم ، وإلى نشوء روابط موحدة جديدة [3]

الأخـــلاق والمثـــل القبليـــة :

كـــان للبيـــئة الطـــبيعية والظروف التي أحاطت بالقبائل العربية أثر كبير في حيـــاتهم الاجتماعية ، وفي خلق نوع من الأعراف والمثل تركزت فيما نستطيع أن

---

[1] ابن منظور : المصدر المتقدم مادة صعلك .

[2] خليف : المرجع المتقدم ص ٩١ .

[3] عاقل : تاريخ العرب ص ٩١ .

نسميه المروءة التي تغنى العربي بها في شعره وأدبه ، وهي وإن كان من الصعب تحديد معناها بدقة ، إلا أنه من الممكن القول : " إنها تعتمد على الشجاعة الكرم ، فتتجلى شجاعته في كثرة من نازله وقاتله ، وفي مواقف دفاعه عن قبيلته ، وفي نجدته ، وأما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضعيف ، وإغاثة البائس الفقير ، وفوق هذا أن يعطي أكثر مما يأخذ وأن يغشى الوغى ويعف عن المغنم " [1] .

فالكرم من أهم الفضائل الضرورية لمن يعيش في الصحراء وخصلة من الخصال الحميدة عند العرب ، ودرس من الدروس التي لقنتها الطبيعة للإنسان ، لأن حياهم ترحال وتجوال ، وكل واحد منهم معرض لأن ينفذ زاده ، ولا بد أن يكون لجوؤه إلى أي خيمة لطلب الطعام أمراً مشروعاً ومتعارفاً عليه حتى لا يهلك جوعاً وعطشاً ، لذلك فمن يقري ضيفه اليوم ، سيلقى من يقريه غداً ، أما بذل المال في نظرهم فهو وسيلة إلى الحياة الشريفة ، وكسب المحامد والسيادة [2] .

ومن عجيب أمرهم في الكرم أن بعضهم كان يؤثر المحتاجين على نفسه وأولاده ، فقد ذبح حاتم فرسه من أجل امرأة جاءته تشكو له جوع بنيها [3] .

ولقد هلك عطشاً كعب بن مامه الإيادي بسبب جوده لأنه أعطى الماء لغيره وهو بحاجة لقطرة الماء [4] .

فأي نوع من التكافل الاجتماعي وصل إليه هذا المجتمع ؟ ولماذا الغزو والسلب والنهب ؟ . هذا الكرم الذي لم يكن يقف عند حد ، كان انعكاساً

---

[1] أمين : المرجع المتقدم ص ١٠ .

[2] الحوفي : الحياة العربية ص ٣١٠ .

[3] ابن عبد ربه : المصدر المتقدم ١/٢٤٢-٢٤٣ . الحوفي : الحياة العربية ٣١٣ .

[4] ابن عبد ربه : المصدر نفسه ١/٢٤٦ . الألوسي : المرجع المتقدم ١/٨١ . حسن : حضارة العرب ص ٩١ .

لشـــدة الجوع الذي عانى منه المجتمع في البيئة الصحراوية القاسية ، وهؤلاء الذين وصفوا بالكرم قلال بالنسبة لغالبية المجتمع .

وقد يسدل الليل أستاره ، والغرباء يضربون في الصحراء وهم بحاجة إلى زاد وماء أو مبيت فمن الذين يهديهم إلى محلة أو نجع ؟ .

تهديهـــم النار التي يوقدها الأجواد لهداية الغرباء واجتذابهم وتهديهم النار التي يوقدهـــا العـــرب لإنضاج الطعام أو للاستدفاء ، لذا فقد أكثروا من التحدث عن نار القرى [١] .

وإذا ضـــل الساري ليلاً ، وتحير فلم يدر أين البيوت ، نبحت الكلاب فقصد صـــوتها والشجاعة صفة خلقية أخرى فهي حلية العربي يلبسها وتلبسه سواء أكان غنياً أم فقيراً ، وسواء أكان ذا قبيل أم وحيداً ، ذلك لأن أهل البادية منعزلون عن المجـــتمع بعيدون عن الحامية يعيشون في العراء ، غير محتمين بأسوار أو جدران أو أبـــواب ترد عنهم ، فهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم ، ولا يكلونه إلى سواهم ، يحمـــلون الســـلاح دائمـــاً ، ويتلفتون عن كل جنب ، ويتجافون عن الهجوع ، ويتوجسون للنبات والهيعات وينفردون في البيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم ، حتى صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية [٢] .

فإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه ، كيف لا وقـــد ربي في بيئة تمتدح بالبطولة والإقدام وحسن البلاء في حماية الذمار والأخذ بالـــثأر . فقد سمع قعقعة السلاح وهو صغير وشهد المعارك ، وصيحات الشجعان وهـــو يافع ، وروت لـــه أمه أخبار البطولة والأبطال الذين حموا القبيلة ، وردوا المغيريـــن عليها فتاقت نفسه للمشاركة بها ، وعندما شب رأى بأم عينه السيوف

---

[١] البغدادي : المصدر المتقدم ٤٦٤ . الألوسي : المرجع المتقدم ٦٩/١ .

[٢] ابن خلدون : المقدمة ١٢٥ . حسن : حضارة العرب ص ٩٣ . سالم : المرجع المتقدم ص ٤٤٤ .

تستقارع والأسلحة تشتبك والأبطال في ميدان الوغى تتنازع ، ثم كبر فشارك في المواقع ، وأفنى العمر في المعارك ، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقاً عاماً عند العرب ، وأسموها الموت في ظلال السيوف وخفق البنود ، لأن الموت على الفراش حتف الأنف أوضع منْزلة ولا تليق بالرجل [١] .

وقد اصطحبوا نساءهم معهم في المعارك ليبعثن الحمية والحماسة والبسالة فيهم [٢] إذاً بالقوة والرهبة استطاعوا حماية الحمى ، والذب عن الحريم ، وإثبات الوجود ، وحماية الجار ، وتكوين الأحلاف ، وتمتين الروابط القبلية مما كان لهذا الأثر في التمهيد لتضامن عربي شامل عززه الإسلام فيما بعد .

ومن بين الصفات الخلقية لعرب الحجاز في هذه الحقبة الوفاء والنجدة ، فكان الرجل ينطق الكلمة عهداً يجب عليه الوفاء به ، فإذا أعطى رجل رجلاً عهداً فلا يغدر به ولا بد له من المحافظة على العهد ، وقد يضحي بنفسه وبماله وبولده، ولا يخدش سمعته قيوسم بالغدر ، ففي قصة السموءل بن عادياء الذي فضل أن يقتل ابنه على أن يسلم ما بعهدته لغير أصحابه لخير مثال على التطرف في رعاية هذه الفضيلة [٣] .

والعفة مما كان يرفع من القدر ويزيد في المكانة والشرف ، ففي بيئة تمرس أهلها على الأخلاق لا بد للرجال والنساء من الغيرة على العرض حتى ولو وجد من انغمس في الملذات وتغزل بالنساء غزلاً بعيداً عن البراءة وذلك لأن العفة شرط

---

[١] التبريزي : (أبو يحيى بن علي الخطيب) . ديوان الحماسة . دار القلم . بيروت لبنان ٢٩/١ . الحوفي : الحياة العربية ٣٣٢ .

[٢] فعلت ذلك مذ حج يوم فيف الريح فقد كانت معهم النساء والذراري حتى لا يفروا ، فإما أن يظفروا وإما أن يقتلوا جميعاً . جاد المولى : المرجع المتقدم ١٣٢ .

[٣] الأصبهاني : المصدر المتقدم ١١٩/٢٢ . الحوفي : الحياة العربية ٣٥٩ . حسن : حضارة ص ٨٦ . سالم : المرجع المتقدم ٣٣١-٤٤٥ .

من شروط السيادة كالشجاعة والكرم [1] .

وغـــيرة العربي على النساء ما زالت مضرب الأمثال ولذا قالوا : " كل شيء مَهةٌ ما خلا النساء وذكرهن " [2] . أي أن الرجل يحتمل كل شيء إلا ذكر حرمه بسوء فيمتعض حينئذ ولا يحتمل ذلك ، وكل شيء جميل ذكره إلا ذكر النساء .

ولعـــل هـــذه الفضائل والمثل والأخلاق حد لا غنى عنه لأي قبيلة تريد أن تحافظ على بقائها في أرض صحراوية لها شروط معاشية معينة .

الأســـرة عند عـــرب الحجـــاز :

الأســـرة أصـــغر وحدة اجتماعية وأساس القبيلة ، نشأت من ارتباط الرجل بالمرأة برابطة الزوجية ، وهذه الرابطة لها صور خاصة وحدود معينة رسمتها النظم الاجتماعية وقيدتها بعدة قيود فرضها العقل الجمعي فاختلفت في جملتها وتفاصيلها باختلاف العصور والمجتمعات .

كـــان الرجل عماد الأسرة وربها وصاحب نسبها وقد ارتبط بالمرأة بأشكال عديـــدة فالـــزواج مؤســـســـة اجتماعية تطور قبيل الإسلام تطوراً ملحوظاً وكان له أشكال :

١- زواج البعولة أو الزواج الأحادي :

وهـــو أكـــثر أنواع الزواج انتشاراً وكان يتم بأن يخطب الرجل من الرجل ابنـــته فيصـــدقها بصـــداق يحدد مقداره . ومن دون ذلك يعدّ الزواج سفاحاً أو بغيـــاً [3] فهـــو فريضة لازمة عند عقد الزواج وهو ما يدفعه الشاب أو أهله إلى أهل الفتاة .

---

[1] الحوفي : الحياة العربية ص ٣٦٣ .

[2] الميداني : المصدر المتقدم ١٣٢/٢ .

[3] الزنا والفجور : ابن منظور : المصدر المتقدم مادة سفح .

كانت قريش وكثير من قبائل العرب يؤثرون هذا النوع من الزواج .

٢- نكـــاح المتعـــة :

هـــو زواج إلى أجل ، أي إلى وقت معين يتفق عليه الطرفان ، وإذا ما انتهى الوقت انتهت العلاقة بينهما وتمت الفرقة [١] .

ودوافـــع هـــذا الزواج هو غياب الرجل عن بيته فترة من الزمن متنقلاً بين العديد من المدن للتجارة ، أو بسبب حرب استغرقت أشهراً يبتعد الرجل فيها عن زوجـــته ، ولذا يضطر للاقتران بامرأة أخرى لأجل معين على صداق ، وقد كان لأصحاب القوافل الأغنياء حريمهم الخاص في بعض محطات قوافلهم [٢] .

وقـــد نسب أولاد هذا الزواج إلى أمهاتهم أو إلى عشيرتها [٣] وذلك بسبب اتصـــالهم المباشـــر بالأم ، وارتحال الأب عن الأم مدة طويلة إلى أماكن أخرى قد تكون نائية عن منازل المرأة فتنقطع الصلات بين الأب والأم .

٣- نكـــاح الاستبضاع[٤] :

يحكـــى أن بعـــض ضعفاء العرب وفقرائهم مارسوا زواج الاستبضاع رغبة في نجابـــة الولـــد [٥] ، حيـــث يقول الرجل لامرأته إذا ظهرت من طمثها ـــ أي حيضـــها ـــ أرســـلي إلى فلان أحد الأشراف أو الزعماء فاستبضعي منه ويعتزلها زوجهـــا فـــلا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، وينسب الولد للرجل ويرث أمواله في المستقبل .

---

[١] الخوارزمي : (محمد بن أحمد) مفاتيح العلوم : مطبعة الشرق بمصر ـــ القاهرة ١٣٤٢ هـــ ص ١٤ .

[٢] بليايف : المرجع المتقدم ص ١٠٥ .

[٣] عوض الله : المرجع المتقدم ١٦١ . حسن : حضارة ص ١٢٩ .

[٤] هو طلب المجامعة . ابن منظور : المصدر المتقدم مادة بضع .

[٥] ترمانيني : (عبد السلام) الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام ١٤٠٤ هـــ ١٩٨٤ م ص ١٧ .

٤- نكــاح الخــدن :

وهــي علاقات بغير عقد ولا نكاح شرعي ، يكون فيها الرجل خدناً للمرأة أي صديقاً لها [١] . وهي شكل من أشكال الزنا ، فقد ورد أن أهل الحجاز كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا ، ويستحلون ما خفي [٢] .

٥- نكــاح المضامــدة :

شــبيه بــنكاح الخــدن إذ تلجأ إليه نساء القبائل الفقيرة أيام القحط حيث يضــطرها الجوع إلى دفع نسائها في المواسم التي تعقد فيها الأسواق لمضامدة رجل غني تحبس نفسها عليه ، فإذا أغنيت بالمال والطعام عادت إلى زوجها الأول .

٦- نكــاح البــدل :

وهــو أن يــبادل رجلان كل منهما بزوجته زوجة الآخر دون مهر ، وقد يكــون التبادل لفترة محددة من الزمن كمبادلة الزوجة لقاء دين أو مقايضتها تجاه جناية تقع منه ولا يملك دية لها [٣] . ولهذا النوع من النكاح أشكال كالشغار وهو أن يتفق اثنان على أن يتزوج كل منهما قريبة الآخر ممن له عليها حق الولاية مثل الأخت أو الإبنة دون مهر [٤] .

٧- نكــاح المقــت :

وهو أن يتزوج الابن الأكبر زوجة أبيه ــ إذا لم يكن لها أولاد منه ــ فيرثها

---

[١] الطبري : جامع البيان ١٩/٥ .

[٢] الطبري : المصدر نفسه ٢٠/٥ . علي : المرجع المتقدم ١٤١/٥ . صباغ : (ليلى) المرأة في التاريخ العربي. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٧٥ م ص ١٨٥ .

[٣] علي : المرجع المتقدم ٥٣٧/٥ . صباغ : المرجع نفسه ١٧٨-١٧٩ .

[٤] ابــن الأثــير : (مجــد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد) . النهاية في غريب الحديث والأثر . المطبعة الخيرية. القاهرة ١٣٢٢ هــ ، والمطبعة العثمانية بالقاهرة ١٣١١ هــ ج٢ ص ٢٢٦ .

كمـــا يرث المتاع . إلا إذا افتدت نفسها من الورثة ، وسمي هذا النوع من الزواج بـــزواج المقت لأنه كان ممقوتاً والولد الذي يكون ثمرة له مقيت ، وهذا يدل على أنه كان نادر الوقوع .

٨- نكـــاح السبــــي :

وهو الزواج من أسيرات وليس فيه مهر [1] . ولا يشترط فيه رضا الفتاة ولا رضا أهلها .

٩- نكـــاح الإمـــاء :

وهو زواج العربي من أمته التي يعدها من متاعه وملكه فإذا أنجب منها أولاداً لا يـــلحقهم بنسبه ، بل يظلوا عبيداً له وإماء [2] وقد يعتقها أو يعتقهم إذا رغب في ذلك .

ولقـــد عـــرف العرب أنواعاً أخرى من الزواج كنكاح صواحب الرايات ، ونكـــاح تعدد الأزواج بالنسبة للمرأة ، ونكاح تعدد الزوجات بالنسبة للرجل ، ونكاح الذواق .

أما الطلاق فقد كان له أنواع :

١- **الطـــلاق ثلاثـــاً على التفرقة** : كان العرف يقضي بأن الرجل إذا طلق زوجـــته واحدة كان أحق الناس بها . أما إذا استوفى الثلاث فهذا يعني التفرقة التامة .

٢-الخلع : صورة من صور الطلاق قبل الإسلام إذ أعطى بعض النساء حق خلع أنفسهن وذلك لشرفهن وقدرهن وحكمتهن .

---

[1] فروخ : المرجع المتقدم ص ١٥٦ .

[2] الأصبهاني : المصدر المتقدم ٢٣٧/٨ . ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٥٠ .

٣-الظهار : وهو التحريم المؤبد للزوجة ، فلا تحل لزوجها .

٤-الإيــلاء : وهو ترك الرجل لزوجته لسنة أو لسنتين أو أكثر على سبيل الطلاق المؤجل .

الوضـــع الثقـــافـــي :

ثقافة العرب هي نتاج تاريخهم الذي تمتد جذوره ألوف السنسن قبل الميلاد ، وتتألف هذه الثقافة من معارف نظرية وعلمية اكتسبها العرب من تجاربهم الحياتية ومـــن ممارســـاقم لأوجـــه النشاط العملي الاجتماعي . ومن تفاعلهم الجدلي مع الطبيعة والناس.

فما هي الأداة المعبرة عن هذه الثقافة ؟! .

إن الـــلغة هي الأداة المعبرة عن هذه الثقافة لأنها نتاج للتاريخ الاجتماعي ، فهي واسطة التعارف والتفاهم بين فئات المجتمع ، ووسيلة لتبادل الأفكار والمشاعر يردفها ويتمم عملها الكتابة ، لأنها تحفظ أو تنقل اللغة عبر المكان والزمان .

بالنســـبة لعـــرب الحجاز فإن كتابتهم قبل الإسلام ترجع إلى قلمين أحدهما القـــلم المســـند ، أو قلم حمير ، وهو القلم الذي كان يستعمل في كل أنحاء بلاد العرب [١] ، وثانيهما القلم النبطي المشتق من الخط الآرامي المتأخر ، وقد طوروه بعـــض الـــتطوير ، ومنه اشتق الخط العربي الأول الذي كتب به أهل الحجاز قبل الإسلام وبعده .

وقـــد استخدم عرب الحجاز الكتابة النبطية في التعامل التجاري ، ثم نشروا هـــذه الكـــتابة نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع للميلاد في سائر أنحاء بلاد العـــرب ، وقـــد تطـــورت الكتابة النبطية في الحجاز سريعاً بفضل النمو السريع

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٢٠٢/٨ .

للحركـــتين التجارية والأدبية معاً ، فتطور الكتابة خلال هذين المجالين ، أكسبها الطابع الصريح الذي برزت به منذ أوائل القرن الخامس للميلاد [1] .

وصـــل إلينا عن الحقبة التي سبقت ظهور الإسلام ، كتابات تنتسب إلى بلاد الشـــام تؤكد عروبتهم كانت قريبة من عربية القرآن الكريم ، وأنها كانت تكتب بقـــلم غير قلم المسند [2] . لكن هذه الكتابات الوحيدة قليلة وقصيرة وأكثرها في أمور شخصية ، ولكنها ذات صفات مميزة ، تتيح لنا أن نتتبع انتقال الكتابة العربية من خطها النبطي الآرامي العربي القديم إلى خطها العربي المتقدم .

وأقـــدم هـــذه الكتابات نقش أم الجمال ويليه في القدم نقش النمارة [3] . ورافق تطور الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي اقتصادياً واجتماعياً ، تطور ثقافي مما جعل لغة العرب الشماليين وخطهم ينموان نمواً سريعاً على نحو ما يصور لـــنا ذلـــك نقش زبد [4] ، ويأتي بعده نقش حران اللجاة الذي تقترب عربيته من عربية القرآن الكريم ، وخطه النبطي يقترب جداً من الخط الإسلامي القديم ، فهو أكثر دلالة بلغته وكتابته معاً على بداية استقلال اللهجة العربية الفصحى وكتابتها عن اللهجة النبطية وكتابتها [5] .

وهـــناك نص خامس عرف بنص أم الجمال الثانية ، الذي يمكن عد كتابته بحـــق مـــن النصـــوص المدونة بلغة القرآن والشعر الجاهلي [6] ، وهو أيضاً بلغته

---

[1] نامي : (خليل يحيى) أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الآداب م٣ ١٩٣٥ ج١ ص (١٠٤-١٠٦) .

[2] علي : المرجع المتقدم ٨/١٥٣-١٧٦ وما بعد .

[3] ينظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

[4] علي : المرجع المتقدم ١/٥١ .

[5] مروة : المرجع المتقدم١/٢٢١ .

[6] علي : المرجع المتقدم ٨/٢٤٨-٢٤٩ .

وكتابته يخطو خطوة جديدة باتجاه استقلالية اللهجة العربية الفصيحة ، وكتابتها عن اللهجة النبطية وكتابتها .

ومع ذلك لا نستطيع أن نعد أي نص غير نص القرآن الكريم لساناً عربياً فصيحاً لأن اللغة العربية هي لغة العرب ، وبهم سُميت وعرفت وأخذت تسميتها من اسمهم [١]

- **وتضم اللغة العربية :**

١- الشعر :

مَعْلَم رئيس من معالم ثقافة عرب الحجاز قبل الإسلام ، ومرآة صادقة تعكس بأمانة خصائص حياتهم القبلية ، والبيئة التي نشأ فيها ، ومصدر تاريخي موثوق لمعرفة أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

وللشعر أثر خطير في نفوس العرب ، فهو يهز عواطفهم هزاً ، ويفعل فيهم فعل السحر ، فهو سلاح ماض عندهم ، والشاعر لسان القبيلة والشعر ديوان العرب [٢] .

كانت بعض قبائل العرب " تقيم الشاعر مقام الحكيم والعالم ، فإذا كان في القبيلة الشاعر الماهر ذو المعاني الصائبة والكلام المنتقى أحضروه إلى أسواقهم التي كانوا يقيمونها كل سنة ، وعند حجهم البيت ، فتسمع القبائل والعشائر شعره ، ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم وشرفاً من شرفهم ، ولم يكن لهم شيء يرجعون إليه في أحكامهم ، وأفعالهم إلا الشعر ، فيه كانوا يختصمون وبه كانوا يتمثلون ،

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٥٤١/٨ .

[٢] الأصبهاني : المصدر المتقدم ١١/١ . ابن رشيق : (أبو علي الحسن القيرواني) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، مطبعة أمين هندية بمصر ١٩٢٥ م ط١ ج١ ص ١١ . أمين : المرجع المتقدم ٥٧ .

ويتفاضلون ويتقاسمون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويعابون " [1] .

لقد أفاد الشعر قبل الإسلام المؤرخ والباحث في تأريخ الفترة ، فائدة لا تقدر بثمن ، فهو مادة تاريخية حية لها ارتباطها الواقعي الموضوعي بالواقع الاجتماعي العربي في مرحلتيه المتداخلتين . المرحلة قريبة العهد من الإسلام ، ومرحلة صدر الإسلام ، فهو يعكس البيئة الاقتصادية ـ الاجتماعية التي نشأ فيها بلغة مباشرة وتفصيلية [2] .

وكانت سوق عكاظ موضع تحكيم في شعر الشعراء [3] . فهو ندوة أدبية عربية موسمية عامة ، يجتمع فيها الشعراء والخطباء ، ويتبارون في الشعر والخطابة . وقد كان النابغة الذبياني حاكم السوق ، وكان الشاعر الذي تنال قصيدته الرضا والتقدير لدى الوفود نجم الموسم ، فيعلو شأنه ، ويغير اسمه ، ويذيع صيته في دنيا العرب .

وقد أسهم هذا التجمع الموسمي بين الأدباء العرب قبيل الإسلام في إذكاء روح المنافسة بين الشعراء ودفعهم إلى تجويد شعرهم ، وفي خلق تقاليد وقواعد للنقد الأدبي وتطويره ، لأن مناشدة الشعر كانت تقترن بأعمال نقدية ، حيث جرت العادة أن يكون بين الوفود ، وهي تصغي إلى الشعراء ، من يشهدون له بقدرة الحكم في قيم الفن الشعري [4] .

٢- الخطابة :

من أنشطة الفكر والثقافة ، ومن ألوان النثر الأدبي ، وهي نوع من الكلام

---

[1] اليعقوبي : المصدر المتقدم ٣٠٤/١ .

[2] علي : المرجع المتقدم ٧٢/٩ وما بعد .

[3] مروة : المرجع المتقدم ٢٨٣/١ .

[4] الجاحظ : (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٠ م ط٢ ج١ ص ٢٦٨ .

يتوجه به الخطيب إلى جَمْع من المستمعين بهدف إقناعهم بفكرة ما واستمالتهم إليها .

وقد عرف العرب الخطابة قبل الإسلام ، وكان للخطيب عند القوم مقام خطير وشأن كبير للسانه وفصاحته وبيانه وقدرته في الدفاع عن قيم القبيلة ، ومواقفها ، وعلاقاتها السائدة . فهو مثل الشاعر لسان حال القبيلة ووجهها ، أي أن الشعر والخطابة وظفا لخدمة علاقات القبيلة الواحدة المغلقة . لكن الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج [1] ، إلا أنه بتطور حركة الواقع الاقتصادي والاجتماعي في الجزيرة قبل الإسلام باتجاه الوحدة في إطار من التمايز الاجتماعي أحدث تغيراً في المعالم الثقافية ، وبرزت مظاهره وآثاره في الشعر والخطابة ، فقاد نهج فريق من الخطباء ، ويمثلهم قس بن ساعدة الإيادي نهجاً يختلف عن نهج الخطابة قبل الإسلام التقليدي ، أي توظيفها لخدمة علاقة القبيلة الواحدة المغلقة ، إذ برز في تلك الخطب الجديدة منحى التعامل مع القضايا الاجتماعية والسلوكية والكونية ، أي نزعة التعامل مع المسائل الأوسع ، والأشمل من هذه العلاقات التي بدأت تفقد مسوغات سيطرتها على المجتمع قبل الإسلام ، فعلت منْزلة الخطيب بمواكبته اتجاه تطور البنى الاقتصادية الاجتماعية نحو قيام علاقات اجتماعية شبه طبقية تنفي الأساس القبلي الصرف لتناقضات المجتمع ، وصراعاته ، ومؤسساته ، فصار الخطيب عندهم فوق الشاعر . قال أبو عمرو بن العلاء : " كان الشاعر في الجاهلية يُقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيِّد عليهم مآثرهم ويفخّم شأنهم ، ويهوِّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيِّب من فرسانهم . ويخوِّف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر

---

[1] الجاحظ : المصدر نفسه ٣٩٩/٣ . ابن رشيق : المصدر المتقدم ٥٠/١ .

والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر " [1] .

ولعل من الأسباب الرئيسة التي كانت تحثهم على الاهتمام بهذا اللون حاجتهم إليها في مواطن ومواقف ومناسبات مثل الحرب والسلم ، والصلح والمنافرات ، والمفاخرات ، والدعوة إلى الإصلاح ، والمواعظ والإرشاد [2] ، وغير ذلك حيث كان الخطيب يُوفد سفيراً إلى القبائل والملوك ، ومن له رياسة ، وسيادة للتهنئة أو التعزية ، أو لحل خلاف وإنهاء خصومة [3] .

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من التقاليد في خطاباتهم ، فكانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام ، والمجامع الكبار [4] ، وقد لاثوا العمائم على رؤوسهم علامة المكانة ، والمنْزلة عند العرب قبل الإسلام ، وفي أثناء خطاباتهم كانوا يمسكون بالعصي ، والمخاصر ، والقضبان ، والقنا ، والقسي ، راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض .

وفي حمل العصا والمخصرة قال الجاحظ : " إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة ، والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصور عليهم ، ومنسوب إليهم حتى أنهم ليذهبون في حوائجهم ، والمخاصر بأيديهم إلفاً لها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها " [5] .

وكانوا يفضلون أن يكون الخطيب جهور الصوت ، شديد التأثير في نفوس

---

(1) الجاحظ : المصدر نفسه ٢٦٣/١ .

(2) النص : (إحسان) ، الخطابة في عصرها الذهبي . دار المعارف . القاهرة ١٩٦٣ م ص (٩-١٠-١١) .

(3) ديوان أوس بن حجر ــ دار صادر بيروت ص ١٠٣ .

(4) الجاحظ : البيان والتبيين ٣٠١/٢ . النص : المرجع المتقدم ص ١٩ .

(5) الجاحظ : المصدر نفسه ١٨٧/٣ .

سامعيه حتى يسحرهم ، ويأخذ بألبابهم ، وكانوا يجعلون مثل هؤلاء الخطباء ألسنتهم الناطقة، إذا تفاخروا أو حضروا المجالس ، أو تفاوضوا في أمر أو أرادوا تأجيج نيران حرب ، أو عقد صلح ، أو البت في أمر جلل . ولذلك صارت الخطابة من إمارات المنْزلة والمكانة ، وغدت في ساداتهم ، وأشرافهم الذين يتكلمون باسمهم في المحافل والمجامع العظام [١] .

غير أن فريقاً من خطباء العرب ، ممن تأثر بالمؤثرات الثقافية التي كانت في الأيام الأخيرة ، وفي فترة قبل الإسلام ، اتخذ منحى الكهان في استخدام الخطابة طريقة للوعظ ، والنصح ، والإرشاد ، والتفكر في أمور الكون والمجتمع ، والأخلاق والسلوك. وكان هؤلاء الخطباء متنورين يحسنون القراءة والكتابة ، لا بالعربية وحدها ، بل بالعبرانية والسريانية أيضاً ، وكانوا يتدارسون التوراة والإنجيل ويتصلون بالرهبان والمبشرين داخل الجزيرة العربية وخارجها ، ودعوا إلى دين التوحيد ونبذ عبادة الأصنام وتعدد الآلهة ، لذلك غلبت في خطب هذه الطائفة من الخطباء الحنفاء العبارات القصار ذات الوقع السريع الإثارة بنبرتها البلاغية المشدودة إلى نهايات مسجعة متوازنة ، وبكثافتها التعبيرية ذات القدرة على التأثير في نفوس السامعين .

٣- الأمثال :

شكل من أشكال تراث العرب الثقافي في عصر ما قبل الإسلام ، وهي أقوال مختصرة ذات تعبير مكثف ، نابعة من البيئة ، ومن صميم الحياة الإنسانية ومن النشاط العملي والاختبارات الطويلة ، فهي حكمة العرب قبل الإسلام وفي الإسلام . وقد ضربها النبي ﷺ وتمثل بها هو ومن بعده من السلف [٢] .

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٧٧٢/٨ .

[٢] السيوطي : المصدر المتقدم ٤٨٦/١ .

وتختلف الأمثال باختلاف البيئة ، ونمط الحياة ومستوى الثقافة بين أهل الوبر وأهـــل المـــدر . ولا يشترط في المثل النثر ، فقد يكون شعراً [1] . لذا فقد أكثر العـــرب من الأمثال ، وضربها في جميع أحداثهم وشؤون حياهم ، وكثيراً ما كانوا يســـوقونها في خطابـــاقم . قال الجاحظ : " كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرســـل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع [2] . فقد أودعوها تجارهم ، فاتسمت بالقبول وشاعت بالتداول ، وممن عرف بكثرة الأمثال والحكم قبل الإسلام لقمان الحكيم " [3] .

وبالـــنظر إلى أن الأمثال كانت تعكس جوانب من حياة العرب وأنشطتهم الاجـــتماعية ـــ الاقتصـــادية والـــثقافية فهي تعد أيضاً مادة غنية ومتنوعة ومهمة للباحث في الأدب وفي تاريخ العرب قبل الإسلام .

٤- المعارف العملية ـــ العلمية :

عرفنا في فصول متقدمة التقدم العمراني الذي أحرزه عرب الجنوب ، إلا أن هـــذا الـــتقدم لم ينفردوا به ، فقد لجأ عرب الشمال إلى استخدام الوسائل الفنية لاســـتثمار المياه السطحية والجوفية بهدف توسيع رقعة الأراضي الزراعية وتوسيع الإنـــتاج الفلاحي وتأمين مياه الشرب في بلاد شحيحة المياه لغلبة الجفاف ، ولا سيما المناطق الداخلية الصحراوية .

فـــللآبار أهمية بالغة وخطيرة في حياة القوم ، في منطقة يغلب عليها الجفاف ويشح فيها الماء ، وقد أقامت الآبار الكبيرة عذبة الماء مدناً وأماتت مدناً ، بسبب

---

[1] العســـكري : (أبـــو هـــلال حسن بن عبد الله) جمهرة الأمثال . بومباي . الهند ١٣٠٧ هـــ . الميداني : المصدر المتقدم . ينظر أن كتب الأمثال تحوي الأمثال شعراً ونثراً .

[2] الجاحظ : البيان والتبيين ٢٧١/١ .

[3] الميداني : المصدر المتقدم ٢٢٢/١ قيل أحكم من لقمان ومن زرقاء اليمامة .

نضوب مياهها وجفافها ، وقد تغنوا بالماء في شعرهم .

وقد كان في ثقيف الطائف خبراء لهم علم بطرائق استخراج الماء من باطن الأرض ، كانوا يتفرسون ويحدسون بوجود الماء من نظرهم إلى لون التربة ومن شمها أو شم رائحة بعض النباتات فيها ، ومن علامات أخرى عرفوها وأدركوها بالتجربة العملية [1] . وقد عرفت فراسة معرفة الماء في جوف الأرض بالإمارات الدالة على وجوده باسم الريافة [2] .

٥- الطب والبيطرة :

كان العرب يعتقدون أن أسباب الأمراض تعود إلى غضب الآلهة على الناس ، وإلى أرواح شريرة تصيب الجسم ، لذا كانوا يستطبون بالسحر والرقي والتعاويذ أو يستعملون العقاقير ، وهي الأدوية من النباتات أو من أصولها أو من الشجر ، أو من منتجات الحيوانات . فالتطبيب بالسحر والرقي والتعاويذ كان له أهمية في حياة عرب الحجاز قبل الإسلام . ثم أخذ العرب تدريجياً يبتعدون عن طب الكهانة والخرافة ويعللون المرض والشفاء مستخدمين حاصل تجاربهم الحسية المباشرة ، وكان لاشتغالهم الطويل في رعي الماشية أثر في تقريبهم من الطب العلمي .

وظهر عدد من الأطباء أمثال الحارث بن كلدة الثقفي وابنه النضر بن الحارث ، وهما من ثقيف ، فقد سافر الحارث بن كلدة الثقفي المعروف بطبيب العرب إلى البلاد وتعلم الطب في بلاد فارس بمدرسة جُنْدَيسابور ، وتمرن هناك ، وعالج بعض أجلائهم فبرأ وأعطاه مالاً وجارية [3] .

واشتهر طبه بين العرب ، وكان الرسول عليه السلام يوصي بالتطبيب عنده.

---

[1] علي : المرجع المتقدم ٤١٩/٨ .

[2] الألوسي : المرجع المتقدم ٣٤٣/٣ .

[3] القفطي : تأريخ الحكماء ١٦١ .

وأمــا الــبيطرة وهي مداواة الحيوان فقد اهتموا بها لما للحيوان من أهمية في حياهم واقتصادهم ، وتخصص نفر منهم بتطبيبه فالعاص بن وائل كان يعالج الخيل والإبل [١] . وقد برع البياطرة بمعرفتهم بالخيل والإبل لأنها أثمن أموال العرب .

إذاً كــان للطــبيب منْزلة كبيرة عند العرب قبل الإسلام ، فقد " كان سيد قومهــم ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم إلى الملوك ، وطبيبهم ، والطب في ذلك الزمان شرف " [٢] .

---

[١] علي : المرجع المتقدم ٤١٧/٨ .

[٢] المرتضــى : (علي بن الحسين الموسوي العلوي) أمالي المرتضى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة البابي بمصر ١٩٥٤ م ص ٢٣٨ .

خاتمـــة الكتـــاب

حاولـــنا فيما سبق تعرف تاريخ الوطن العربي القديم (الجزيرة العربية) ، هذ الـــتاريخ الـــذي قـــد ينفع في زرع الثقة بإمكانات هذه الأمة التي هي " خير أمة أخرجت للناس " وفي بيان ترابط قديمها وحديثها ، وانسجام موقفها من العالم .

وتجلى ذلك فيما يلي :

١- إبـــداع العـــرب الديانات والعقائد ذات الأساس والتصورات المتطابقة والمتشابهة عندهم جميعاً .

٢- إنـــتاج العـــرب الفكري في الشعر والخيال الواسع ذي الصور المادية ، فـــالواقع الفكري والروحي العربي هو انعكاس لواقع اجتماعي واحد ، وقـــد أخذ مضمونه الوحدوي أشكالاً مختلفة في التعبير عن نفسه ، تمثل في انتشـــار إيديولوجيـــة الأصل الإلهي للمَلِك والمُلك في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية في هذه المرحلة ، ودور الفئة الحاكمة ، وفئة رجال الدين المســـتفيدين الأساسيين من هذه الأيديولوجية في خلقها ، والعمل على انتشـــارها بحيث يكون إرضاء الملك والكهان ، ومن ينتمي إليهما هو إرضاء للآلهة ودرء غضبها .

٣- وحـــدة الإنـــتاج والعمل الذي قام العرب به خلال التاريخ ، فجميع الحضارات التي قامت لديهم ، هي حاضرات تجارية بمعنى أنها قامت على

أساس التنظيم التجاري ، وكان الذين بنوها من التجار ، وقد تميز الواقع الاجتماعي المادي ببروز علاقة تعايش وصراع معاً ما بين نمطين من الإنتاج لهما قوة الوجود والهيمنة نفسها في المجتمع آنذاك ، وهما نمط الإنتاج الإقطاعي ، ونمط الإنتاج الرأسمالي التجاري ، كانت السلطة تمثل مصالح من يستطيع التحكم فيها ، فكانت تارة إقطاعية وأخرى برجوازية تجارية وهكذا .

٤- انعدام الحضارات خارج الوطن العربي زمن ازدهار حضاراته الأولى القديمة ، مما يعني أن جميع حضاراته هي داخلية المنشأ ، والتطور والتوحيد .

٥- وحدة العرب بدأت بوحدة أثنوغرافية وأثنولوجية ، أي عرقية وصفية وطبائعية ، وكانت نتيجة طبيعية لرجوعهم إلى أصل جغرافي بيئي بشري واحد ، هو التجمع البشري العربي الأول في بلاد العرب ، والذي جمعته بداية وحدة الجنس ، والتي هي بداية عامة تخص الأمم ، وليس الأمة العربية فقط . ومن ثم فأوجه الالتقاء والتطابق التي نشأت بين أفراد التجمع العربي كانت نتيجة ردود فعلهم تجاه بيئة جغرافية مادية واحدة. وهذا يفسره تراث عريق ضارب بجذوره في أعماق التاريخ سواء في مناطق الاستقرار الحضرية أو في الأقاليم البدوية .

المصادر والمراجع

❑ ابن الأثير : (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم)

١- أسد الغابة في معرفة الصحابة ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت لبنان .

٢- الكامل في التاريخ ــ دار صادر بيروت ١٩٧٩ م .

❑ ابن الأثير : (مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد)

٣- النهاية في غريب الحديث والأثر ــ المطبعة الخيرية ــ القاهرة ١٣٢٢ والمطبعة العثمانية بالقاهرة ١٣١١ .

❑ الأرياني : (المطهر)

٤- نقوش مسندية ــ مركز الدزاسات والبحوث اليمني ــ ١٩٩٠ م ط٢ .

❑ الأزرقي : (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد)

٥- أخــبار مكة ــ تحقيق رشدي الصالح ملحس ــ دار الأندلس ــ مدريد ــ إسبانية.

❑ أسعد : (خالد)

٦- الــروائع الأثــرية المكتشــفة حديثاً ــ وزارة الثقافة ، المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق .

❑ الأصفهاني : (أبو الفرج علي بن الحسين)

٧- الأغاني مؤسسة جمال للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان .

❑ الاصطخري (إبراهيم بن محمد)

٨- المسالك والممالك تحقيق محمد جابر الحسيني ــ القاهرة ١٩٦١ م .

❑ الأصفهاني : (حمزة بن الحسن)

٩- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء . منشورات دار مكتبة الحياة ـــ بيروت .

❑ الأصفهاني : (الحسن بن عبد الله)

١٠- بلاد العرب ـــ تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ـــ الرياض ١٩٦٨ م .

❑ الأصمعي : (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك)

١١- الأصـــمعيات ـــ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ـــ دار المعارف .

١٢- تـــاريخ العـــرب قـــبل الإسلام ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ـــ منشورات المكتبة العلمية ـــ مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٩ م ط١ .

١٣- النـــبات والشـــجر ـــ باعتـــناء خضـــر ـــ المطبعة الكاثوليكية ـــ بيروت ١٩٠٨ م

❑ الأفغاني : (سعيد)

١٤- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ـــ دار الفكر ١٩٧٤ م ط٣ .

❑ الأكوع الحوالي: (محمد بن علي)

١٥- الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلىسنة ٣٣٢ هـــ ـــ بغداد ـــ دار الحرية للطباعة ١٩٧٦ م ط ١ .

❑ الألوسي : (محمود شكري)

١٦- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـــ صححه محمد بهجة الأثري ـــ دار الشرق العربي ـــ بيروت .

❑ أمين : (أحمد)

١٧-فجر الإسلام ـــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ م ط ٩ .

❑ الأنصاري : (عبد الرحمن الطيب)

١٨- دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ــ مصادر تاريخ الجزيرة العربية ــ مطابع جامعة الرياض ١٩٧٩ م .

١٩- ((قــرية)) الفاو ــ صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية ــ جامعة الرياض ١٣٧٧ ــ ١٤٠٢ هــ .

❑ باشميل : (محمد أحمد)

٢٠- العرب في الشام قبل الإسلام ــ دار الفكر ــ ١٩٨٧ م ط٢ .

❑ بافقية : (محمد عبد القادر)

٢١- تاريخ اليمن القديم ــ بيروت ١٩٧٣ م .

❑ بتروفسكي : (م.)

٢٢- اليمن قبل الإسلام ــ تعريب محمد الشعبي ــ بيروت ١٩٨٧ م .

❑ البخاري : (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل)

٢٣- صحيح البخاري ــ مطبعة الهندي .

❑ برصوم : (أغناطيس أفرام الأول)

٢٤- مقالات برصوم .

❑ برو : (توفيق) .

٢٥- تاريخ العرب القديم ــ دار الفكر ١٩٨٤ م ط١ .

❑ البري : (عبد الله خورشيد) .

٢٦- القــبائل العربية في مصر خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة . مصر ــ دار الكتاب ١٩٦٧ م .

❑ ابن بطوطة : (محمد بن عبد الله) .

٢٧- رحلة ابن بطوطة ــ دار صادر بيروت ١٩٦٤ م .

❑ البغدادي السويدي : (محمد أمين) .

٢٨- سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ـــ دار الكتب العلمية ـــ بيروت لبنان ١٩٨٦ م ط١ .

❑ ابن بكار : (اسكندر بن يعقوب) .

٢٩- نهاية الأرب في أخبار العرب ـــ مرسيليا ١٨٥٣ م .

❑ البكري : (أبو عبد الله عبد الله بن عبد العزيز) .

٣٠- معجم ما استعجم ـــ تحقيق مصطفى السقا ـــ عالم الكتب ـــ بيروت .

❑ البلاذري : (أبو الحسن) .

٣١- فتوح البلدان ـــ عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان . دار الكتب العلمية ـــ بيروت ١٩٧٨ م .

❑ البلاذري : (أحمد بن يحيى) .

٣٢- أنساب الأشراف ـــ تحقيق محمد حميد الله ـــ دار المعارف بمصر .

❑ بلاشير : (د.ر) .

٣٣- تاريخ الأدب العربي ـــ ترجمة إبراهيم الكيلاني ـــ دار الفكر بدمشق ١٩٨٤ م ط٢ .

❑ بليايبيف : (ي.أم) .

٣٤- العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى ـــ ترجمة أنيس فريحة ـــ الدار المتحدة للنشر ـــ بيروت ١٩٧٣ .

❑ بني : (عدنان) .

٣٥- تدمر والتدمريون ـــ وزارة الثقافة ـــ دمشق ١٩٧٨ م .

٣٦- الفن التدمري ـــ سلسلة تاريخ الفن في سورية رقم ٣ .

❑ بيضون (إبراهيم) .

٣٧- الحجــاز والدولة الإسلامية ــ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ــ بيروت ، لبنان ١٩٨٣ م ط١ .

❑ بيغوليفسكيا : (ن. ف.)

٣٨- العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع حتى السادس الميلادي ــ ترجمة صلاح الدين عثمان ــ الكويت ، المجلس الوطني للثقافة ١٩٨٥م .

❑ بيك (فريدريك ج) .

٣٩- تــاريخ شــرق الأردن وقبائله ــ ترجمة بهاء الدين طوقان ــ الدار العربية للنشر والتوزيع ١٩٣٤ م .

❑ التبريزي : (أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب) .

٤٠- ديوان الحماسة ــ دار القلم ــ بيروت لبنان .

❑ ترسيسي : (عدنان) .

٤١- اليمن وحضارة العرب ــ منشورات دار الحياة ــ بيروت .

❑ ترمانيني : (عبد السلام) .

٤٢- الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام ــ ١٤٠٤ هــ ــ ١٩٨٤ م .

❑ توني : (يوسف) .

٤٣- معجم المصطلحات الجغرافية ــ دار الفكر العربي ــ ١٩٦٤ م .

❑ ثعلب : (أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني) .

٤٤- الصبح المنير في شعر أبي بصير ــ مطبعة أدولف هلز هوسن فيينا ١٩٢٧ م .

❑ الجاحظ : (أبو عثمان عمرو بن بحر) .

٤٥- البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٠ ط٢.

٤٦- الحيوان ـــ دار إحياء التراث العربي .

❑ جاد المولى : (محمد أحمد) .

٤٧- أيام العرب في الجاهلية ـــ مطبعة السعادة بمصر ط١ .

❑ جارم : (محمد نعمان) .

٤٨- أديان العرب في الجاهلية ـــ مطبعة السعادة بمصر ١٩٢٣ م ط١ .

❑ جانار : (أولندر) .

٤٩- ملوك كندة من بني آكل المرار ـــ ترجمة عبد الجبار المطلبي ـــ المكتبة الوطنية ـــ بغداد ١٩٧٣ م .

❑ الجمالي : (حافظ) .

٥٠- علم الاجتماع . مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٤ م .

❑ الجمحي : (محمد بن سلام) .

٥١- طبقات الشعراء بعناية يوسف هل ـــ ليدن ١٩١٦م .

❑ جمعة : (محمد محمود) .

٥٢- النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية . مطبعة السعادة . القاهرة ١٩٤٩ م .

❑ جميلي : (رشيد) .

٥٣- محاضرات في تاريخ العرب ١٩٧٢ م ط١ .

❑ جيبون : (أدوارد) .

٥٤- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها . تعريب محمد علي أبو درة . القاهرة ، بلا تاريخ .

❑ ابن حبيب : (أبو جعفر محمد) .

٥٥- المحبر ـــ مكتبة المثنى ـــ بغداد ١٣٦١ هـ ـــ ١٩٤٢ م .

٥٦- المنمق ــ صححه وعلق عليه خورشيد محمد خارق ــ عالم الكتب ــ ١٩٨٥ م ط١ .

❑ حتي : (فيليب) .

٥٧- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ــ ترجمة الدكتور جورج حداد والدكتور عبد الكريم رافق ــ دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ م .

٥٨- تاريخ العرب ــ دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ط٧ .

❑ ابن حزم الأندلسي : (محمد بن أحمد بن سعيد) .

٥٩- جمهرة أنساب العرب تحقيق ليفي بروفنسال ــ دار المعارف مصر ١٩٤٨ م

❑ حسن : (حسن إبراهيم) .

٦٠- تاريخ الإسلام السياسي ــ مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥م ط١.

❑ حسن : (حسين الحاج) .

٦١- حضارة العرب في عصر الجاهلية . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٤ م ط١ .

❑ الحميري : (نشوان بن سعيد) .

٦٢- ملوك حمير ، تحقيق علي بن اسماعيل المؤيد ، واسماعيل بن أحمد الجرافي ــ بيروت دار العودة ١٩٨٦ م .

❑ الحموي : (ياقوت) .

٦٣- معجم البلدان . دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٧٩ م .

❑ الحوت : (محمود سليم) .

٦٤- في طريق الميثولوجيا عند العرب ــ دار النهار للنشر بيروت ١٩٨٣ م ط٣.

❑ حوفي : (أحمد محمد) .

٦٥- تيـــارات ثقافية بين العرب والفرس ــ دار النهضة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨م

٦٦- الحياة العربية من الشعر الجاهلي ــ دار القلم بيروت ١٩٦٢م ط٤ .

❑ ابن حوقل : (أبو القاسم النصيبـــي) .

٦٧- صورة الأرض ــ مكتبة الحياة ــ دون تاريخ .

❑ الجيمي : (الحسن بن أحمد) .

٦٨- سيرة الحبشة ومقدمته للدكتور مراد كامل ــ القاهرة ١٩٥٨م .

❑ الخازن : (الشيخ نسيب وهيبة) .

٦٩- من الساميين إلى العرب ــ دار مكتبة الحياة بيروت .

❑ خان : (محمد عبد المعين) .

٧٠- الأساطير والخرافات عند العرب ــ دار الحداثة ــ بيروت ١٩٨١م ط٣ .

❑ ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) .

٧١- المسالك والممالك ــ دار المدينة ــ مطبعة بريل ١٨٨٩م .

❑ الخضري : (محمد بك) .

٧٢- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية . مصر المكتبة التجارية ط٣ .

❑ ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد) .

٧٣- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، منشورات مؤسسة الأعلمي .

٧٤- المقدمة ــ دار العودة بيروت ١٩٨١م .

❑ خليف : (يوسف) .

٧٥- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ــ مصر ــ دار المعارف ط٢ .

❑ الخوارزمي : (محمد بن أحمد) .

٧٦- مفاتيح العلوم ــ مطبعة الشرق بمصر ــ القاهرة ــ ١٣٢٤ هــ .

❑ دراسات تاريخية .

٧٧- العدد ١١ ــ جامعة دمشق ١٩٨٣ م ــ الردافة د. صالح دراركة .

٧٨- العدد ٥٥ ، ٥٦ جامعة دمشق ١٩٩٦ م ــ دور مملكة كندة السياسي في شمال الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين . د. محمود فرعون .

٧٩- دائرة المعارف الإسلامية . ترجمة أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس . مراجعة محمد مهدي علام ١٩٣٣م .

❑ داوود : (أحمد) .

٨٠- تاريخ سورية الحضاري القديم ــ المركز ــ دمشق دار المستقبل ط١ .

❑ ابن دريد : (أبو بكر محمد بن الحسن) .

٨١- الاشتقاق ــ تحقيق عبد السلام محمد هارون ، نشر مؤسسة الخانجي بمصر ــ مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٨ هــ ــ ١٩٥٨ م .

❑ دلو : (برهان) .

٨٢- جزيرة العرب قبل الإسلام ــ الفارابي ١٩٨٩م .

❑ الدوري : (عبد العزيز) .

٨٣- بحث في مسألة نشأة على التاريخ عند العرب ــ بيروت ١٩٦٠م .

❑ الدياربكري : (حسين بن محمد بن الحسن) ،

٨٤- تاريخ الخميس في أنفس نفيس ــ دار صادر بيروت .

❑ ديسو : (رينيه) .

٨٥- العــرب في سورية قبل الإسلام ــ ترجمة عبد الحميد الدواخلي ــ ومحمد مصطفى زيادة . دار الحداثة ١٩٨٥م ط٢.

❑ الدينوري : (أبو حنيفة) .

٨٦- الأخـبار الطـوال ــ مـراجعة حسن الزين ــ دار الفكر الحديث بيروت ١٩٨٨م .

٨٧- ديوان أوس بن حجر ــ دار صادر ــ بيروت .

٨٨- ديوان امرئ القيس ــ دار صادر ــ بيروت .

٨٩- ديوان حسان بن ثابت ــ وليد عرفات ــ دار صادر ــ بيروت ١٩٧٤م .

٩٠- ديوان عروة بن الورد ــ دار صادر ــ بيروت .

❑ ابن رسته : (أبو علي أحمد بن عمر)

٩١- الأعلاق النفسية ــ ليدن ١٨٩١م .

❑ ابن رشيق : (أبو علي الحسن القيرواني) .

٩٢- العمدة في صناعة الشعر ونقده . مطبعة أمين هندية بمصر ١٩٢٥م ط١ .

❑ الرفاعي : (أنور) .

٩٣- الإسلام في حضارته ونظمه ١٩٧٣م .

❑ الزبيدي : (محمد مرتضى الحسيني) .

٩٤- تـارج العروس ــ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ــ مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٥م .

❑ زكار : (سهيل) .

٩٥- الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ــ دار الفكر دمشق ١٩٩٥م .

❑ زيدان : (جرجي) .

٩٦- العرب قبل الإسلام ـــ دار مكتبة الحياة ـــ بيروت لبنان .

٩٧- تاريخ التمدن الإسلامي . مطابع دار الهلال ، بلا تاريخ .

❑ سالم (عبد العزيز) .

٩٨- تاريخ العرب في عصر الجاهلية ـــ دار النهضة العربية ـــ بيروت ١٩٧١م .

❑ سرور : (محمد جمال الدين) .

٩٩- قيام الدولة العربية الإسلامية ـــ دار الفكر العربي ـــ مطبعة الاعتماد بمصر ط١ .

❑ ابن سعد : (أبو عبد الله محمد) .

١٠٠- الطبقات الكبرى ـــ لجنة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة ١٣٥٨ هـ .

❑ سفر ومصطفى : (فؤاد ومحمد علي) .

١٠١- مملكة الحضر ـــ مدينة الشمس ـــ وزارة الإعلام ـــ مديرية الآثار العامة ـــ الجمهورية العراقية .

❑ السمهودي : (نور الدين علي بن أحمد) .

١٠٢- وفاء الوفا ـــ دار إحياء التراث العربي ١٩٨٤م ط٤ .

❑ السهيلي : (أبو القاسم بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي) .

١٠٣- الروض الأنف ـــ مكتبة الكليات الأزهرية .

❑ ابن سيدة : (أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي) .

١٠٤- المخصص ـــ المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣١٦م وطبعة المكتب التجاري بيروت .

❑ سيف الحمادي : (هزاع محمد عبد الله) .

١٠٥- أنظمة التأريخ في النقوش السبئية ، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور فواز الخريشة ـــ جامعة اليرموك ١٩٩٧م .

❑ السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن بن الناصر الشافعي) .
١٠٦- المزهر في علوم اللغة ــ شرحه وضبطه وصححه وعلق حواشيه محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، مطبعة البابي بمصر .
❑ الشابستي : (أبو الحسن علي بن محمد) .
١٠٧- الديارات ــ تحقيق كوركيس عواد ــ دار الرائد العربي ــ بيروت ١٩٨٦م ط٣ .
❑ الشامي : (فاطمة قدورة) .
١٠٨- تطور تاريخ العرب السياسي والحضاري من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي بيروت دار النهضة ١٩٩٧م ط١ .
❑ ابن شبه : (أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري) .
١٠٩- تاريخ المدينة المنورة ــ تحقيق فهيم محمد شتلوت ط٢ .
❑ شريف : (أحمد إبراهيم) .
١١٠- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ــ دار الفكر العربي ــ مطبعة مخيمر .
❑ الشيبة : (عبد الله حسن) .
١١١- دراسات في تاريخ اليمن القديم ــ صنعاء مكتبة الوعي ط١ .
❑ شيخو : (لويس) .
١١٢- النصرانية وآدابها ــ مطبعة الآباء اليسوعيين ــ بيروت ١٩١٢م .
❑ صباغ : (ليلى) .
١١٣- المرأة في التاريخ العربي ــ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٧٥م .

❑ الضبي : (المفضل بن محمد يعلى) .

١١٤- المفضليات ـــ مكتبة المثنى بغداد ـــ مطبعة الآباء اليسوعيين ـــ بيروت ١٩٢٠م

❑ الطبري : (أبو جعفر محمد بن جرير) .

١١٥- تاريخ الرسل والملوك ـــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـــ دار المعارف بمصر ط٤ .

١١٦- جامع البيان في تأويل آي القرآن ـــ طبعة بولاق والبابي بمصر ١٣٢٣ هـ .

❑ عاقل : (نبيه) .

١١٧- تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ـــ جامعة دمشق ١٩٩٢ م .

١١٨- دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ـــ جامعة دمشق ١٩٦٧م .

❑ عباس : (إحسان) .

١١٩- تاريخ دولة الأنباط ـــ عمان ـــ دار الشروق .

❑ عباس وأبو طالب : (إحسان ومحمود) .

١٢٠- شمال الجزيرة العربية في العهد الآشوري . عمان ـــ جامعة اليرموك ١٩٩١م .

❑ عبد الحميد : (سعد زغلول) .

١٢١- تاريخ العرب قبل الإسلام ـــ دار النهضة العربية ـــ بيروت ١٩٧٦م .

❑ ابن عبد ربه : (أحمد بن محمد) .

١٢٢- العقد الفريد ـــ تحقيق مفيد محمد قمحية ـــ دار الكتب العلمية ـــ بيروت لبنان .

❑ عبد الله (يوسف محمد) .
١٢٣- أوراق في تاريخ اليمن وآثاره ، بحوث ومقالات ـــ دار الفكر ـــ بيروت لبنان ط٢ ١٩٩٠م .
❑ عثمان : (عبد العزيز) .
١٢٤- تاريخ الشرق الأدنى القديم ـــ دار الفكر الحديث ـــ لبنان ١٩٦٦ م .
❑ العسكري : (أبو هلال حسن بن عبد الله) .
١٢٥- جمهرة الأمثال ـــ بومباي ـــ الهند ١٣٠٧ هـــ .
❑ العسلي : (خالد) .
١٢٦- العلاقـــات السياسية بين المناذرة والجزيرة العربية ـــ المجلة التاريخية ، العدد الثاني بغداد ١٩٧٢م .
❑ علي : (جواد) .
١٢٧- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـــ دار العلم للملايين ـــ بيروت ـــ مكتبة النهضة بغداد ١٩٧٦م ط٢ .
❑ العلي : (صالح أحمد) .
١٢٨- محاضرات في تاريخ العرب ـــ مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٤م ط٣ .
❑ عوض الله : (أحمد أبو الفضل) .
١٢٩- مكة في عصر ما قبل الإسلام ـــ مطبوعات دار الملك عبد العزيز ١٤٠١ هـــ ١٩٨١م ط٢ .
❑ غنيم : (عبد الله يوسف) .
١٣٠- أقاليم جزيرة العرب ـــ الكويت ١٩٨١م .
❑ غنيمة : (يوسف رزق الله) .
١٣١- الحيرة ، المدينة والمملكة العربية بغداد ١٩٣٦م .

❑ الفاسي : (أبو الطيب تقي الدين بن أحمد بن علي) .
١٣٢- شـفاء الغرام في أخبار البلد الحرام ـ تحقيق عمر عبد السلام تدمري ـ دار الكتاب العربي ١٩٨٥م ط١ .
❑ فخري : (أحمد) .
١٣٣- اليمن ماضيها وحاضرها ـ جامعة الدول العربية ١٩٥٧م .
❑ أبو الفدا : (عماد الدين إسماعيل) .
١٣٤- تقويم البلدان ـ دار الطباعة السلطانية ، باريس ١٨٤٠ م .
١٣٥- المختصر في أخبار البشر ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة .
❑ فروخ : (عمر) .
١٣٦- تاريخ الجاهلية ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٤م ط٢ .
❑ الفيروز أبادي : (مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب) .
١٣٧- المغانم المطابة في معالم طابة ـ تحقيق حمد الجاسر ١٩٦٩م .
❑ القالي : (أبو اسماعيل بن القاسم البغدادي) .
١٣٨- الأمالي ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٤م ط٣ .
❑ ابن قتيبة الدينوري : (أبو محمد عبد الله بن مسلم) .
١٣٩- الأنـواء ـ مطـبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد ـ الدكن (الهند) ١٩٥٦م .
١٤٠- الشـعر والشـعراء ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ نشر دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .
١٤١- عيون الأخبار ـ المؤسسة المصرية العامة ، وزارة الثقافة .
١٤٢- المعـارف ـ طـبعة دار الكـتب المصرية ، طبعة المطبعة الإسلامية بمصر الأزهر ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤م .

❑ القثامي : (حمود بن ضاوي) .

١٤٣- شمال الحجاز ــ بيروت ــ العصر الحديث للنشر والتوزيع ١٩٩١م ط٣ .

❑ القلقشندي : (أبو العباس أحمد بن علي) .

١٤٤- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ــ وزارة الثقافة ، المؤسسة المصرية العامة .

١٤٥- قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان ــ حققه إبراهيم الأبياري ١٩٦٣ ط١ .

❑ الكتاب المقدس .

١٤٦- التوراة .

١٤٧- القرآن الكريم .

❑ ابن كثير : (اسماعيل أبو الفدا) .

١٤٨- البداية والنهاية ــ تحقيق علي شيري ــ دار إحياء التراث العربي ١٩٨٨م.

❑ كحالة : (عمر رضا) .

١٤٩- معجم قبائل العرب ــ المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٤٩م .

❑ كريستنش : (أرثر) .

١٥٠- إيران في عهد الساسانين ــ ترجمة يحي الخشاب ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ دمشق ١٩٥٧م .

❑ ابن الكلبي : (هشام بن محمد بن سائب) .

١٥١- الأصنام ــ تحقيق أحمد زكي ــ دار الكتب المصرية ــ القاهرة ١٩٢٤م .

١٥٢- جمهرة النسب ــ دار اليقظة العربية .

❑ كوبيشانوف : (ب. م) .

١٥٣- الشمال الشرقي الإفريقي ــ ترجمة صلاح هاشم ، عمان ١٩٨٨ م .

❑ المرتضى : (علي بن الحسين الموسوي العلوي) .

١٥٤- أمـالي المرتضـى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ مطبعة البابي بمصر ١٩٥٤ .

❑ مروة : (حسين) .

١٥٥- النّزعات المادية في الفلسفة العربية ــ دار الفارابي ــ بيروت ١٩٧٨م ــ ١٩٧٩م .

❑ المسعودي : (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) .

١٥٦- مروج الذهب ــ دار الأندلس ــ بيروت ١٩٨٤ ط١ .

❑ المقدسي : (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) .

١٥٧- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ــ لندن ١٩٠٦ .

❑ المقدسي : (مطهر بن طاهر) .

١٥٨- البـدء والتاريخ . مكتبة خياط طبعة مطبعة برطرند ــ شالون (فرنسا) ، مكتبة المثنى ، بغداد ، نسخة مصورة عن طبعة شالون ، بلا تاريخ .

❑ ابن منظور : (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) .

١٥٩- لسان العرب ــ دار صادر ــ بيروت .

❑ موسكاتي : (سبتينو) .

١٦٠- الحضارات السامية القديمة ــ ترجمة يعقوب بكر ــ دار الرقي ــ بيروت ١٩٨٦م .

❑ موسل : (أ) .

١٦١- شمـال الحجـاز ــ تعـريب عـبد المحسـن الحسيني ــ مؤسسة الثقافة الجامعية .

❑ مهرات : (محمد بيومي) .

١٦٢- تاريخ العرب القديم ــ الإسكندرية ــ دار المعرفة ١٩٩٣م .

❑ الميداني : (أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم) .

١٦٣- مجمع الأمثال ــ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . دار المعرفة . بيروت ــ لبنان .

❑ نافع : (محمد مبروك) .

١٦٤- عصر ما قبل الإسلام ــ مطبعة السعادة ، مصر ١٩٥٢م ط٢ .

❑ نامي : (خليل يحيى) .

١٦٥- أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ــ مجلة كلية الآداب م٣ ١٩٣٥م .

❑ النص : (إحسان) .

١٦٦- الخطابة في عصرها الذهبي ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٣م .

❑ نولدكه : (ثيودور) .

١٦٧- أمراء غسان ــ ترجمة بندلي جوزي ، وقسطنطين زريق ــ المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٣م .

❑ النويري : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) .

١٦٨- نهاية الأرب في فنون الأدب ــ وزارة الثقافة الإرشاد القومي . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة .

❑ نيلس : (ديتلف) .

١٦٩- تاريخ العرب القديم ــ ترجمة فؤاد حسنين ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م.

❑ هاردنج : (لانكستر) .

١٧٠- آثـــار الأردن ـــ تعريب سليمان موسى ـــ عمان منشورات وزارة الثقافة ط٣ .

❑ هبو : (أحمد رحيم) .

١٧١- تاريخ العرب قبل الإسلام ـــ جامعة حلب ١٩٧٩-١٩٨٠م .

❑ ابن هشام : (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري) .

١٧٢- الســيرة النبوية ـــ تحقيق مصطفى السقا وغيره . دار إحياء التراث العربي بيروت ، لبنان .

❑ الهمذاني : (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) .

١٧٣- صــفة جزيــرة العــرب . تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ـــ دار اليمامة ـــ الرياض .

❑ ولفنسون : (إسرائيل) .

١٧٤- تاريخ اليهود في بلاد العرب ـــ القاهرة ١٩٠٧م .

❑ الواحة .

١٧٥- الجــرهاء ودورهـــا في التجارة العربية القديمة ـــ محمد السيد العبد الغني ، العدد ١٣ الربع الأول ١٤١٩ هـــ ـــ ١٩٩٨م .

❑ وافي : (علي عبد الواحد) .

١٧٦- الأسرة والمجتمع ـــ دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٨م ط٢ .

❑ الواقدي : (محمد بن عمر) .

١٧٧- المغـــازي ـــ تحقيـــق مارسدن جونز ـــ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ـــ لبنان .

❑ وهب بن منبه .

١٧٨- تـيجان في ملوك حمير ـ دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد ـ الدكن ١٣٤٧ هـ ـ ط١ .

❑ وهبة : (حافظ) .

١٧٩- جزيـرة العـرب في القرن العشرين ـ مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧م .

❑ يحيى : (لطفي عبد الوهاب) .

١٨٠- العرب في العصور القديمة ـ دائرة النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٩م ط٢

❑ يعقوب الثالث : (أغناطيوس) .

١٨١- الشـهداء الحميريـون العرب في الوثائق السريانية ، بطركية السريان ـ دمشق ١٩٦٦م .

❑ اليعقوبي : (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) .

١٨٢- تاريخ اليعقوبي ـ دار صادر بيروت .

❑ يوسيفوس .

١٨٣- تاريخ يوسيفوس ـ بيروت ١٨٧٢م .

المصادر الأجنبية

1- Agnescarr vaughan, New York, 1967.

2 - D. D. Juckengil], Ancient, Records of Assyria and ba by Joniac 1968.

3 - De Percecval, “A. P. Caussin”. Essaisur I’histoire des Arabes. Paris, 1947.

4 - G. A. Cooke, a textbook of Northesmitic inseriptions, Oxford 1903.

5 - G. A. Cooke, Palmyra, Enc. Britanica, 1964. Vol. 17.

6- Guidi, (Ign) L’Arabienté Islamique, Paris. 1921.

7 - Herodotos, The History of Herodoutus, Trans, by Rawlson, G. Ed. Komroff, M. New York, Tudor 1943.

8 - Janune. A. Sabaean, Inscriptions From Mahram Bilgis “Maribn “ Baltimore, 1962.

9 - J. B. Pritchard (ed.) Ancient Near Eastern Texts, Relating to the old Testament. 1969.

10- Lammens, l’Arabic Occident aleavant I’Hégire, Beyrouth, 1928.

11- Lammens, Le Berceaude I’Islami. I, Rome 1914.

12- Moscati, histoireet civilisation des peuples semetiques, Paris 1954.

13- Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947.

14- Strabo, the Geography of strabo, trans, H. L. Jones, London, 1994. XVI.

15- Trimingham. (J. S.) Christianity Among the Arabsin pre-Islamic Times, London and New York.

16- فرعون : (محمود) .
السياســة الساسانية في شبه الجزيرة العربية من القرن (٣-٧م) . أطروحة دكتوراة بالروسية بإشراف ميخائيل يتروفسكي ، أيلي كاليسينكوف ــ لينغراد ١٩٩٠م .


الملاحق


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

قانون سوق شمر

في محـــل الســـوق القديم بتمنع عاصمة قتبان هجر كحلان حالياً ، تقوم إلى اليـــوم مسلة صغيرة نقش على ثلاثة من جوانبها تعاليم خاصة بسوق المدينة واسمه سوق شمر ، ويبين هذا النقش إجمالاً الرسوم المفروضة وفئات التجار ، وفيما يلي نقـــل لهذا النقش من لغة المسند باللهجة القتبانية استناداً إلى قراءة كل من " ماريا هوفنر وألفرد بيستون " مع قراءة خاصة منقحة :

هكـــذا قضى وشرع شهر هلال ابن يدع أب ملك وأهل قتبان بتمنع وبرم ووادبي حوكم وولد عم وحاكم تمنع وحاكم ولد عم ـــ إن من يشتغل بالتجارة في تمنع وبزم ، ومهما كانت بضاعته يجب أن يدفع ضريبة السوق في تمنع ، وأن يكـــون مالكاً لدكان في سوق شمر . وإن من يأتي إلى قتبان ببضاعته ... يجب أن يتملك دكاناً حتى يحق له أن يزاول البيع والشراء في " سوق شمر " أياً كانت قبيلته . إن مـــن يفتح دكاناً يكون من حقه أن يشترك في التجارة مع غيره من أصحاب الدكاكين ، ولا يجوز لعاقل السوق أن يتدخل في ذلك . وعندما يعلن عاقل سوق شمر عن حاجته إلى باعة قتبانيين متجولين بين القبائل ، نظراً لانشغاله ببيع بضاعته في دكانه بسوق شمر فإنه يجوز حينئذ لأهل قتبان أن يتاجروا على حسابهم الخاص بـــين القبائل ... يغرم عاقل السوق في حال تبليغه كل تاجر يمارس غش الآخرين خمســـين قطعـــة ذهـــبية ، كمـــا يغرم المبلغ نفسه كل أجنبي يحاول أن يتجر في بلاد قتبان .

لا تســـري ضريبة بيع الحبوب في عمليات البيع والشراء بين أهل قتبان على

أن أداء هـــذه الضـــريبة واجب على غيرهم ، وتدفع هذه الضريبة بالعملة القتبانية بالإضافة إلى الضريبة الأساسية دفعة واحدة . يجب على كل قتباني أو معيني أو أي مقيم آخر في تمنع يؤجر بيته أو حجرة إلى صاحب دكان ، أن يدفع ضريبة السوق إلى ملك قتبان من بضاعة التاجر عينه .

وفي حالـــة كـــون بضاعة التاجر لا تفي بقيمة الضريبة المقررة ، يجب على صاحب البيت أن يستوفي الضريبة من ماله الخاص ، تحظر التجارة أياً كان نوعها من قبل دافعي الضرائب في السوق بقصد التعامل مع غير قتباني أو سُفلي (من ذي ســفل) حرصاً على حقوق أهل قتبان العادلة وطبقاً لما شرعه ملك قتبان . يجب على كل من يتاجر بالجملة في تمنع أن يعهد إلى باعة تجزئة عند تسويق بضاعته في أرض قتـــبان ... تحظـــر التجارة (في السوق) ليلاً حتى الصباح . لملك قتبان حق الإشراف على كل بضاعة تمر في أرضه. فليدعم كل ملك هذا القانون .

جدول أسماء السلع التجارية
في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية

– السلع التي كانت تنتجها بلاد العرب خاصة :

١- البخور واللبان .

٢- المرّ .

٣- الطيوب والعطور .

٤- اللادن : (وهو مادة صمغية مستخرجة من لحاء الشجر ، وكان دائماً وأبداً يستخدم كمادة أساسية تدخل في صناعة العطر) .

٥- القرفة والكاسيا .

٦- البلسم : (نوع من النباتات تنتج صمغ أخضر اللون يستخدم في صناعة العقاقير الطبية وبعض مواد التجميل في العصور القديمة) .

٧- الألوة : اسم واحد لمادتين مختلفتين هما : داوء جيد ، ونوع من الخشب الجيد .

٨- النيلة : لصبغ الملابس بالأزرق .

٩- الورس : لصبغ الملابس بالأصفر .

١٠- الفوة : لصبغ الملابس بالأحمر (خاصة الملابس الحريرية والصوفية)

١١- التمر والبلح .

١٢- الذهب .

١٣- الأحجار الكريمة (العقيق ، الجزع ، السعواني ، البقراني) .

١٤- الؤلؤ .

١٥- الورود اليمانية .

١٦- المقل : (تفرز هذه النبتة مادة تشبه الصمغ ، وتستخدم كنوع من العلاج) .

- السلع التي كانت البلاد العربية تتاجر بها من إنتاج مناطق أخرى :

أولاً : السلع التي كانت تنتجها سقطرى :

١- دم الأخوين .

٢- الألوة والصبار .

٣- أصداف السلاحف .

ثانياً : السلع التي كانت تنتجها شرق أفريقيا :

التوابل والمر والبخور والكاسيا والقرفة والسلاحف والعاج .

ثالثاً : السلع التي كانت متداولة وكانت تحقق أراحاً كثيرة :

١- الفلفل .

٢- القرفة .

٣- الناردين .

٤- المسك .

٥- الأخشاب .

٦- الهيل .

٧- الزنجبيل .

٨- البخور واللبان .

فهذه بعض كلمات قالها الشيخ الكامل
العارف الشيخ ابراهيم بن محمد القريمي عامله الله تعالى
عز وجل بلطفه وكرمه
وفضله له ولجميع
المحبين من امة محمد

في تفسير وتأويل سورة لايلاف قريش ايلافهم رحلة
الشتاء والصيف، اي لايلافهم رحلة الشتاء الى اليمن،
ورحلة الصيف الى الشام، استعانة به على المقام بالبلد
الحرام، وسقاية للحاج وعمارة المسجد الحرام، وارتكابهم مشاق
الاسفار ومخاوف الطرق والاخطار، كفينا مؤنتهم في معيشتهم
في تينك الرحلتين، بان آتينا بارزاقهم رغداً من كل مكان
الى اقدامهم، كما قال الله سبحانه وتعالى، في سورة النحل
وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً
من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع
والخوف بما كانوا يصنعون، وقال في القصص وقالوا ان
نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا اولم نمكن لهم حرماً آمناً
يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون

ويدل على ما قدمنا من المتعلق المذكور على آخر السورة من قوله تعالى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. فحذف اكتفاء به فالتقدير فإذا كفينا هم مؤنتهم في مطالبهم بما قلنا فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف أي فليعبدوا رب هذا البيت الذي لا حيلة لهم أن يتكبدوا مشاق الأسفار ومخاوف الطرق بالليل والنهار فأطعمهم من جوع لا بارتكاب الرحلتين وآمنهم من خوف الذي في ارتكاب الرحلتين وغيره فإذا أكرم لسكان بيته وعماره وهم مشركون بهذا فما ظنك كرامة لسكانه المسلمين وعماره الموحدين ولما كان هذه القرية أم القرى والبلد الحرام أصل جميع البلاد والمسجد الحرام والبيت العتيق وأكرمها وأشرفها وهيأ سبحانه وتعالى معايش من اختار المقام بالأجلها اقتضت الحكمة الإلهية أن يوظف الوظائف لسكان سائر المساجد وخدامها لذلك قل ما يوجد مسجد بلا وظيفة وفيه إشارة عظيمة ونكتة لطيفة لذوي قلوب صافية إذ هي من أشرف بيوت الله الذي أذن الله أن ترفع بالتصفية والتزكية ويذكر فيها اسمه تسبح له فيها بالغدو والآصال

عقول صافية، وارواح طيبة، واسرار مقدسة، لا يعرجون
الى غير المعبود ولا يعرضون عما هو المقصود، ويهمون آناً فآنا
بنفحات الحق الموجود، ولطايف سبحات عين الوجود،
فكفاهم مؤنة الايشة في التحقيق والشهود، حتى هيّ الطعام
في مشاهدهم السابلة والركع السجود، ووجه التسمية ظاهر
من جواب ابن عباس حين سئل معاوية ابن ابي سفيان رضي الله
عنهم حين قال له لم سميت قريش قريشا قال لدابة تكون في البحر
من اعظم بقال لها القريش لا تمر بشيء من الغث
والسمين الا اكلته وهي تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى، قال
وهل تعرف العرب ذلك في اشعارنا قال نعم فانشده شعر
الجمحي ؎ وقريش تسكن البحر الى آخر الابيات كما هو المسطور
في بعض التفاسير في صدد تفسير هذه السورة الكريمة،
وقال في تفسير البغوي اعني معالم التنزيل كانت لهم
رحلتان في كل عام للتجارة احديهما في الشتاء الى اليمن
لانها ادفئ، والاخرى في الصيف الى الشام وكان الحرم
وادياً جدباً لا زرع فيه ولا ضرع وكانت قريش تعيش
بتجارتهم ورحلتهم وكان لا يتعرض لهم احد بسوء، كانوا

يقولون قريش سكان حرم الله وولاة بيته فلولا الرحلتان لم يكن لهم بمكة مقام ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف فشق عليهم الاختلاف الى اليمن والشام فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن فحملوا الطعام الى مكة اهل الساحل من البحر على السفن واهل البر على الابل والحمير فالقى اهل الساحل بجدة واهل البر بالمحصب واخصبت الشام فحملوا الطعام الى مكة فالقوا بالابطح

فامتاروا من قريب وكفاهم الله

مؤنة الرحلتين وامرهم

بعبادة رب البيت

والله اعلم

مخطوط إيلاف قريش

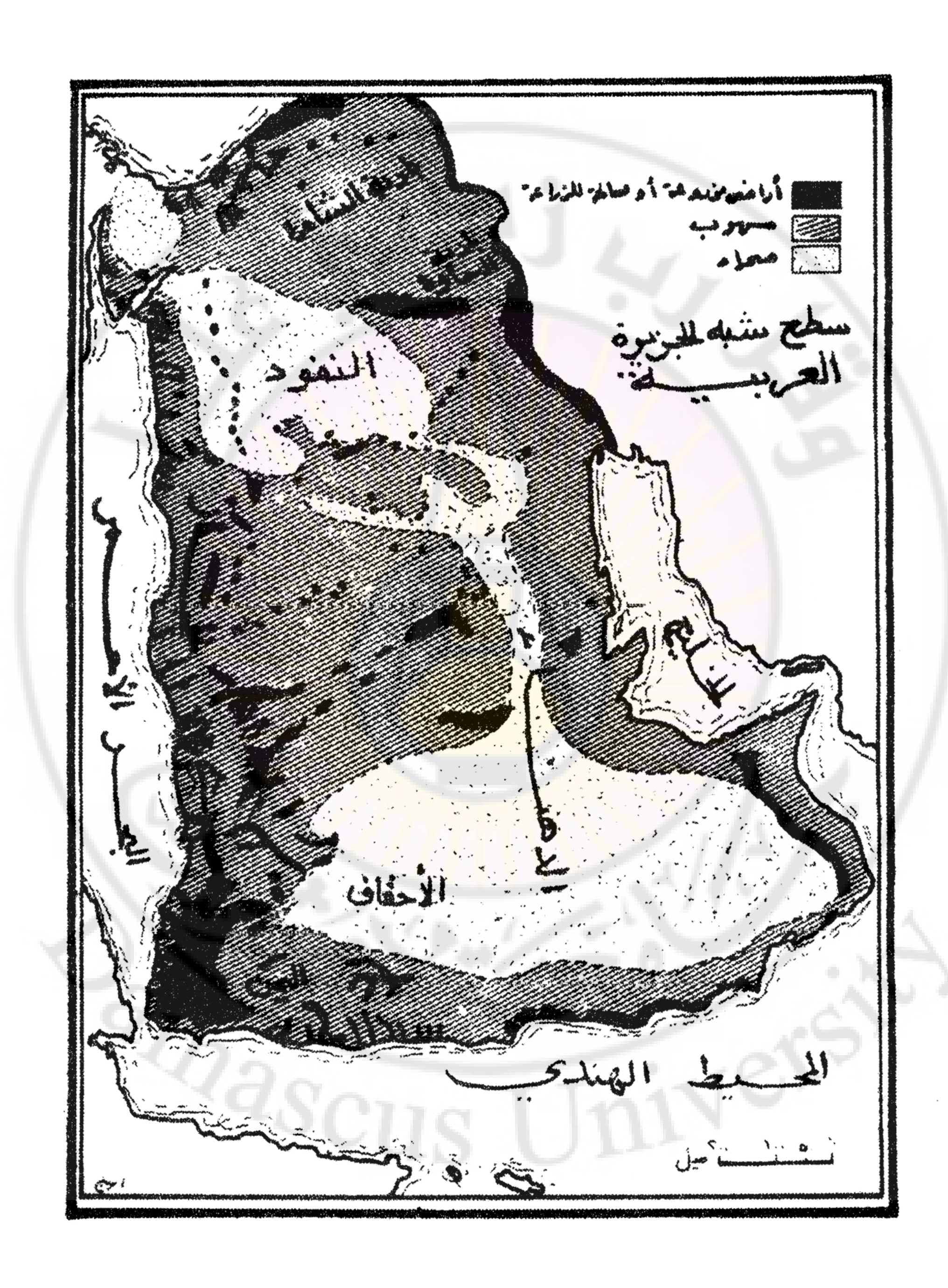
فهـــذه بعـــض كلمات قالها الشيخ الكامل العارف الشيخ إبراهيم بن محمد القـــريمي عاملـــه الله تعـــالى عزوجل بلطفه وكرمه وفضله له ولجميع المحبين من أمة محمد .

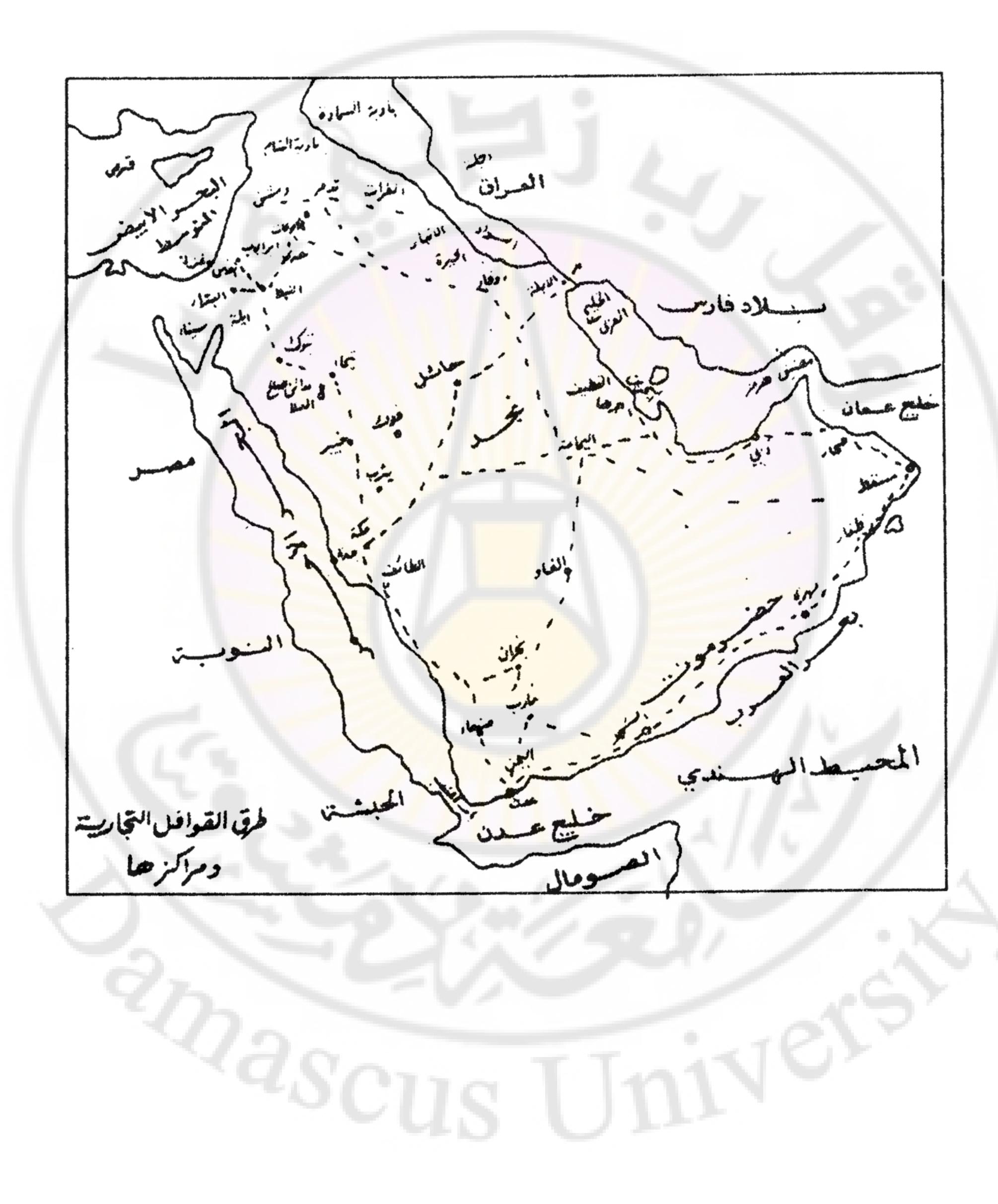
في تفســـير وتأويل سورة لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف أي لإيلافهـــم رحـــلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام استعانه به على المقام بالبـــلد الحـــرام وسقاية للحاج وعمارة المسجد الحرام وارتكابهم مشاق الأسفار ومخاوف الطرق والأخطار . كفينا مؤنتهم في عيشتهم في تينك الرحلتين بأن أتينا بأرزاقهم رغداً من كل مكان إلى أقدامهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى في سورة النحل وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفـــرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وقال في القصـــص وقالوا إن نتبع الهوى معك نتخطف من أرضنا و لم تمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون .

ويـــدل عـــلى ما قدمنا من المتعلق المذكور ، في آخر السورة من قوله تعالى أطعمهـــم من جوع وآمنهم من خوف ، فحذف اكتفاءً به فالتقدير فإذا كفيناهم مؤنـــتهم في معايشـــهم بما قلنا فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف أي فليعبدوا رب هذا البيت الذي لأجله ارتكبوا مشاق الأسفار

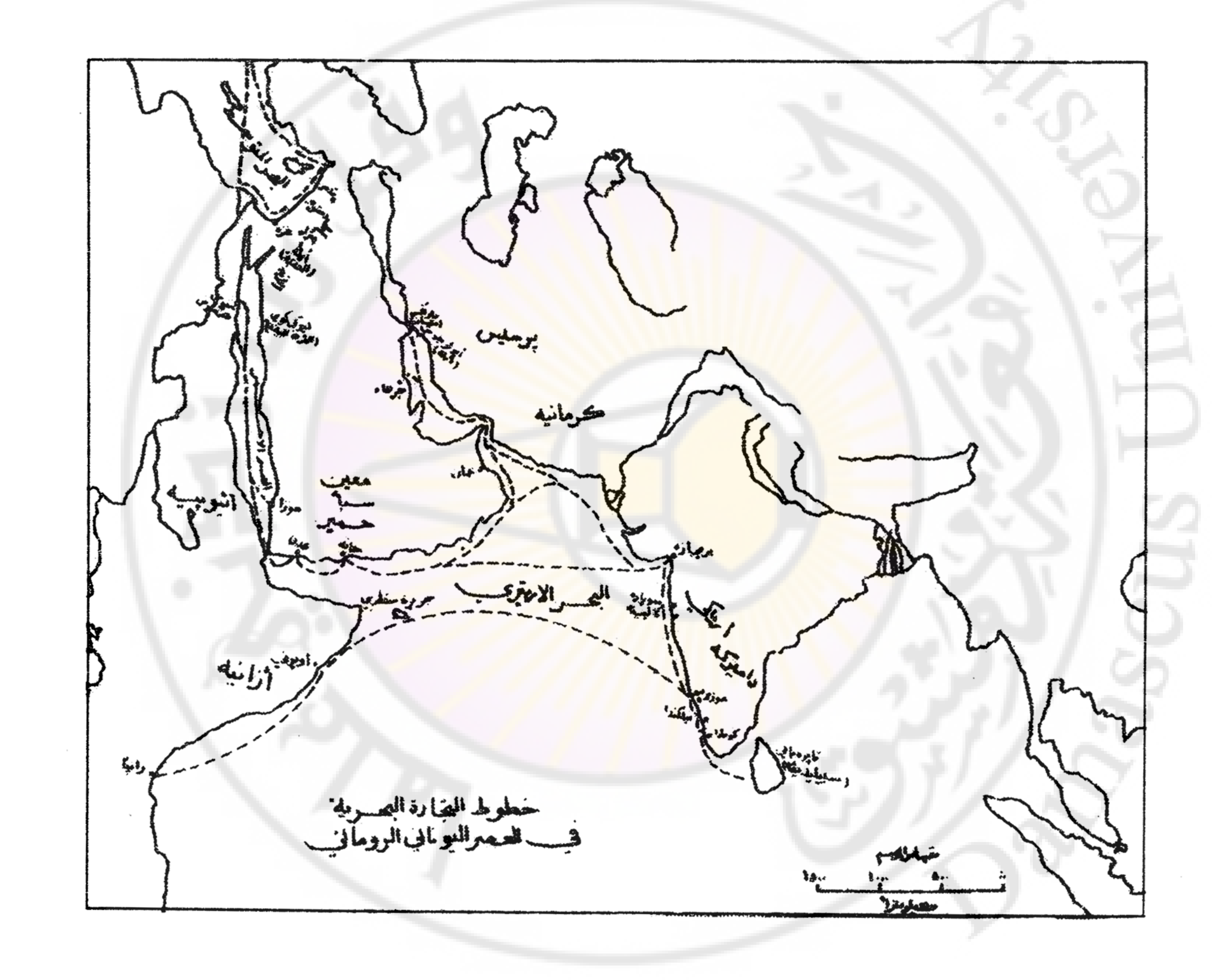
ومخـاوف الطرق بالليل والنهار فأطعمهم من جوع لا بارتكاب الرحلتين وآمنهم مـن خوف الذي بارتكاب الرحلتين وغيره فإذا أكرم السكان بيته وعمّاره وأنهم مشـركون بهذا فما ظنوا ككرامة لسكانه المسلمين وعمّاره الموحدين ، ولما كان بهذه القرية أم القرى والبلد الحرام أصل جميع البلاد والمسجد الحرام والبيت العتيق وأكـرمها وشرفها الله سبحانه وتعالى معايش من اختار المقام بها لأجلها اقتضت الحكمـة الإلهية أن يوظف الوظائف لسكان المساجد وخدامها لذلك قلما يوجد مسجد بلا وظيفة وفيه إشارة عظيمة ونكته لطيفة لذوي قلوب صافية إذ هي من أشـرف بيوت الله الذي أذن أن ترفع بالتصفية والتزكية ويذكر فيها اسمه فسبـح له فيها بالغدو الآصـال عقول صافية وأرواح طيبة وأسرار مقدسة لا يعرجون إلى غير المعبود ولا يعرضون عما هو المقصود ويهمون آناً فآناً لنفحات الحق الموجودة ولطائف سبحات عين الوجود فكافهم مؤنة العيش في التحقيق والشهود حتى تهيء الطعام في مشاهدهم السابلة والركع السجود ووجه التسمية ظاهر من جواب ابن عباس حين سئل معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهم حين قال له لما سميت قـريش قريشاً قال لدابة تكون في البحر من أعظم دوابه يُقال لـه القريش لا تمر بشيء من الغث والسمين وهي تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى قال وهل تعرف العـرب ذلك في أشعارها قال نعم فأنشده شعر الجمحي وقريش تسكن البحر إلى آخـر الأبيـات كمـا هو المسطورفي بعض التفاسير في صدد تفسير هذه السورة الكـريمة وقال في تفسير البغوي أعني معالم التنْزيل كانت لهم رحلتان في كل عام للـتجارة إحداهـا في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفئ والأخرى في الصيف إلى الشام وكـان الحـرم وادياً جدباً لا زرع فيه ولا ضرع وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلـتهم وكان لا تعرض لهم أحد بسوء وكانوا يقولون قريش سكان حرم الله

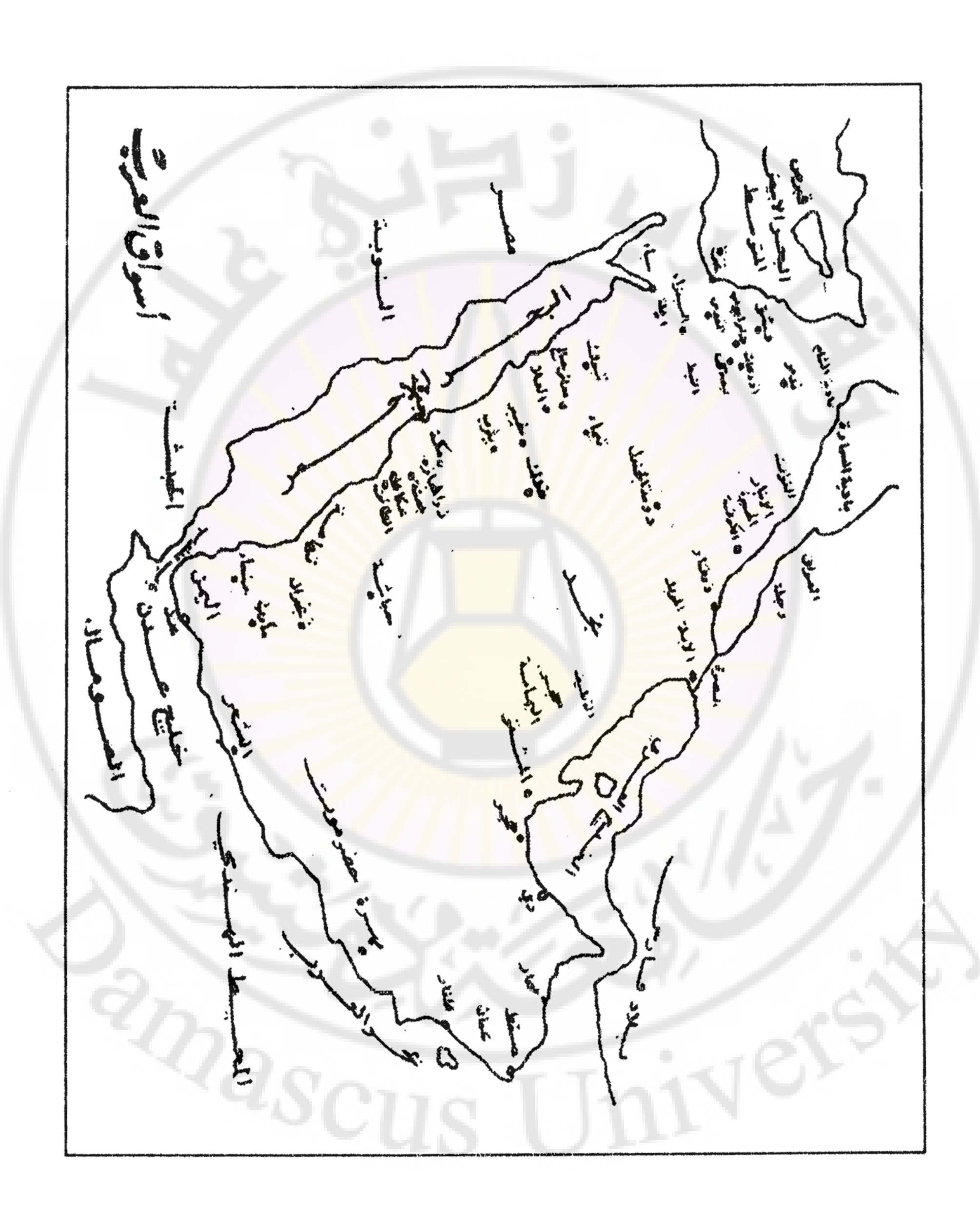
وولاة بيته فلولا الرحلتان لم يكن لهم بمكة مقام ولولا الأمن لجوار البيت لم يقدموا علـــى التصرف فشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام فأحصيت على إلى تبالة وجرت من بلاد اليمن فحملوا الطعام إلى مكة بل الساحل من البحر على السفن إبل البر على الإبل والحمير فألقى إبل الساحل بجدة وإبل البر بالمحصب واحتصبت الشـــام فحمـــلوا الطعام إلى مكة فألقوا بالأبطح فاختاروا من قريب وكفاهم الله مؤونة الرحلتين وأمرهم بعبادة رب البيت والله أعلم .


سطح شبه الجزيرة العربية
سهوب
صحراء
النفود
الأحقاف
المحيط الهندي



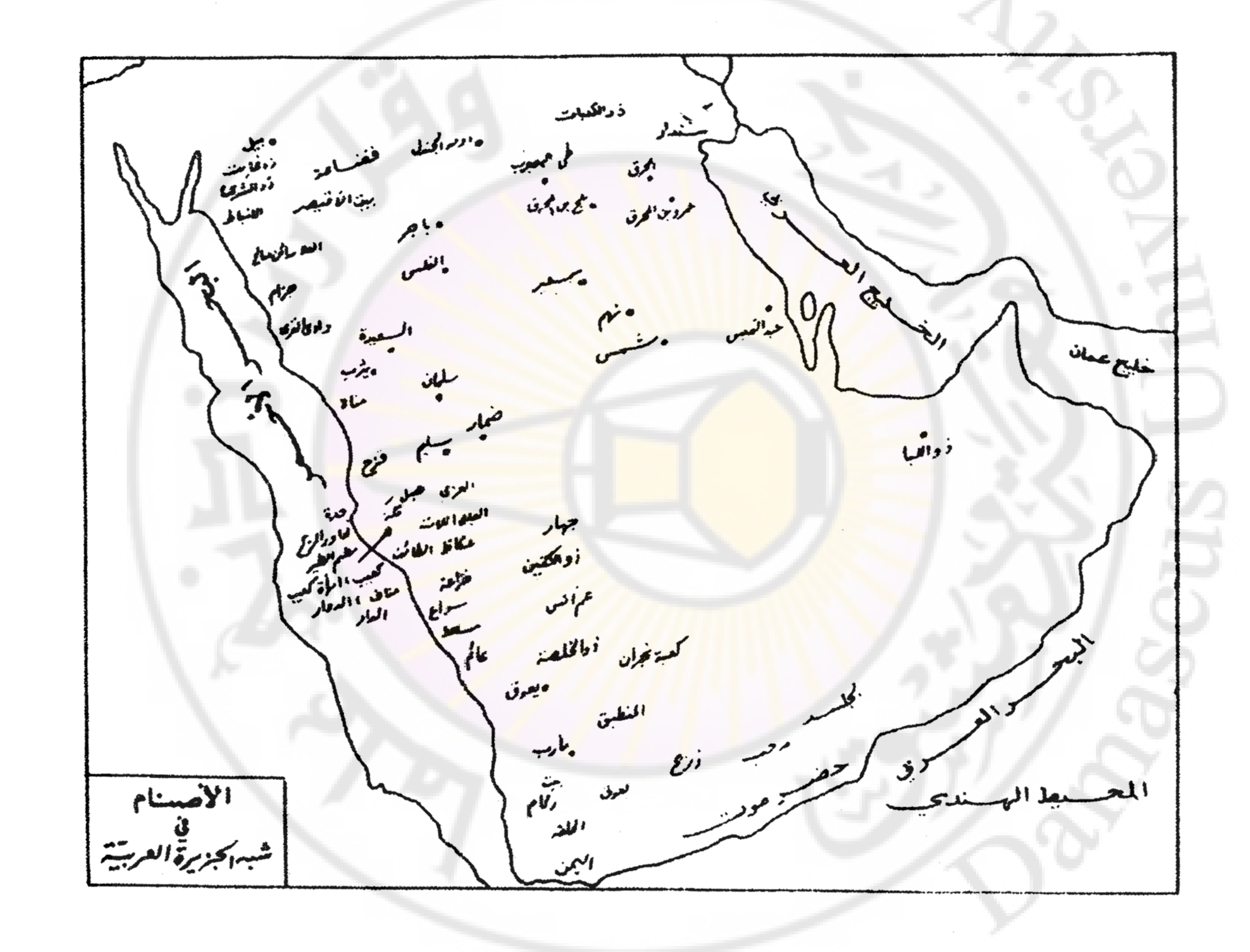
طرق القوافل التجارية ومراكزها

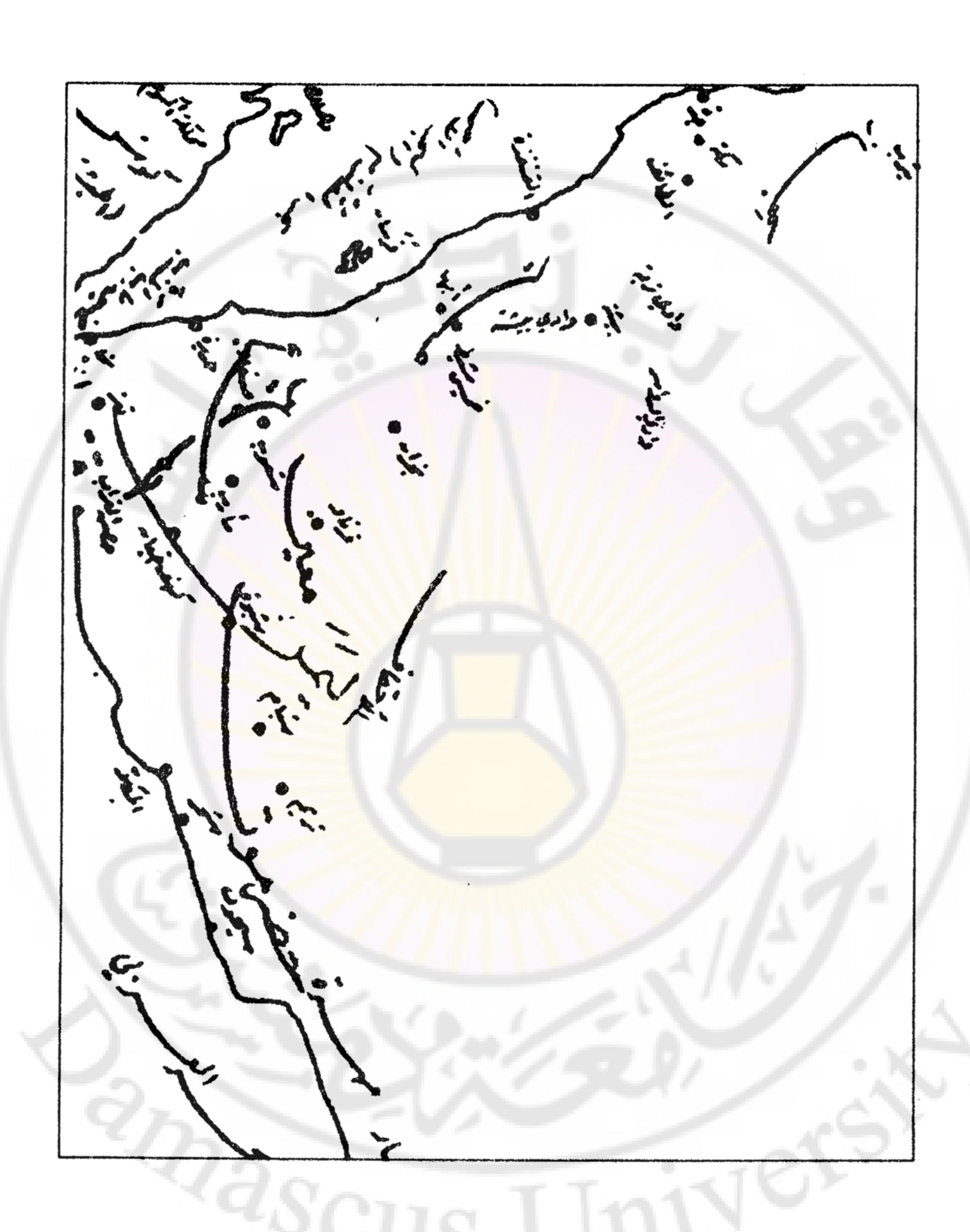

برسيس
كرمانيه
معين
سبأ
حمير
اثيوبيه
البحر الاريتري
ازانيه
خطوط التجارة البحرية
في العصر اليوناني الروماني


أسواق العرب

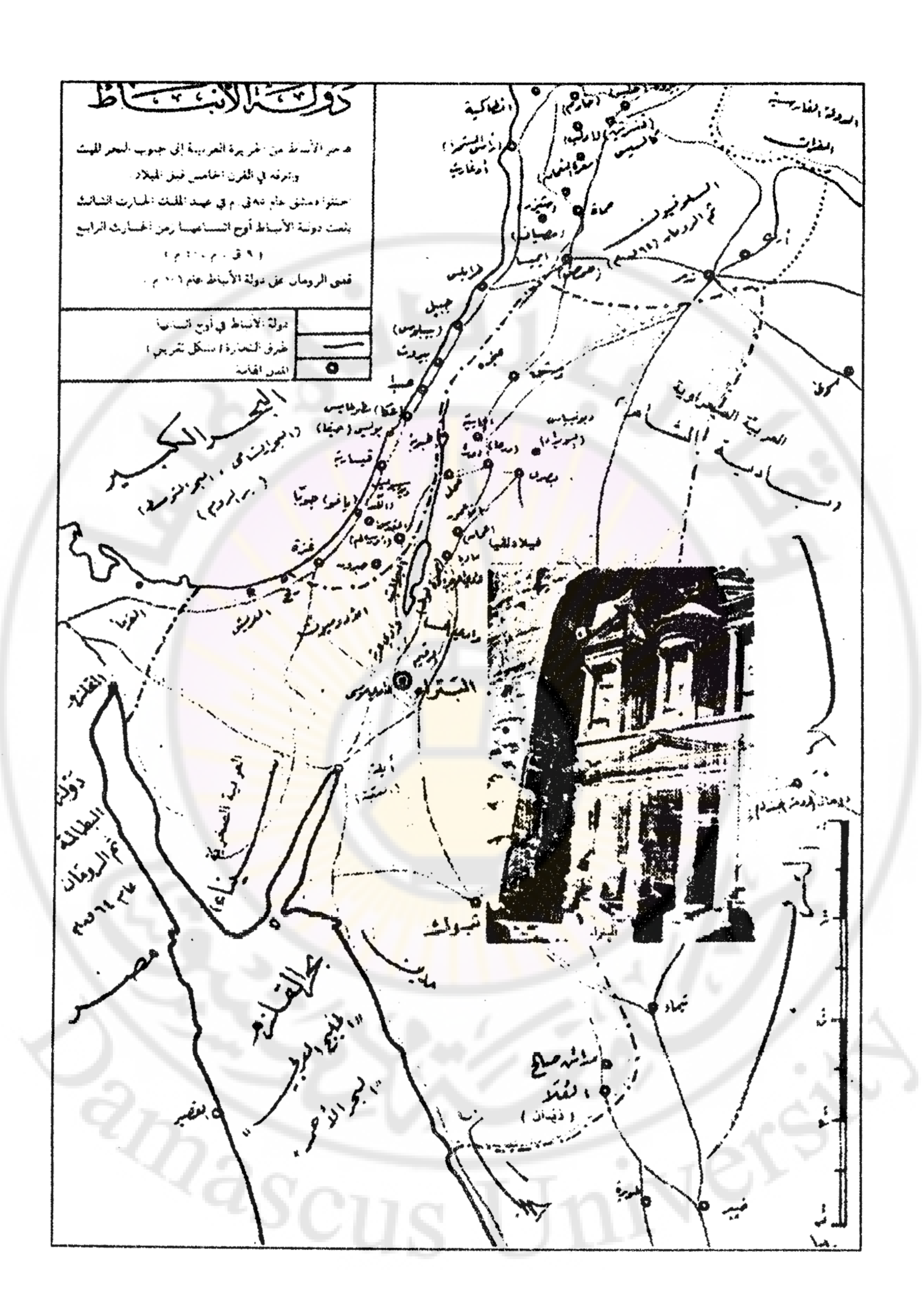


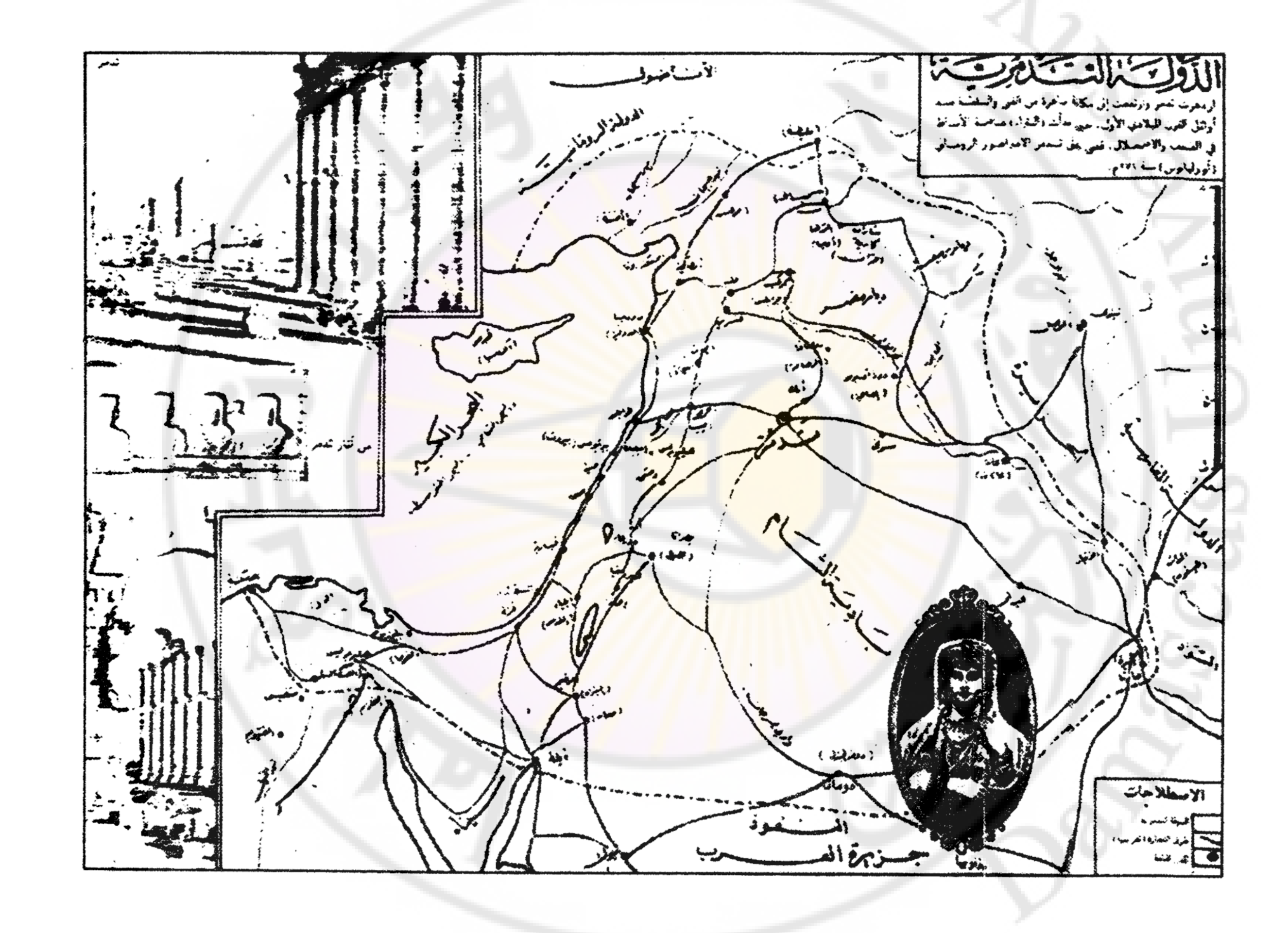
أديان الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام


الأصنام
في
شبه الجزيرة العربية
البحر الأحمر
الخليج العربي
خليج عمان
البحر العربي
المحيط الهندي
حضرموت
كعبة نجران
ذو الخلصة
ذو الكفين
جهار
يثرب
مناة
سلمان
السعيرة
اليمن
مأرب
ذو القبا



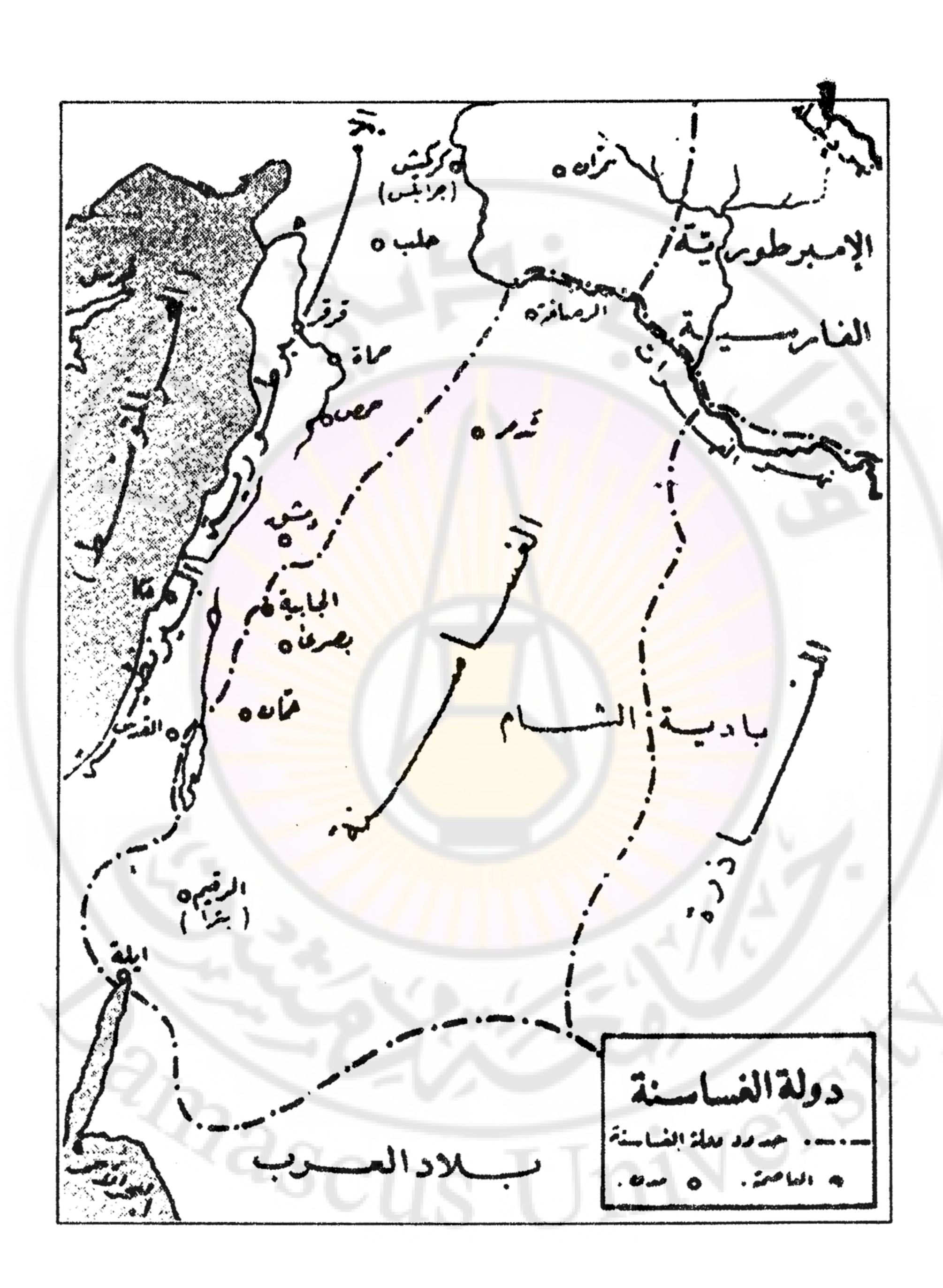
الدولة العربية القديمة في اليمن


دولة الأنباط
فنى الرومان على دولة الأنباط عام ١٠٦ م
دولة الأنباط في أوج اتساعها
المدن الهامة
البحر الكبير
البتراء
تبوك
تيماء
مدائن صالح
العلا
(ديدان)
مصر
غزة
قيسارية
جبيل
بيروت
حماة
تدمر
الفرات
الدولة الفارسية
بادية الشام
البحر الأحمر
بحر القلزم
سيناء
دولة البطالمة
ثم الرومان


الدولة التدمرية
الأناضول
جزيرة العرب
الاصطلاحات

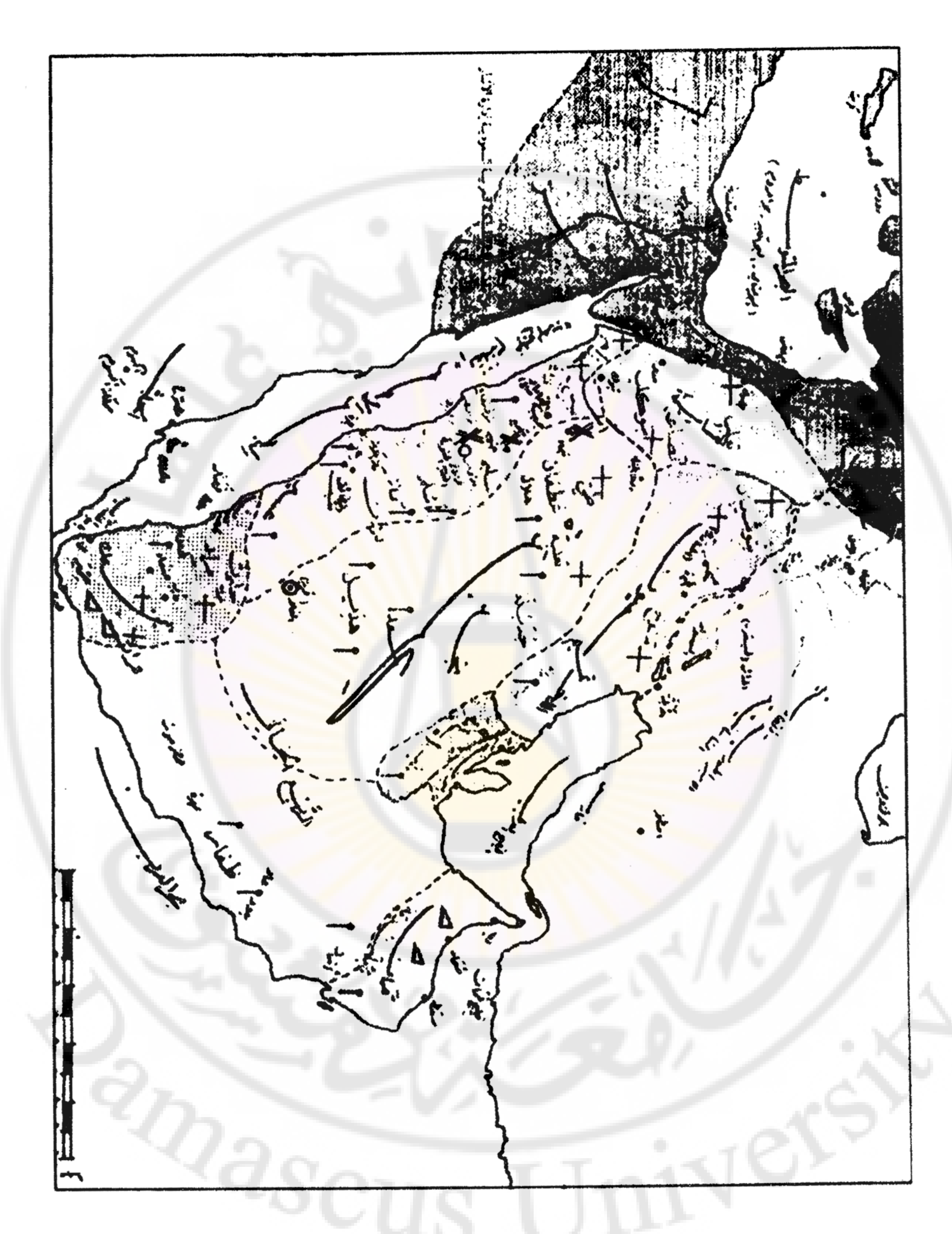


نصيبين
مملكة حدياب
الزاب الأعلى
نينوى
الموصل
(أربيل)
الزاب الأسفل
الحضر
آشور
(قلعة شرقاط)
(كركوك)
عانات
(سامراء)
هيت
(بغداد)
بابل
الحدود الحالية اليوم
حدود الحضر (عربايا) تقريباً
مناطق نفوذ لدولة الحضر
مدن أنشئت بعد الحضر
الحضر مدينة الشمس عربايا
HATARA
من ٥٠ ق.م إلى ١ نيسان ٢٤١ م


دولة الغساسنة
حدود دولة الغساسنة
العاصمة
مدن
بلاد العرب
بادية الشام
الإمبراطورية
الفارسية
حلب
حماة
حمص
تدمر
الرصافة
دمشق
الجابية
بصرى
عمان
القدس
الرقيم
(بترا)
ايلة



المناذرة
الإمبراطورية الفارسية
المدائن
الأنبار
الحيرة
القادسية
ذو قار
يثرب
مكة



ممـــالك كنـــدة



مناطق الرعي في الحجاز



مناطق الزراعة في الحجاز



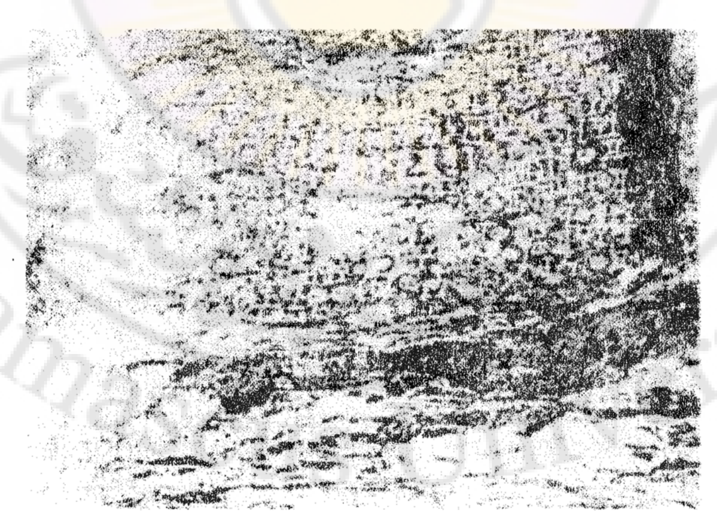
تمثال برونزي لطفل يركب أسداً - تمنع (اليمن) (50-75 ق.م)



قسم من سد مارب



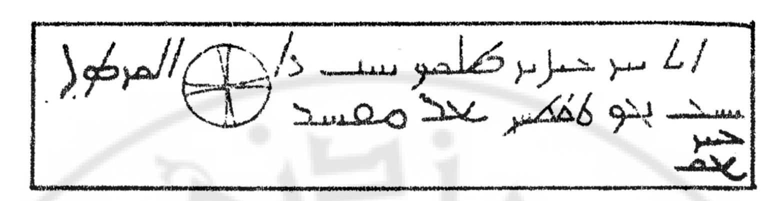
منظر عام لآثار الأخدود



نقش سبئي من وادي ماسل (وسط شبه الجزيرة) دونه ملك سبأ
ذو ريدان وحضرموت ويمنات أثناء غزوه للمنطقة في القرن الخامس الميلادي



مسلة عليها نقش باللحيانية
شمال غرب شبه الجزيرة (300 ق.م)

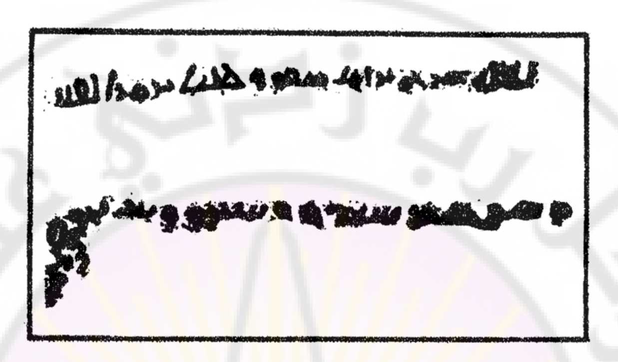


نص حران

هـ ـ نقش أم الجمال الثاني : وقد عثر عليه في أم الجمال المذكورة نقش على حجر هو أحدث نص عربي قبل الإسلام ، يعود تاريخه لأواخر القرن السادس الميلادي

1- لله غفر لأليه
2- بن عبيدة كاتب
3- الخليد أعلى بني
4- بقروه

نقش زبد وقد عثر عليه في زبد وهي خربة بين قنسرين ونهر الفرات . كتب بثلاث لغات هي اليونانية والسريانية والعربية وتاريخه يعود إلى 512 بعد الميلاد كتبت عليه أسماء الأشخاص الذين شيدوا الكنيسة .

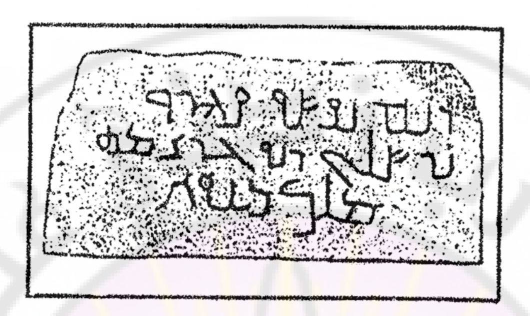


1- بنصر الإله (بر) سرحو بر (بن) أمت منفو وهلبا بر (بن) مر القيس .
2- وشرحو بر (بن) سعدو وسترو وشريحو تميمي (كتبت هذه الكلمة الأخيرة بالسريانية).

نقش حران : عثر عليه في حران في المنطقة الشمالية من جبل الدروز نقش باليونانية والعربية ووضع الحجر على جبهة باب كنيسة وتاريخه يعود لسنة 568 بعد الميلاد ويعتبر هذا النقش أول نقش عربي كامل في جميع كلماته وتعبيره .

1- أنا شرحبل (شرحبل بر بن) ظلموا بنت ذا المرطول .ج
2- سنت 463 بعد مفسد (خراب) ، (3) خيبر ، (4) بعم (بعام) . ومفسد خيبر يشير إلى غزو أحد أمراء بني غسان لخيبر وهو الحرث بن أبي شمرا غزا خيبراً فسبى من أهلها ولما قدم الشام أعتقهم .

نقش أم الجمل وجد مكتوباً على شاهد قبر فهد بن شلي (سلي) مربي حديمة (جذيمة) ملك تنوخ وقد دون هذا النص على الصورة التالية



دنه نفشو فهرو بن شلي ربو جد يمت ملك تنوح . والمراد من هذا النص : هذا قبر فهر بن شلي (سلي)مربي جذيمة ملك تنوخ . وهو نص نبطي بحروف تشبه حروف الخط الكوفي القديمة وبلهجة نبطية . وتمتاز الكتابة بظهور روابط عديدة بين الحروف

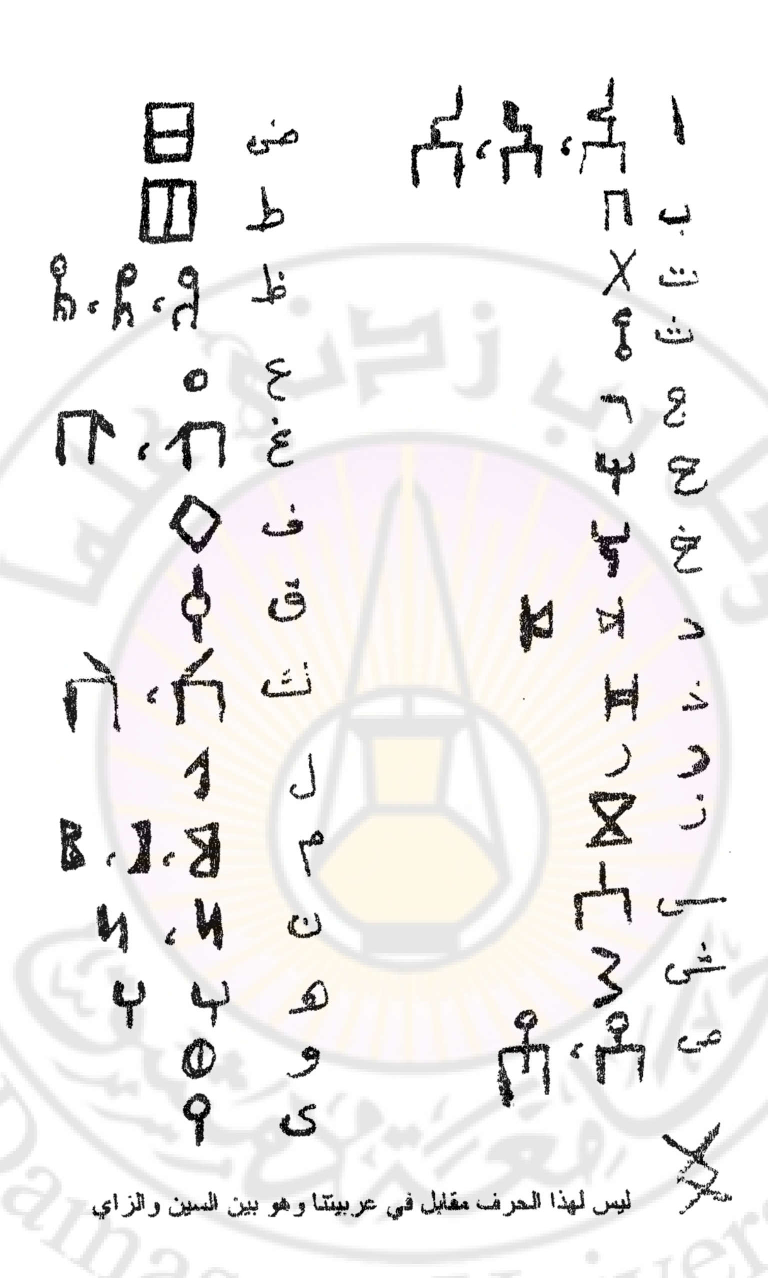
نص النمارة ، وهو شاهد قبر امرئ القيس

وهي كتابةعلى شاهد الملك امرئ القيس ، ثاني ملوك الحيرة ، مؤرخة بسنة 328 للميلاد وهذا النص كتب بالخط النبطي وبلغة آرامية ولكن بتراكيب عربية وجاء في خمسة أسطر على النسق والترتيب التالي :

1- تي نفس " نفش " مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج
2- وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب محجو عكدي وجا
3- بزجى في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
4- الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه
5- عكدى هلك سنت 223 يوم 7 بكلول بلسعد ذو ولده

١	𐩽	٢٠	𐩲𐩲
٢	𐩽𐩽	٢١	𐩲𐩲𐩽
٣	𐩽𐩽𐩽	٢٢	𐩲𐩲𐩽𐩽
٤	𐩽𐩽𐩽𐩽	٢٣	𐩲𐩲𐩽𐩽𐩽
٥	𐩭	٢٤	𐩲𐩲𐩽𐩽𐩽𐩽
٦	𐩭𐩽	٢٥	𐩲𐩲𐩭
٧	𐩭𐩽𐩽	٢٦	𐩲𐩲𐩭𐩽
٨	𐩭𐩽𐩽𐩽	٢٧	𐩲𐩲𐩭𐩽𐩽
٩	𐩭𐩽𐩽𐩽𐩽	٢٨	𐩲𐩲𐩭𐩽𐩽𐩽
١٠	𐩲	٢٩	𐩲𐩲𐩭𐩽𐩽𐩽𐩽
١١	𐩲𐩽	٣٠	𐩲𐩲𐩲
١٢	𐩲𐩽𐩽	٤٠	𐩲𐩲𐩲𐩲
١٣	𐩲𐩽𐩽𐩽	٥٠	𐩾
١٤	𐩲𐩽𐩽𐩽𐩽	٦٠	𐩾𐩲
١٥	𐩲𐩭	٧٠	𐩾𐩲𐩲
١٦	𐩲𐩭𐩽	٨٠	𐩾𐩲𐩲𐩲
١٧	𐩲𐩭𐩽𐩽	٩٠	𐩾𐩲𐩲𐩲𐩲
١٨	𐩲𐩭𐩽𐩽𐩽	١٠٠	𐩣، 𐩣
١٩	𐩲𐩭𐩽𐩽𐩽𐩽	٢٠٠	𐩣𐩣، 𐩣𐩣

صورة الأعداد عند العرب الجنوبيين
مقرونة بما يقابلها من الأرقام التي نستعملها عندنا في الحساب



ليس لهذا الحرف مقابل في عربيتنا وهو بين السين والزاي

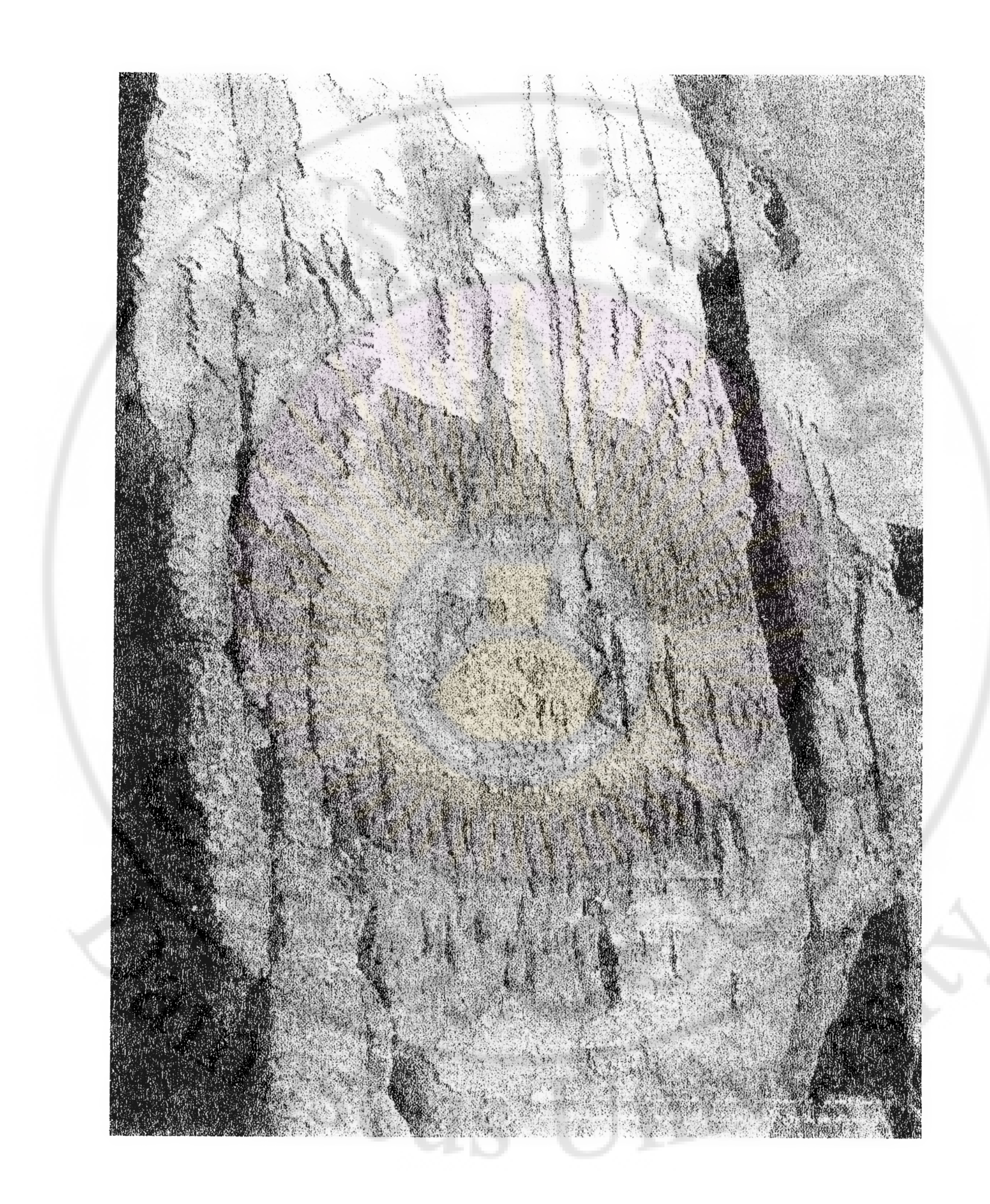
أشكال حروف المسند مرتبة
على ترتيب حروف الهجاء التي تسير عليها في زمننا



البتراء الضريح الكبير المسمى « الخزنة ».



شاهد قبر من الحجر الجيري عليه نقش بالعربية الجنوبية
باسم (عجل بن هعفم) عثر عليه في مقبرته

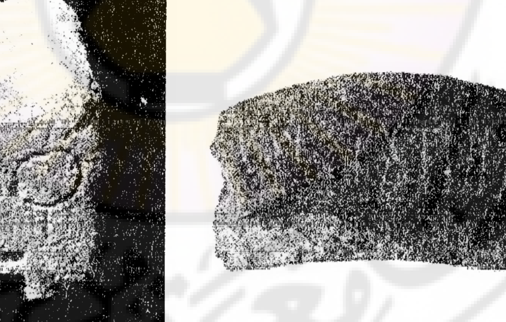




بخرة صغيرة من الحجر الجيري مكعبة الشكل تحمل على
بدرانها كتابة عربية بالخط المسند الجنوبي (رند) وترتكز
على قوائم.



جانب آخر للمبخرة السابقة عليه كتابة عربية بالخط المسند
الجنوبي .



مقبض إناء من الحجر الصابوني عليه نقش لكتابة عربية
جنوبية .

وجه آخر لنفس القطعة السابقة وعليه كتابة مماثلة . ط



1، 2- عملية استنساخ الكتابات من على الجدران بالمنطقة السكنية لقرية الفاو

3- شاهد قبر من الحجر الجيري عليه نقش عربي بالخط المسند الجنوبي باسم (وائل بن صعفن ذو إل نشن).

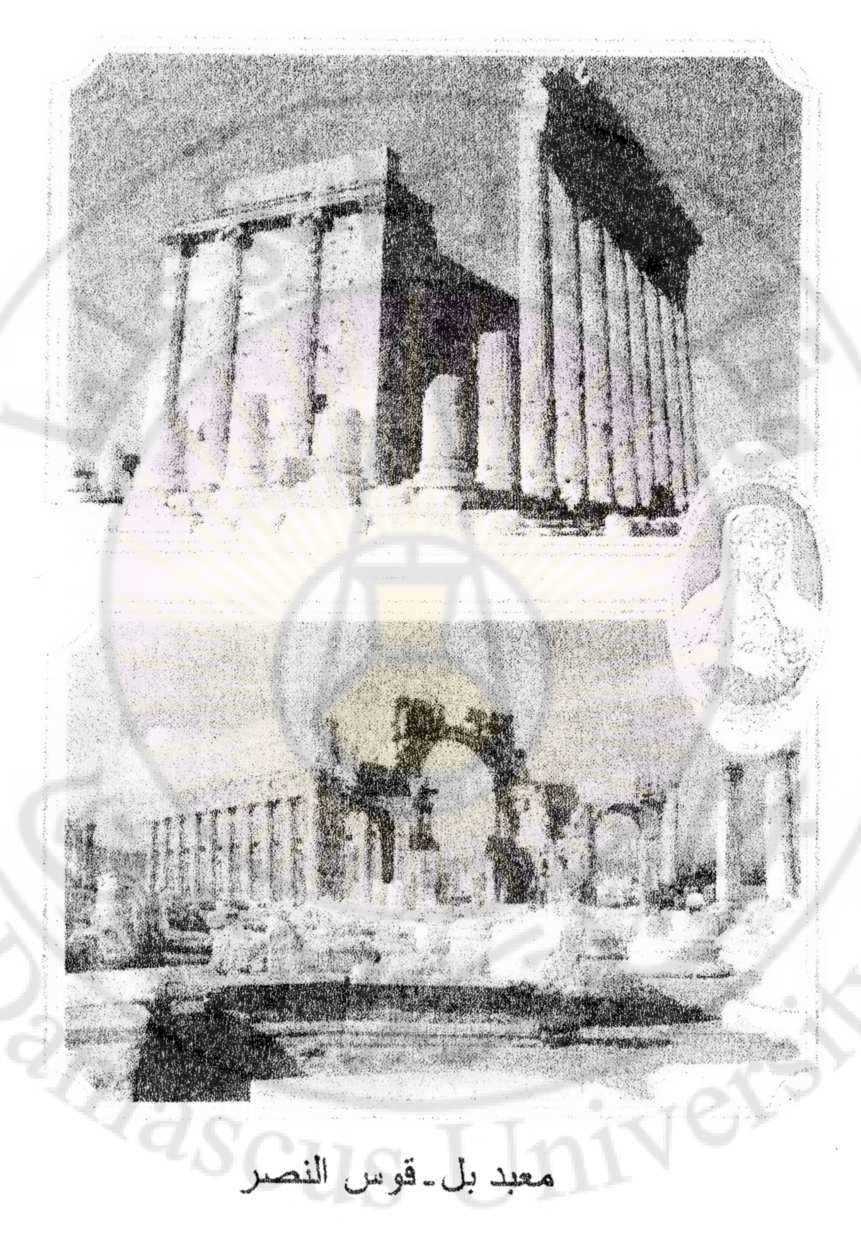
4- نقش عربي بالخط المسند الجنوبي على شاهد قبر من الحجر الجيري باسم (مسعد بن أرش) وقد عثر عليه في المقبرة الخفية.

5- بعض الرسوم على صخر جبل طويق بالجهة الجنوبية لقرية الفاو وتمثل جملين يحملان ما يشبه الهودجين.

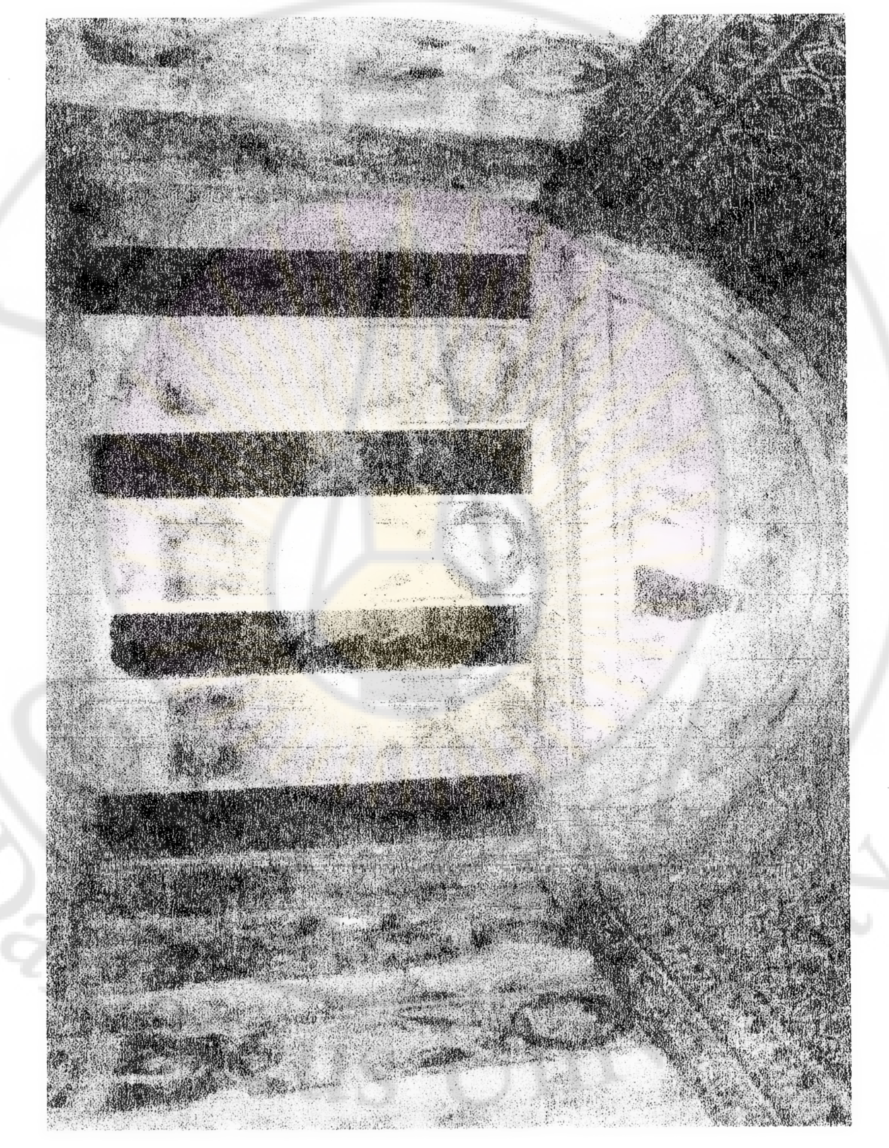
6- خربشات على بعض صخور جبل طويق المجاور لقرية الفاو.



تمثال من البرونز لمعدي كرب (جنوب الجزيرة)



معبد بل - قوس النصر



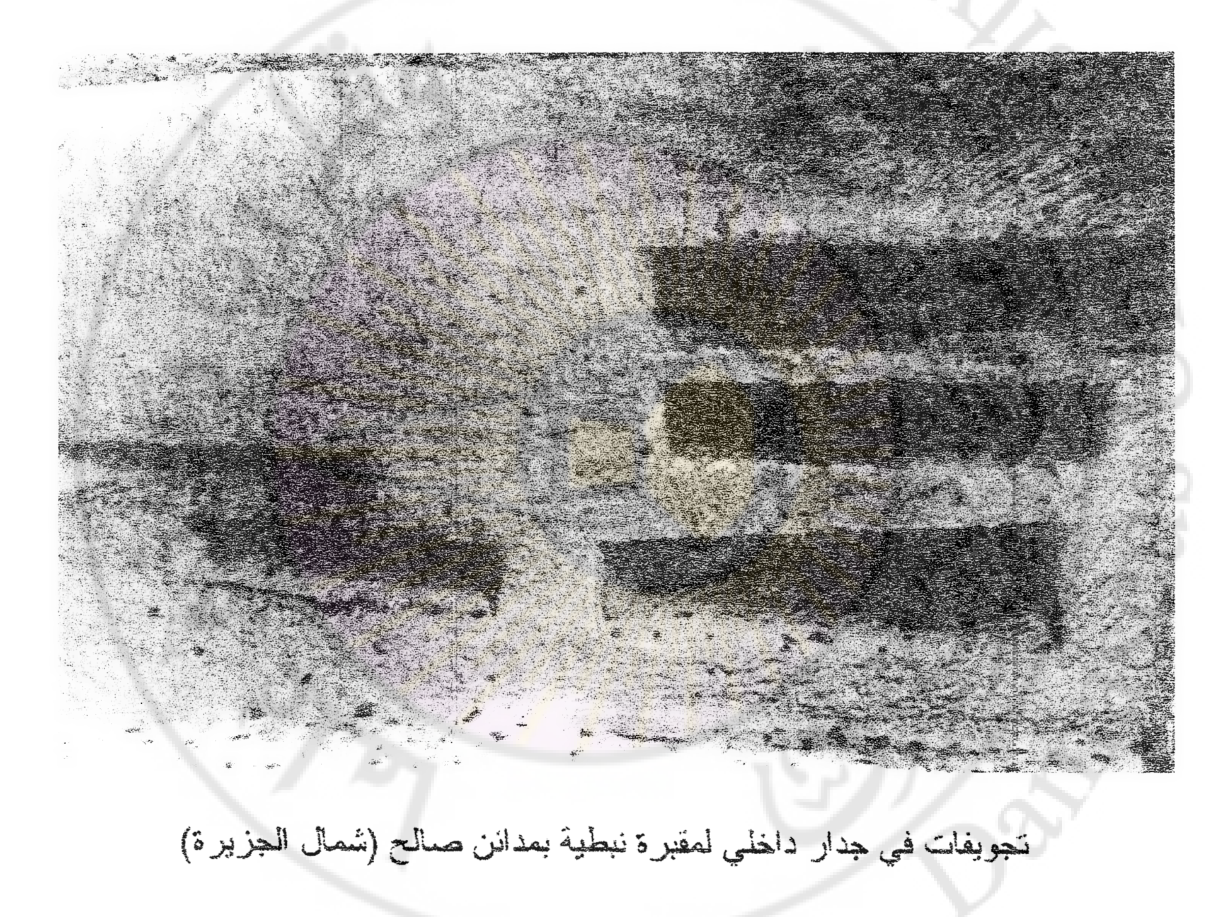
مدفن الإخوان الثلاثة



آثار السوق التجارية في موقع الفاو



مقبرة نبطية بمدائن صالح (شمال الجزيرة)



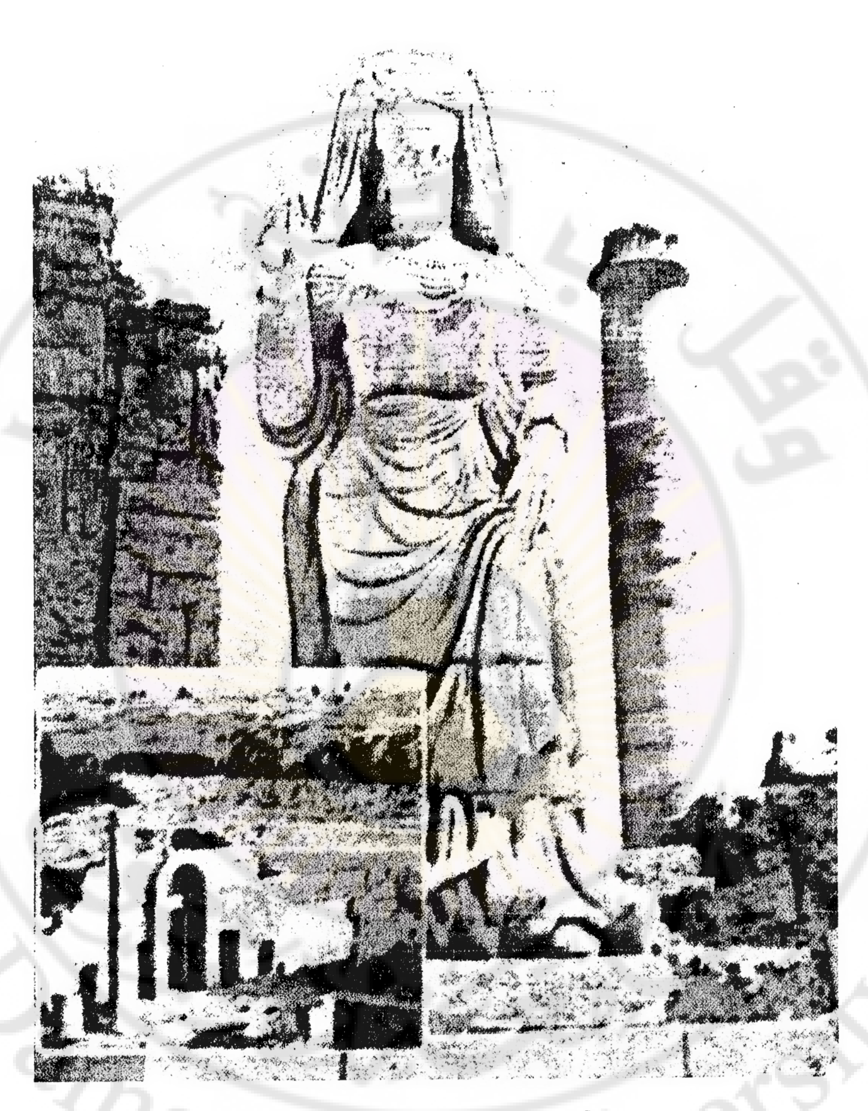
تجويفات في جدار داخلي لمقبرة نبطية بمدائن صالح (شمال الجزيرة)



اعلى بوابة مقبرة نبطية بمدائن صالح (شمال الجزيرة)



تمثال من الحجر الجيري
من مدائن صالح (شمال الجزيرة)



آثار الحضر، عاصمة (عربايا)



الاميرة دوشفري ابنة الملك سنطروق الثاني الى اليسار والى

جانبها ابنتها من المعبد الخامس



نموذج لفن النحت التدمري

سيدة تدمرية بكامل زينتها



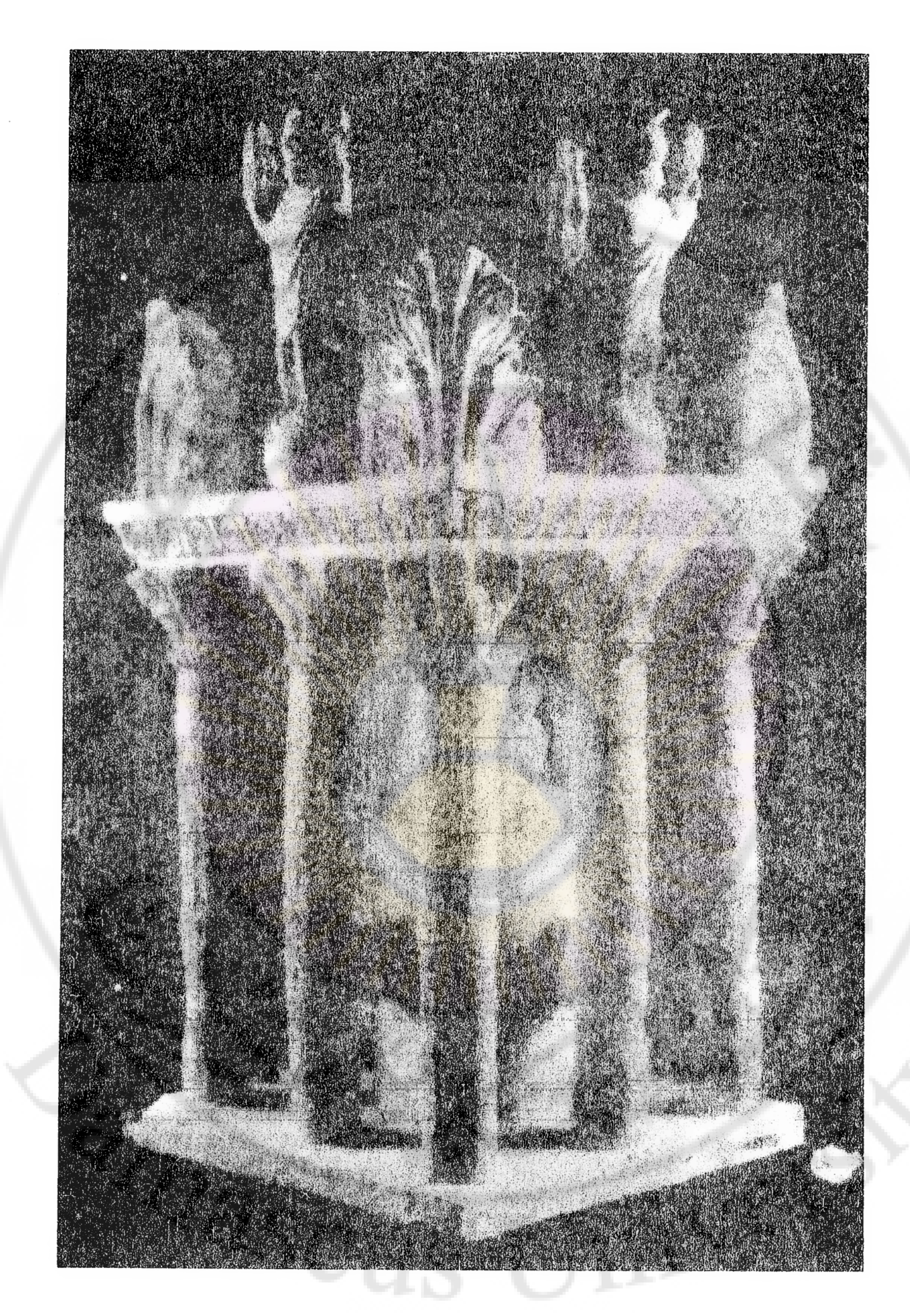
واجهة الأواوين الثانية والجدار الحاجز بينها
والصورة من الجنوب الشرقي



الايوان الجنوبي الايمن في معبد التثليث ، وقد ظهر السيد نصرو في الوسط باني



معبد التثليث



نموذج لمعبد نقشت على احدى اوجهه رايات حضرية من المعبد الثامن

المقومون العلميون

أ. د . سهيل زكّار .

أ. د . ابراهيم زعرور .

أ . م. د . وفاء جوني .

المقوم اللغوي

د. علي أبو زيد